

سيهون بوليغار

أو الجنرال في المتاهة

الألف
كتاب
الشانف
٢٢٩



تأليف: جابريل جارسيا ماركيز
ترجمة: محمد عبد المنعم جلال



0080294

مكتبة الإسكندرية
مكتبة للكتاب

سِيمُون بوليفار
أو
الجنرال في المتاهة

الألف كتاب الثانى

الإشراف العام

د. سمير سرحان

رئيس مجلس الإدارة

رئيس التحرير

أحمد صليحة

سكرتير التحرير

عزت عبدالعزيز

الإخراج الفنى

علياء أبو شادى

سِيمُون بوليشار أو الجنرال في المتاهة

بقلم
جابريل جارسيا ماركيز

ترجمة
محمد عبد المنعم جلال



المجموعة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٦

لمحة عن حياة سيمون بوليفار

١٧٨٤	٢٤ يولية : مولد سيمون بوليفار
١٧٨٦	١٩ يناير : وفاة فينست بوليفار ، والد سيمون
١٧٧٣	٦ يولية : وفاة دونا ماريا لكونسسيو بالاسيوس ، اى بلانكو ، ام بوليفار
١٧٧٥	٢٣ يولية : بوليفار يغادر بيت عمه • بداية محاكمة طويلة • يقيم لدى مدرسه سيمون رودريجز • يعود الى بيت عمه فى اكتوبر
١٧٩٧	: مؤامرة جوال اى اسبانيا فى الفنزيولا • بوليفار الى المليشيا للتدريب فى واء اراجوا
١٧٩٧ - ١٧٩٨	: يعطيه اندريس بيللو دروسا فى النحو والجغرافيا يدرس الطبيعة والرياضيات فى بيته وفى الأكاديمية التى أنشأها الأب فرانسيسكو دى اندوجار
١٧٩٩	١٩ يناير : يسافر الى اسبانيا ، ويتوقف فى كوبا والمكسيك يكتب أول رسالة له فى فيراكروز •
١٧٢٢ - ١٨٠٠	: يتصل فى مدريد بالعالم ، المركيز دى اوستاريث • استاذة الفكرى الحقيقى •
١٨٠١	: يدرس الفرنسية خلال مارس وديسمبر
١٨٠٢	١٢ فبراير : يعجب بنابليون فى اميان ، ويقع فى الحب فى باريس
٢٦ مارس :	يتزوج ماريا تيريزا رودريجز دل تورو مدريد •
١٢ يولية :	يصل الى فنزويلا مع زوجته ، ويكرس نفسه لادارة املاكه •
١٨٠٣	٢٢ يناير • تموت ماريا تيريزا فى كاراكاس • ٢٣ اكتوبر : هو فى اسبانيا من جديد •

- ١٨٠٤ ٢ ديسمبر : يحضر تتويج نابليون في باريس •
- ١٨٠٥ ١٥ أغسطس : حلف اليمين على جبل ساكرو بروما
- ٢٧ ديسمبر : ينضم الى ماسونية اسكتلندا ، وفي يناير ١٨٠٦ يحصل على رتبة استاذ •
- ١٨٠٧ أول يناير : يبحر الى شارلستون ويزور عدة مدن بالولايات المتحدة وفي يونيو يعود الى كاراكاس •
- ١٨ أبريل : يعتزل بوليفار في مزرعته بأراجوا ولا يستطيع الاشتراك في أحداث ١٩ أبريل ، بداية الثورة الفنزويلية •
- ٩ يونيو : يسافر في مهمة دبلوماسية الى لندن حيث يلتقي بفرانسييسكو دي ميراندا •
- ٥ ديسمبر : عودة الى لندن ، وبعد خمسة أيام يصل مع فرانسييسكو الى كاراكاس ويقيم هذا الأخير في بيت بوليفار •
- ١٨١١ ٥ مارس : يجمع كونجرس فنزويلا لأول مرة •
- ٤ يولية : خطاب بوليفار في الجمعية الوطنية •
- ٥ يولية : فنزويلا تعلن استقلالها •
- ٢٢ يولية : يشترك بوليفار تحت أوامر ميراندا في معارك فالنسيا ، أول تجربة له في الحرب •
- ٢٦ مارس : زلزال في كاراكاس •
- ١٨١٢ ٦ يولية : يفقد الكولونيل سيمون بوليفار بويرتو كابيللو ، اثر خيانة •
- ٣٠ يولية : يلقي بوليفار القبض على فرانسييسكو دي ميراندا ويسجنه ويرفع عليه قضية عسكرية بتهمة الخيانة والاستسلام امام اسبانيا ، يحتجز مانويل ماريا كازاس السجن ويسلمه للأسبان •
- أول سبتمبر : يصل بوليفار الى كاراكاس منقاه الأول •
- ١٥ ديسمبر : يصدر في غرناطة الجديدة « بيان قرطاجنة » •
- ٢٤ ديسمبر : يبدأ بوليفار حملة مجدالينا باحتلال تينيريف ، ويطرد جميع الأسبان من المنطقة •

- ١٨١٢ ٢٨ فبراير : يتعازك في كوكوتا .
- أول مارس : يحتل سان انطونيو دل تاشيرا .
- ١٢ مارس : يحصل على رتبة بريجادر غرناطة الجديدة .
- ١٤ مارس : يقوم في كوكوتا بالحملة الرائعة .
- ٢٣ مايو : يمنح في ميريدا لقب المحرر .
- ٦ أغسطس : دخول مظفر يكاراكاس في نهاية الحملة الرائعة .
- ١٤ أكتوبر : كونجرس كاراكاس يجتمع ويعلن بوليفار قائدا عاما ومحررا .
- ٥ ديسمبر : معركة آرور .
- ١٨١٤ ٨ فبراير : يصدر بوليفار أمرا باعدام أسرى لاجوايه .
- ١٢ فبراير : معركة فيكتوريا .
- ٢٨ فبراير : معركة سان ماتيو .
- ٢٨ مايو : معركة كارابولو الأولى .
- ٧ يولية : يبدأ عشرون ألف مواطن من أهالي كاراكاس وعلى رأسهم المحرر والهجرة نحو الشرق .
- ٤ سبتمبر : ريباس وبيار اللذان أبعدا بوليفار ومارينو يصدران أمرا بالقاء القبض عليهما .
- ٧ سبتمبر : يصدر بوليفار بيان كاروبانو ويرفض الاعتراف بأمر القبض عليه ويبحر في صباح اليوم التالي الى قرطاجنة .
- ٢٧ نوفمبر : حكومة غرناطة الجديدة تعينه جنرالا عاما وتكلفه باستعادة دولة كوندينا ماركا . ويبدأ الحملة ويحصل على استسلام بوجوتا .
- ١٥ ديسمبر : يؤلف حكومته الأولى في بوجوتا .
- ١٠ مايو : يحاول تحرير فنزويلا بدماء من قرطاجنة ، ولكنه يلقى معارضة سلطات المدينة ، ويقرر عندئذ الرحيل الى جمايكا ، منفا الاختياري .
- ٦ سبتمبر : يصدر رسالة جمايكا الشهيرة .

٢٤ ديسمبر : يبحر الى كايس بهاييتى حيث يلتقى بصديقه
لويس بريون ، بحار من كوراساو . ويلتقى
بالكسندر بتيون ، رئيس هاييتى الذى يزوده بمدد
لا مثيل له .

١٨١٦ ٣١ مارس : حملة كايس تخرج من هاييتى ، ولويس بريون
ضمنها .

٢ يولية : يصدر فى كارو مرسوما بالغاء الرق .

١٨١٧ ٩ فبراير : يتعانق بوليفار وبرموديز على جسر نهر نيفرتى
ببرشلونة ويتصالحان .

١١ أبريل : معركة سان فليكس بقيادة بيار . تحرير
انجوسترا والسيطرة والاستقرار النهائى
للجمهورية (الجمهورية الثالثة) .

٨ مايو : الكاهن جوزيه كورتيس مادارياجا يدعو
الكونجرس الى الانعقاد فى كاريماكو . يفشل
هذا الكونجرس الصغير رغم أن قرارين من
قراراته ما يزالان نافذين الفحول : النجوم السبعة
للعلم الوطنى واعلان جزيرة مارجاريتا كدولة
أسبرطة الجديدة .

١٢ مايو : بيار يصبح قائدا عاما .

١٩ يونية : يكتب بوليفار لبيار خطاب مصالحة : جنرال ،
اننى افضل ان احارب الأسبان من ان اواجه
مشاكل بين المواطنين .

٤ يولية : فى بحيرة كازاكويا ، يبقى بوليفار فى الماء
حتى عنقه مدة طويلة مختبئا للافلات من كمين
للملكيين وفيما هو كذلك يقتنبا للضباط المشدوهين
بما سوف يعمل بعد استيلائه على انجوسترا
وحتى تحرير بيرو .

١٦ أكتوبر : اعدام الجنرال بيار فى انجوسترا . لويس بريون
يرأس مجلس الحرب .

١٨١٨ ٣٠ يناير : يتحدث لأول مرة فى مزرعة كانا فيستولا ، فى
جبال آبور مع بايز رئيس جيوش السهول .

- ١٢ فبراير : بوليفار يهزم موريللو فى كالا بوزا .
- ٢٧ يونية : يؤسس بريد أورنيوك فى أنجوسترا .
- ١٨١٩ ١٥ فبراير : اجتماع كونجرس أنجوسترا . يلقي فيه الخطاب المشهور الذى يحمل اسمه . ينتخب رئيسا لفنزويلا ، وبعد ذلك على الفور يبدأ حملة تحرير غرناطة الجديدة .
- ١٧ أغسطس : معركة بويكا .
- ٢٧ ديسمبر : بوليفار يؤسس جمهورية كولومبيا بأقاليمها الثلاثة : فنزويلا ، كوندينا ماركا وكيتو . ينتخبه المجلس رئيسا للجمهورية .
- ١٨٢٠ ١١ يناير : بوليفار فى سان جوان دى باياز فى آبورا .
- ٥ مارس : بوليفار فى بوجوتا .
- ١٩ أبريل : يحتفل فى سان كريستوبل بمرور عشر سنوات على بدء الثورة .
- ٢٧ نوفمبر : يلتقى ببابلو موريللو فى سانتا أناترومبولو . فى اليوم السابق صدق بوليفار على الهدنة ومعاهدة تنظيم الحرب .
- ١٨٢١ ٥ يناير : بوليفار فى بوجوتا ، يعد حملة الجنوب التى سيعهد بها الى سوكريه .
- ١٤ فبراير : يهتف رافائيل أوردانيتا لاعلانه استقلال مراكيبو ويبدى خوفه من أن تعتبر اسبانيا ذلك سوء نية فيضرب بذلك الهدنة .
- ١٧ أبريل : يصدر بيانا يعلن فيه شجب الهدنة والبدء بحرب مقدسة ، سينتقل لتجريد العدو من السلاح وليس لابادته .
- ١٨ أبريل : بدء عداءات جديدة .
- ٢٧ يونية : بوليفار يحرز النصر فى معركة كارابوبو ، وهى ليست معركته الأخيرة ولكنه يؤكد فيها استقلال فنزويلا .

- ١٨٢٢ : ٧ أبريل : معركة يومبوتونا •
- ٢٤ مارس : معركة بيشيشينا •
- ١٦ يوفية : عند دخوله المظفر في كيتو ، بجوار سوكرية ؛
يتعرف على مانويلا ساينز •
- ١١ يولية : بوليفار يدخل جوايا كيل ويضمها الى كولومبيا
بعد يومين •
- ٢٦ ، ٢٧ يولية : لقاء بوليفار وسان مارتين في جواياكيل •
- ١٣ أكتوبر : يكتب : « هذيان فوق شيمبوراسو بلوجا » ، على
مقربة من كوينكا بالاكوا دور •
- ١٨٢٣ : أول مارس : ريفا اجيلورا ، رئيس بيرو ، يطلب من المحرر
أربعة آلاف جندي ومساندة كولومبيا لاحتراز
الاستقلال • يرسل بوليفار أول دفعة من ثلاثة
آلاف جندي في ١٧ مارس ودفعة ثانية من ثلاثة
آلاف جندي أيضا في ١٢ أبريل •
- ١٤ مايو : كونجرس بيرو يصدر مرسوما يطلب فيه من
المحرر انتهاء الحرب الأهلية •
- أول سبتمبر : يدخل بوليفار ليما ، ويخوله الكونجرس عزل
ريفا اجيلورو الذي انضم الى الأسبان •
- ١٨٢٤ : أول يناير : رحيل بوليفار الى باتيفيلكو مريضا •
- ١٢ يناير : يصدر من سوما باعدام جميع الذين يسرقون أكثر
من عشرين بيزو من أموال الدولة •
- ١٩ يناير : في رسالة جميلة الى معلمه سيمون رودريجز
يكتب « أنت دربت قلبي على الحرية والعدالة
والجلالة والجمال » •
- ١٠ فبراير : كونجرس بيرو يعلنه دكتاتورا لكي ينقذ
الجمهورية من انهيارها •
- ١٦ أغسطس : معركة جونين •
- ديسمبر : بوايثار يحرر ليما •

- ٧ ديسمبر : دعوة كونجرس بنما للاجتماع .
- ٩ ديسمبر : انتصار سوكريه في اياكوشو . وبذلك تتحضر اميركا الاسبانية كلها .
- ١٨٢٥ : تعترف انجلترا باستقلال الدول الجديدة في اميركا .
- ١٢ فبراير : كونجرس بيرو يشكر المحرر ويمنحه ميدالية ويقيم له تمثالا وهو على صهوة جواده ويمنحه مليون بيزو مكافاة له ومليوناً آخر لجنوده . يرفض بوليفار المكافاة ولكنه يقبل المال لجنوده .
- ١٨ فبراير : كونجرس بيرو يرفض استقالته وتخليه عن سلطته غير المحدودة .
- ٦ اغسطس : تقرر جمعية منعقدة في شوكيزاكا انشاء جمهورية بوليفيا .
- ٢٦ اكتوبر : بوليفار في سيرو دي بوتوسيف .
- ٢٥ ديسمبر : يصدر مرسوما في شوكيزاكا بزرع مليون شجرة .
- ١٨٢٦ ٢٥ مايو : يخبر سوكريه ، من ليما ، ان بيرو احتسرت بجمهورية بوليفيا ويرسل اليه مشروع دستور بوليفي .
- ٢٢ يونية : اجتماع كونجرس بنما .
- ١٦ ديسمبر : بوليفار في ماراكيبو حيث يقدم للفنزويليين اجتماع المؤتمر الكبير .
- ٣١ ديسمبر : يصل الى بويرتوكابلو للاجتماع ببايز .
- ١٨٢٧ اول يناير : يصدر مرسوما بالعفو عن المسئولين عن الحركة الانفصالية ويدعم بايز في منصبه كرئيس اعلى ومن بويرتوكابلو يكتب لبسايز : لا استطيع تقسيم الجمهورية ولكنني اريد ذلك من اجل صالح فنزويلا وسيقرر ذلك باجتماع عام اذا ارادت فنزويلا ذلك .

٤ يناير : فى ناجا وانجوا بالمقرب من فالنسيا ، يلتقى ببايز ويعرض عليه معاونته . وكان قد اعلن قبل ذلك فى كونجرس بوجوتا بان له الحق فى مقاومة الظلم بالعدل والمغالة فى استخدام القوة بالعصيان وازعج هذا البيان سانتاندر الذى يغذى بذلك استياءه نمو المحرر .

١٢ يناير : يصل الى كاراكاس مع بايز وسط الهتافات الشعبية .

٥ فبراير : يرسل من كاراكاس الى كونجرس بوجوتا استقالة جديدة من الرئاسة لأسباب مأساوية ويختتم : « وازاء هذه المشاعر فأننى أستقيل مرة ، بل مليون مرة من رئاسة الجمهورية » .

١٦ يونية : كونجرس كولومبيا يرفض استقالة بوليفار ويطالبه بالقدوم الى بوجوتا لحلف اليمين .

٥ يولية : يرحل من كاراكاس الى بوجوتا ، ولن يرى مسقط رأسه بعد ذلك .

١٠ سبتمبر : يصل بوليفار الى بوجوتا ، وأمام معارضة قوية يحلف اليمين كرئيس للجمهورية .

١١ سبتمبر : رسالة الى توماس دى هيريس : دخلت أمس العاصمة وقد تقلدت الرئاسة الآن . وكان هذا أمرا ضروريا لتجنب أضرار عديدة مقابل صعوبات لا نهاية لها .

١٠ أبريل : ١٨٢٨ بوليفار فى بوكارامانجا فى الوقت الذى يقام فيه مؤتمر أوكانا الذى يتصدد أثناءه أنصار سانتاندر وأنصار بوليفار . يبدى هذا الأخير احتجاجا أمام المؤتمر للشكر الموجه الى الجنرال باديللا بسبب الاغتيالات التى وقعت فى قرطاجنة .

٩ يونية : بوليفار يغادر بوكارامانجا للمضى الى فنزويلا عارجا فى طريقه الى انوكو . مزرعة المريكز دى دل تورو .

١١ يونية : حل مؤتمر أوكانا .

٢٤ يونية : تتعارض مشروعات بوليفار فيعود الى بوجوتا حيث يقابل بالهتافات -

١٥ يولية : يشير بايز في فالنسيا الى بوليفار على انه العبقري الفريد للقرن التاسع عشر ، ذلك الذى قدم منذ ثمانية عشر عاما التضحيات لتو التضحيات لاسعادكم وانجز ما يمكن مطابته به من سويداء قلبه : « القيادة العليا التى تخلق عنها ألف مرة والتى تجبره الحالة الزائفة للجمهورية على قبولها » .

٢٧ اغسطس : صدر مرسوم بتنظيم الدكتاتورية بسبب عداءات مؤتمر اوكانا يلغى بوليفار بموجبه منصب نائب الرئيس وبذلك يصبح سانتاندر خارج الحكومة ، ويعرض عليه بوليفار سفارة كولومبيا بالولايات المتحدة ويقبل سانتاندر ولكنه يؤخر رحيله ، ومن المحتمل ان استبعاد سانتاندر من السلطة كان له تاثير فى محاولة اغتيال ٢٥ سبتمبر .

٢١ سبتمبر : يسلم بايز ببوليفار قائدا اعلى ويصلف اليمين امام الاسقف رامون اجناسيو منديز فى الميدان الكبير بكراكاس حيث احتشد جمع غفير ٠٠٠ « واقسم يا ننى سامطع وانفذ الاوامر التى سيوقع عليها كقوانين للجمهورية ، والسماء شاهدة على قسمى وستكافىء الاخلاص الذى سأنفذ به وعدى ٠٠٠٠ » .

٢٥ سبتمبر : محاولة اغتيال بوليفار فى بوجوتا - تنقذه مانويل ساينز - سانتاندر من بين المشبوهين - ويحكم عليه اوردانيتا - احد اعضاء المحلفين بالاعداء ويخفف بوليفار الحكم الى النفى .

١٩٢٩ اول يناير : بوليفار فى بوريفكاسيون - الخلافات مع بيرو التى اجتلت جواياكيل عسكريا تحتم ضرورة وجوده فى الاكوادور -

٢١ يولية : كولومبيا تستعيد جواياكيل والشعب يستقبل المحرر استقبالا حافلا .

١٢ سبتمبر : بوليفار يكتب لأوليري « نحن جميعا نعرف ان اتحاد غرناطة الجديدة وفنزويلا مرتبط بسبلدتي بالذات ، وهى سلطة سوف تختفى الآن او فيما بعد كما تقتضى مشيئة العناية الالهية او مشيئة الرجال » .

١٢ سبتمبر : خطاب الى بايز « أصدرت نشرة تدعو كل الأمالى وكل الهيئات للتعبير عن رأيهم بكل حزم وصراحة ويمكنك أن تتصرف الآن قانونيا لكى يقول الشعب ما يريد فقد حانت الساعة التى تعلن فيها فنزويلا رأيها دون أى اعتبار غير المصلحة العامة . فاذا ما اتخذت اجراءات جوهريه لكى يقولوا ما تريدون انتم حقا فسوف تكون الاصلاحات كاملة وتتحقق روح الشعب » .

٢٠ اكتوبر : العودة الى كيتو .

٢٩ اكتوبر : العودة الى بوجوتا .

٥ ديسمبر : فى بويايان يكتب بوليفار لجوان جوزيه غلورس ، سنيخلفتي سوكريه بالطبيع « ومن المحتمل أن نمنحه جميعا كل دعمنا ، أما عن ناحيتي فأننى سادعنه بكل قلبى ، وكل روحى »

١٥ ديسمبر : يعلن لبايز انه لن يقبل رئاسة الجمهورية مرة اخرى « واذا انتخب بايز رئيسا للجمهورية فانه يقسم له بشرفه انه سوف يعمل تحت امرته ويخدمه بكل سرور »

١٨ ديسمبر : يستهجن موضوع مشروع الملكية الكولومبية .

١٥ يناير : بوليفار فى بوجوتا من جديد .

٢٠ يناير : اجتماع كونجرس كولومبيا « رسالة من بوليفار يقدم فيها استقالته من رئاسة الجمهورية

٢ يناير : يلتمس موافقة الكونجرس لكى يمضى الى فنزويلا . يرفض الكونجرس ذلك .

اول مارس : يسلم السلطة لدومينجو كايسيدو ، رئيس الحكومة وينسحب الى فوشا .

٢٧ أبريل : فى رسالة الى الكونجرس يجدد قراره بعدم البقاء
فى الرئاسة .

٤ مايو : ينتجب جواكين موسكيرا رئيسا لكولومبيا .

٨ مايو : يقوم بوليفار برحلته الأخيرة .

٤ يونية : اغتيال سوكريه فى بيروكوس . يعلم بوليفار
بذلك فى أول يولية عند سفح جبل لابويا ويحزن
اشد الحزن .

٥ سبتمبر : يستولى اوردانيتا على السلطة فى كولومبيا
بسبب اهمال المسؤولين الواضح فى بوجوتا
وقرطاجنة وفى مدن أخرى بغرناطة الجديدة
مظاهرات وهتافات لصالح المحرر لكى يعود الى
السلطة من جديد . وفى انتظار ذلك ينتظره
اوردانيتا

١٨ سبتمبر : عندما يعلم بوليفار بالأحداث التى حملت
اوردانيتا على رأس الحكومة يعرض ، كمواطن
عادى وكجندى الدفاع عن سلامة الجمهورية
ويعلن أنه سيسير الى بوجوتا على رأس الفى
رجل لدعم الحكومة الجديدة ، ويرفض جزئيا
الطلب الذى يقدم اليه لاستعادة السلطة متذعرا
بأنهم سيمتبرونه مغتصبا ، ولكنه يترك الباب
مفتوحا فى حالة اذا ما وقعت انتخابات جديدة
... « ستعطىنى الشرعية بظلمها او سيكون هناك
رئيس جديد » . ويطلب من مواطنيه أخيرا
تدعيمهم لحكومة اوردانيتا .

٢ أكتوبر : بوليفار فى ثوريانو .

١٥ أكتوبر : هو فى سوليداد .

٨ نوفمبر : هو فى بارانكيللا .

١٠ ديسمبر : يصل الى سانتا مارتا فى حالة انهيار .

٦ ديسمبر : يمضى الى سان بدرو اليجانندرو . مزرعة
الأسباني جواكين دى ميير .

١٠ ديسمبر : يملئ وصيته وبيانه الأخير . وازاء اصرار الطبيب
لكى يعترف ويتلقى الأسرار الأخيرة يقول :
« ما معنى هذا . هل حالتى سيئة لكى تحدثوننى
عن الوصية والاعتراف ؟ » كيف أخرج من
هذه المتاهة ؟ »

١٧ ديسمبر : بوليفار يموت فى سان بدور اليجانندرو . يحيط
به قليل من الأصدقاء .

سيمون بوليفار
أو
الجنرال في المتاهة

من الى الفارو موقيس

يبدو أن الشيطان يوجه
أمور حياتي

من خطاب الى سانتاندر

وجده جوزيه بالاسيوس ، اقدم خدمه ، يطنشو ، عاريا ومفتوح العينين فوق ماء البانيو المعطر ، فحسبه قد غرق - كان يعرف أن هذه احدى طرقه المعروفة فى التامل ، ولكن الدهول الذى كان مستغرقا فيه وهو ينساق مع التيار كان يبدو كأنه أشبه بدهول رجل لم يعد على قيد الحياة ، ولم يجرؤ على الاقتراب منه ، وناداه بصوت أصم ، محترما الامر الذى صدر اليه بعدم ايقاظه قبل الساعة الخامسة ، حتى يتسنى له الرحيل بمجرد بزوغ الفجر - وافاق الجنرال من السحر ، ورأى فى العتمة العينين الزرقاوين والصافيتين ، والشعر القصير المجعد ، السنجابى اللون والمهابة الجريئة لخدمه الذى يقوم بخدمته كل الأيام ، ممسكا فى يده قدحا من منقوع الخشخاش والصمغ العربى ، واستند ، وهو واهن القوى على مقبض البانيو، وخرج من البانيو بحماس دولفينى لا يمكن توقعه من جسد ضعيف كجسده ، وقال :

— فلنعجل بالرحيل ، فما من أحد هنا يعبنا •

سمعه جوزيه بالاسيوس يقول ذلك مرارا عديدة وفى مناسبات جد مختلفة بحيث انه اعتقد مرة أخرى أن قوله هذا غير صحيح ، على الرغم من أن الجياد كانت على استعداد فى الاصطبلات ، وان الوفد الرسمى بدأ يجتمع - وساعده على تجفيف جسده بكل سرعة وألقى فوق عريه عباءة جبلية لأن رعدة يديه تسببت فى اصطفاق القدح بالصحن - منذ بضعة شهور ، قبل ذلك ، وهو يرتدى سراويله المصنوعة من جلد الغزال والتي لم يلبسها بعد ، منذ ليالى ليما البابلية ، اكتشف أنه كلما نقص وزنه قصرت قامته - حتى عريه

كان مختلفا ، لأن جسده أصبح مصفرا ، وبدأت رأسه ويدها
كما لو أنها جفت بفعل تقلبات الجو . كان قد بلغ السادسة
والأربعين من عمره فى شهر يوليه الماضى ، ولكن خصلات
شعر الكاريبى الخشن غدت بلون الرماد . تخلخلت عظامه
بسبب شيخوخته المبكرة ، وأصبح كل شئ فيه تالفا الى حد
انه كان يبدو أنه لن يستطيع البقاء على قيد الحياة حتى
يوليه القادم ، ومع ذلك فان حركاته التى تدل على الحزم
بدأت كأنها تصدر من رجل آخر لم يتعرض لنكبات الحياة .
وكان يمشى دون توقف حول لا شئ . واحتسى المشروب فى
خمس جرعات حارقة ألهبت لسانه ، وهو يبتعد عن آثار المياه
التي تساقطت فوق الحصر البالية ، وبدأ كأنه يشرب رحيق
البعث . ولكنه لم ينطق بكلمة قبل أن تنتهى ساعة الكاتدرائية
المجاورة من دقائقها ، معلنة الخامسة .

وقال الخادم : اليوم السبت . الثامن من مايو ، يوم
القديسة العذراء ، المانحة لكل النعم ، والمطر يهطل منذ
الثالثة صباحا .

قال الجنرال وقد بدأ صوته مختلجا بسبب انفاسه
العادة من الأرق :

— منذ الساعة السابعة من صباح القرن السابع عشر لم
أسمع الديكة .

قال جوزيه بالاسيوس : لا توجد هنا ديك .

قال الجنرال : لا يوجد شئ . انها أرض خونة .

كانا فى سانتا بيوجوتا . على ارتفاع ألفين وثمانية
متر عن سطح البحر البعيد . ولم تكن الغرفة الكبيرة الصارمة
الجدران ، والمعرضة للرياح القارسة التى تتسلل من النوافذ
المخلعة مناسبة أبدا لصحة أى رجل . ووضع جوزيه بالاسيوس
فوق رخام منصدة الزينة طبقا صغيرا به رغاوى صايون ،
وعلبة مخملية حمراء تحتوى على أدوات الحلاقة ، وكلها من

المعدن المذهب . ثم وضع الشمعدان وبه شمعَة فوق منضدة صغيرة بجوار المرأة لكي تتيح للجنرال ما يكفى من ضوء . وأدنى الدفاية لتدفئة قدميه ، ثم ناوله النظارة ذات الزجاج المربع والاطار الفضى الرقيق التى يحملها له دائما فى جيب صديرته . وثبتتها الجنرال فوق عينيه وحلق ذقنه . مستخدما الموسى ببراعة ، سواء بيده اليمنى أم بيده اليسرى . لأنه كان أيمن أعسر يحكم مولده . وپرباطة جأش مدهشة ، بعيدة عن تلك الرعشة التى منعتة منذ لحظات من الامساك بالقدرح . وفرغ من حلاقة ذقنه وهو يتحسس . دون أن يكف عن اللف والدوران فى الغرفة . لأنه كان يتجنب يقدر المستطاع النظر الى المرأة . حتى لا تلتقى بها عيناه ، ثم انتزع شعيرات انفه وأذنيه ودعك أسنانه الناصعة البياض بفرشاة من الحرير بها سقبض من الفضة يسط فوقها مسحوقا من الفحم ، وجرح نفسه . ولمع أظفار يديه وقدميه ، وخلع عباءته . وصب على جسده قنينة كبيرة من ماء الكولونيا ، وذلك جسده بيديه حتى الاعياء . فقد كان يحتفل فى ذلك اليوم بقداس النظافة اليومية ، بحماس أكثر من المعتاد ، محاولا أن يظهر جسده وروحه من عشرين سنة من الحروب غير المجدية ، ومن خيبات أمل فى تولى السلطة .

كانت آخر زيارة تلقاها بالأمس زيارة مانويلا اينس . المواطنة الكتونية المتودكة التى تحبه والتى مع ذلك لن تتبعه حتى الموت . ستبقى كما هى دائما . مهمتها اطلاق الجنرال على كل ما يدور أثناء غيابه . لأنه ، منذ وقت طويل . لم يعد يثق فى أحد غيرها . وهو يترك لها كذكرى بضعة مخلفات لا قيمة لها الا لأنها كانت ملكا له . وكذلك بعض كتبه الأثيرة لديه وصندوقين يضمن وثائقه الخاصة . وكان قد قال لها بالأمس ، أثناء الوداع الأخير الوجيز والرسمى : « اننى أحبك كثيرا ، ولكننى سأحبك أكثر اذا ما تجملت بالحكمة أكثر من أى وقت مضى » . وفهمت قوله

هذا على أنه تكريم آخر بين كل التكريمات التى لقيتها منه
فى ثمانى سنوات من الحب المحترم * وكانت هى الوحيدة ،
من بين كل المقربين اليه ، التى تصدقه * وسيرحل هذه المرة
دون عودة ، ولكنها كانت الوحيدة أيضا التى يراودها الامل
فى أن يعود * لم يعتقد أى منهما أنهما سيلتقيان ثانية قبل
الرحيل * ومع ذلك فان صاحبة البيت أرادت أن تقدم لهما
هدية اخيرة : وداع خاطف ، فأدخلت مانويلا ، متكررة فى زى
فارس ، من باب الاصطبلات ، ضاربة بذلك عرض الحائط
بتعصب المجتمع المحلى المتدين * ولم يكن ذلك لأنهما عاشقان
مستتران ، لأنهما كانا يتحaban فى العلن ، ويتعرضان
لافتضاح أمرهما أمام الجميع ، ولكن لكى تحافظ على السمعة
الطيبة للبيت * على أن الجنرال كان أكثر ورعا ، لأنه أصدر
أمره الى جوزيه بالاسيوس بأن يترك باب الصالة المجاورة
مفتوحا ، وهى ممر اضطرارى للخدم ، وحيث الحراس الذين
يقومون بالحراسة يلعبون الورق ، حتى بعد انتهاء الزيارة *

قرأت له مانويلا أثناء ساعتين * كانت لا تزال شابة
قبل ذلك بوقت قصير ، حتى اللحظة التى بدأ فيها لحمها يتغلب
على سنها * وكانت تدخن غليون بحارة ، وتتعطر بماء
الفرنجيتى ، وهو عطر خاص بالعسكريين ، وترتدى زى
الرجال ، وتتجول بين الجنود ، غير أنه كان ما يزال بصوتها
بحة مناسبة لدخسة الحب * وكانت تقرأ على ضوء الشمعة
الخافت ، وهى جالسة فوق مقعد ما يزال يحمل شعار النائب
القديم للملك * وكان يصغى اليها وهو مستلق على ظهره
فوق فراشه ، مرتديا الزى المدنى الذى يرتديه وهو فى
البيت * وكان عنوان الكتاب الذى تقرأه «عبر ومواعظ من
الأخبار والشائعات التى دارت فى ليما سنة ١٨٢٦ من تأليف
الكاتب نوح كالزاديلاس » وكانت تقرأه بحماس مسرحى
مناسب تماما لأسلوب الكاتب *

وخلال الساعة التالية لم يسمع فى البيت كله الا صوتها .
ولكن بعد الوردية الأخيرة ، ارتفعت فجأة ضحكة جماعية من
عدد كبير من الرجال أثارت كلاب الحى كله ففتح عينيه
معيرا . وفى شىء من القلق ، فاطبقت الكتاب فوق ركبتيها ،
واضعة ابهامها فوق الصفحة ، وقالت :

ـ انهم أصدقاؤك .

فقال : ليس لى أصدقاء . واذا كان مايزال لى بعض
منهم فانما لوقت قليل .

قالت : ومع ذلك فهم فى الخارج ، ويقومون بالحراسة
حتى لا يقتلوك .

وهكذا علم الجنرال بما كانت المدينة تعرفه ، فلم تدبر
مؤامرة واحدة ضده . بل عدة مؤامرات ، وآخر أنصاره
يسهرون فى البيت لمحاولة احباط تلك المؤامرات ، فقد احتل
جماعة من الفرسان والرماة الردهة والممرات التى تحيط
بالحديقة ، وكلهم من الفنزويليين ، وسوف يرافقونه حتى
ميناء كارتاجينا ، حيث يجب أن يبحر الى أوروبا ، فى سفينة
شراعية . وكان اثنان منهم قد بسطا حصيرة للنوم أمام الباب
العمومى للغرفة ، فى حين تأهب باقى الحراس لاستئناف
اللعب فى الصالة المجاورة بمجرد أن تفرغ مانويلا من
قراءتها ، لأن الوقت لم يعد يسمح بالتأكد من أى شىء بين
هؤلاء الجنود المشبوهى الجنسية والذين لا يمكن الوثوق بهم .
وأمر مانويلا بإشارة من يده بأن تستأنف القراءة دون أن
تزعبه تلك الأنباء السيئة .

اعتبر دائما الموت كمجازفة مهيئة لا مفر منها . قام بكل
حروبه ، فى الخط الأول ، دون أن يصاب بجرح واحد .
وكان يتنقل وسط نيران العدو بهدوء تام ، وغير معقول الى
حد أن ضباطه اكتفوا بالتفسير البسيط بمناعته ضد
الأخطار . وقد خرج سليما من كل المحاولات التى دبرت

ضده ، وفى كثير من تلك المحاولات ، لم ينج من الموت الا لأنه كان ينام فى مكان آخر غير فراشه - وكان يتنقل بدون حرس ، ويأكل ويشرب دون أن يتخذ أى احتياض من تلك الاحتياطات التى كانوا يقدمونها له أينما يذهب - ومانويلا وحدها كانت تعرف أن عدم اهتمامه لا يرجع الى فقد الاحساس ولا الى القدرية ، وانما الى يقينه بأنه سيموت فى فراشه ، فقيرا وعاريا ، بعيدا عن المواساة والعزاء بالامتحان العام - كان التغيير الوحيد الذى يستحق الذكر هو الذى أجراه فى أرقه فى هذه الليلة المؤرقة ، وهو أن لا يستحم بالماء الساخن قبل أن يأوى الى فراشه ، وكان جوزيه بالاسيوس قد أعده له مبكرا فى تلك الليلة ، وأبقاه على درجة طيبة من الحرارة حتى يستطيع الجنرال الاستحمام عندما يريد - ولكنه رفض أن يستحم ، وتناول قرصين ملينين لاساكنه الدائم ، وتأهب للنوم تهدده همسات الشائعات الغزلية فى ليما - وفجأة ، وبدون أى سبب ظاهر ، أصيب بنوبة سعال هزت أرجاء البيت ، وتوقف الحراس الذين يلعبون فى الطرقة فجأة ، ودخل أحدهم ، وهو الأيرلندى بلفور هنتون ويلبسون الغرفة لكى يرى ان كانت هناك حاجة اليه ، ورأى الجنرال راقدًا على صدره بعرض الفراش ، يحاول أن يفرغ ما فى بطنه - وكانت مانويلا تمسك له رأسه فوق الطست ، وكان جوزيه ، وهو الوحيد المصرح له دخول الغرفة دون استئذان واقفا بجوار الفراش فى حالة تأهب حتى انتهت الأزمة - وأخذ الجنرال عندئذ نفسا وقد امتلأت عيناه بالدموع ، وأشار الى منضدة الزينة وقال :

— هذا بسبب زهور المقبرة -

كان يجد دائما سببا غير متوقع لمصائبه ، كمعاداته - ولما كانت مانويلا تعرفه أكثر من أى شخص آخر ، فقد أشارت الى جوزيه بالاسيوس بأن ينقل الزهرية بأزهار الصباح الذابلة - وعاد الجنرال فرقد فوق الفراش ، مطبق العينين ،

واستأنفت هى القراءة بنفس اللهجة السابقة - وعندما خيل اليها انه نام ، وضعت الكتاب على النضد بجوار الفراش ، وطبعت قبلة على جبينه الملتهب من الحمى ، وتمتمت لجوزيه بالاسيوس انها ستكون بدءا من السادسة صباحا فى ميدان « الأركان الأربعة » الذى يؤدى الى مدينة هوندا ، لكى تودعه الوداع الأخير ، ثم ألقت فوق كتفها دثارا عسكريا ، ورفعته لكى تخفى أسفل وجهها ، وخرجت من الغرفة على أطراف قدميها * وعندئذ فتح الجنرال عينيه ، وقال لجوزيه بالاسيوس فى صوت خافت :

— قل لويلسون أن يرافقها حتى بيتها *

ونفذ الأمر رغم ارادة مانويلا ، فقد كانت تعتقد أنها فى خير صحبة مع نفسها عنها مع أحد الرماة * وتقدمها جوزيه بالاسيوس حتى الاصطبلات وفى يده شمعدان ، وهو يدور بالحديقة الداخلية المزدانة ببشر حجرية تبدأ فيها بواكير زهور الزنبق فى الازدهار * وتوقف المطر لحظة ، وأمسكت الرياح عن الصفير بين الأشجار ، ولكن لم تكن هناك فى السماء المثلجة نجمة واحدة * وردد الكولونل بدفورد ويلسون كلمة السر الليلية ، ليطمئن الحراس الذين يرقدون فوق الحصر ، فى الممر * وبينما كان جوزيه بالاسيوس يمر أمام نافذة الصالة الكبيرة رأى صاحب البيت يقدم القهوة الى جماعة من الأصدقاء : عسكريين ومدنيين يستعدون للسهر حتى ساعة الرحيل *

وعندما عاد الى الغرفة وجد الجنرال فى حالة من الهديان ، وسمعه ينطق كلمات متقطعة تدور حول عبارة واحدة « لم يفهم أحد شيئا » - وكان جسده ملتهبا من الحمى ، وتصدر منه أرياح كريهة متتابعة ، وهو نفسه لن يعرف فى الصباح اذا كان قد تكلم وهو نائم ، أو راح يهذى وهو صاح * ولن يستطيع أن يتذكر ، وكان هذا ما يدعوه « نوبتى من الجنون » ، ولم تعد تقلق أخدا لأنه كان يعاني من ذلك منذ

أربع سنوات دون أن يجازف أى طبيب بتجربة تفسير علمي .
وفى اليوم التالى ، رأوه يعود الى الحياة من رماده ، سليم
العقل . ودثره جوزيه بالاسيوس بغطاء ، ووضع الشمعدان
فوق رخام متضدة الزينة ، وخرج دون أن يغلّق الباب حتى
يواصل السهر فى الغرفة المجاورة . كان يعرف أنه سيشفى
فى وقت ما من الفجر ، ويغسل فى مياه البانيو الباردة ، فى
محاولة لاستعادة قواه التالفة بسبب هول الكوابيس .

وكان ذلك نهاية يوم عاصف ، فقد تحركت حامية
مؤلفة من سبعمائة وتسعة وثمانين من الفرسان والرماة
بحجة المطالبة بمرتب ثلاثة شهور متأخر . أما السبب
الحقيقى فقد كانت الفالية منهم من فنزويلا ، واشتركوا
فى تحرير أربع دول ، ولكنهم كانوا فى الأسابيع الأخيرة
ضحايا الكثير من السباب والقذح والكثير من الاستفزازات
فى الشوارع ، بحيث انه كانت لديهم من الأسباب ما يجعلهم
يخافون على أنفسهم ، بعد أن يفادر الجنرال البلدة . وسوى
النزاع بتسديد نفقات السفر ، وألف بيزوس ذهباً بدلاً من
السبعين ألفاً التى يطالب بها المتروودن . ثم انطلقوا فى
آخر الأصيل ، فى صفوف متراصة ، نحو مسقط رأسهم .
يتبعهم حشد من الطاهيات بأولادهن وحيواناتهن الليفة .
ولم تستطع عاصفة من الطبول والنحاسات العسكرية أن
تسكت صيحات الشغب التى كانت تطلق الكلاب وراءهم ،
وتفجر الكثير من الصواريخ لاعاقة تقدمهم . مع أنهم لم
يفعلوا ذلك أبداً مع أى جيش معاد ، فقبل أحد عشر عاماً من
ذلك ، وبعد ثلاثة قرون من الاستعباد الاسبانى هرب نائب
الملك الشرس المدعو جوان سامانو من تلك الشوارع بالذات ،
متنكراً فى زى حاج ومعه حقائبه المملوءة بالتمائيل الذهبية
والزمرد النفيس ، وصناديق زاخرة بالآثار الجميلة . وقد
بكاه الكثيرون فى ذلك اليوم وهم فى شرفاتهم ، وألقوا اليه
بالزهور ، وتمنوا له بحراً هادئاً ورحلة سعيدة .

واشترك الجنرال سرا فى تسوية النزاع دون ان يغادر البيت الذى استضيف فيه ، وهو بيت وزير الحرب والبحرية . وأرسل فى النهاية مع الفرق المتمردة الجنرال جوزيه لورنسيو سيلفا ، زوج ابنة أخته ، الذى يثق به ، كضمان على أنه لن تقع قلاقل جديدة ، حتى حدود فنزويلا . ولكنه سمع الطبول وصياح الناس المحتشدين فى الشارع ، ولم يفهم معناها . على أنه لم يمر كل ذلك أى اهتمام ، وانما راح يفحص مع سكرتيريه الرسائل المتأخرة ، وأملى خطايا الى المارشال الكبير دون أندريس دى سانتا كروز ، رئيس بوليفيا ، يقول له فيه انه سيتخلى عن السلطة ، ولكنه لم يؤكد له فيه ان كان سيمضى الى الخارج . وقال وهو يفرغ من املائه : «لن أكتب بعد اليوم خطابا واحدا طوال حياتى » وفيما بعد ، وبينما كان ينضح بعرق حمى القيلولة ، تداخلت فى أحلامه صيحات صاخبة بعيدة ، فاستيقظ مرعوبا بسبب فرقعات متتالية ، كان يمكن أن تكون صادرة من المتمردين أو من بعض الصواريخ . وعندما استفهم عن ذلك قيل له : «انه العيد ياسيدى الجنرال» دون أن يجرؤ أحد ولا حتى جوزيه بالاسيوس أن يقول له بأى عيد يحتفلون .

ولكن عندما زارته مانديلا فى المساء ، عرف أن ذلك الصخب انما صدر من أنصار أعدائه السياسيين ، من الحزب الديماجوجى ، كما يدعوهم . وكانوا يطوفون بالشوارع وهم يؤلبون ضده نقابات العمال بمساعدة القوى العاملة . وكان اليوم يوم جمعة ، وهو يوم سوق ، مما جعل الفوضى أكثر سهولة فى الميدان الكبير . وهطل مطر عاصف ، أكثر من المعتاد ، مصحوب ببرق ورعد ، فشئت المتمردين فى الليل . ولكن الضرر كان قد استشرى ، واستولى طلبة كلية سان بارثولوميو على مكاتب قصر العدالة ، مطالبين بمحاكمة الجنرال علنا ، ومزقوا لوحة زيتية له بالحجم الطبيعى ، ورموها من النافذة . وقام الشعب الثمل من الخمر فذهب

حوانيت الشارع الملكى ، والحانات التى لم تغلق أبوابها فى الوقت المناسب وأطلقوا الرصاص فى الساحة الكبرى على جنرال من القش لم يكن هناك من يجهل من هو . اتهموه بأنه المحرض الخفى للمعصيان العسكرى ، فى محاولة أخيرة للاستيلاء على السلطة التى انتزعها منه المجلس بتصويت جماعى ، بعد اثنتى عشرة سنة من الممارسة المتواصلة . اتهموه بأنه يريد الرئاسة طوال حياته ، لكى يورث مكانه أميرا أوروبيا . اتهموه بأنه يتظاهر بالرحيل الى الخارج فى حين أنه يرحل فى الواقع الى حدود فنزويلا لكى يستولى على السلطة ، على رأس الفرق المتمردة . كانت الجدران منقطعة بمنشورات كلها هجاء وسباب مطبوعة ضده ، واختفى أشهر أعوانه فى بيوت أعدت لهم حتى تهدأ النفوس ، وانتهزت الصحافة المناصرة للجنرال فرانشييسكو دى بولاسانتان الفرصة وأيدت الاشاعة التى تقول ان مرضه غير أكيد ، وان رحيله انما هو حيلة سياسية لكى يتوسلوا اليه أن يبقى . وفى تلك الليلة ، وبينما كانت مانويلا سانيز تسرى له تفاصيل يوم عاصف ، حاول جنود الرئيس المؤقت أن يمحوا من فوق جدران الأبرشية عبارة مكتوبة بالفحم تقول : « انه لا يرحل ولا يموت » وتنهد الجنرال وقال :

— لا ريب أن الأمور سيئة جدا ، وأنا أسوأ منها لكى يحدث كل هذا على بعد مائة متر من هنا ، وجعلونى أعتقد انهم يحتفلون بعيد .

والواقع أن أصدق أصدقائه لم يؤمنوا برحيله عن البلد ، ولا بتخليه عن السلطة . فقد كانت المدينة صغيرة جدا ، وأهلها من الغباء بحيث لا يدركون العقبتين الكبيرتين اللتين أمام رحيله الفرضى ، وأولاهما أنه لا يملك ما يكفى من النقود لكى يمضى الى أى مكان ، وبرفقته كل هذه العاشية الكبيرة ، وثانيتهما أنه يكونه رئيسا للجمهورية ، وبصفته هذه كان

لا يستطيع مغادرة البلد قبل مرور سنة بدون تصريح من الحكومة ، وهو تصريح لم يكن من الخبث لكى يلتمسه .
والأمر الذى أصدره جهارا بأعداد متاعه لم يفسره جوزيه بالاسيوس كدليل قاطع ، لأنه كان قد بلغ به الأمر الى هدم بيت للتظاهر بالرحيل . كانت تلك دائما مناورة سياسية ذكية . وأحس مساعدوه بأن أعراض خيبة الأمل هذه السنة كانت واضحة جدا . ومع ذلك فلم تكن هذه أول مرة . وفى اليوم الذى لا يتوقعونه كانوا يرونه وقد استيقظ منتعش الذهن ، ويستعيد مجرى حياته وهو أشد قوة واحتداما عن ذى قبل . وكان جوزيه بالاسيوس الذى واكب هذه التغييرات غير المتوقعة يقول بطريقته الخاصة :

« ان ما يدور فى رأس سيلدى لا يعرفه غير سيلدى » .

كانت استقالاته المتتابة مدموغة بالأغاني الشعبية ، منذ أول استقالة أعلنها بعبارة غامضة فى خطابه الذى ألقاه عند توليه الرئاسة : « أول يوم أحظى فيه بالسلام سيكون آخر يوم لى فى السلطة » . وقدم استقالته مرارا وفى ظروف مختلفة بحيث لم يعد أحد يعرف أين الحقيقة . وأكثرها صخباً كانت منذ سنتين فى ليلة الخامس والعشرين من سبتمبر . عندما أفلت سليما ومعافى من محاولة اغتياله داخل غرفة نومه فى مقر الرئاسة ، وقد وجدته لجنة الكونجرس التى زارته فى الفجر . بعد أن قضى ست ساعات ، بدون ثياب ، تحت كوبرى ، متدثرا بغطاء من الصوف . وقدماه فى دست به ماء ساخن وهو يعانى من الحمى أكثر من معاناته من خيبة الأمل . وقال للجنة انه لن يكون هناك أى تحقيق ، وان أحدا لن يحاكم ، وان اجتماع الكونجرس المتوقع أول السنة سيعقد الآن فوراً لانتخاب رئيس آخر للجمهورية ، واختتم حديثه قائلا :

٢٠ وبعد ذلك سأغادر كولومبيا الى الأبد .

ومع ذلك فقد جرى التحقيق ، وحوكم المذنبون بيد من حديد ، واعدم أربعة عشر منهم رميا بالرصاص ، في الميدان الكبير . ولم يعقد اجتماع الكونجرس الذي كان مقررا اجتماعه في الثاني من يناير الا بعد ستة عشر شهرا ، ولم يتكلم احد عن الاستقالة . ولكن لم يأت في تلك الفترة أى زائر أجنبي ، ولا أى مدعو عرضى ولا أى صديق عابسر الا وكان يقول له : اننى راحل الى حيث يحبوننى .

لم تؤخذ الشائعات التى تدور حول علته القاتلة دليلا على رحيله ، فلم يشك أحد فيما يعانى من علل . بل على العكس ، فأثناء عودته الأخيرة من حرب الجنوب ، اعتقد كل الذين رأوه يمر تحت البواكى المزدهرة أنه لم يعد الا لئلى يموت . لم يكن يمتطى جواده التاريخى « بالومو بلانكو » ، وانما كان يركب بغلة حقيرة كان مفرش سرجها حصيرة بالية . ابيض شعره وانحفر جبينه بسحب شاردة ، وكم سترته المتسخة مفتوق . كان المجد قد انسلخ من جسده . وخلال السهرة الصامتة التى أقاموها له فى تلك الليلة بالذات ، فى مقر الحكومة ، بقى متقوقعا حول نفسه ، ولم يعرف أحدا أبدا اذا كان ذلك فسادا سياسيا أم مجرد سهو عندما حيا أحد وزرائه وهو يدعوه باسم وزير آخر .

لم تكف هيئته المنهارة على أن يصدق أحد أنه راحل حقا لأنه مرت ست سنوات وهو يقول انه يموت ، ويحتفظ مع ذلك بقدرته على القيادة . أول اشاعة نشرها ضابط من البحرية البريطانية ، بعد أن رآه صدفة ، فى صحراء باتيفيلكا ، شمال ليما . فى ذروة حرب تحرير الجنوب ، وجده طريقا فوق الأرض فى كوخ حقير ليس به أية وسيلة من وسائل الراحة . فى مقر القيادة العامة ، متدثرا بمعطف عسكرى ، وقد عقر خرقة حول رأسه ، لأنه لم يحتمل برد.

العظام ، فى جحيم ظهر ذلك اليوم ، لا يقدر على طرد الدجاج الذى ينقر الأرض حوله • وبعد حديث عسير تخللته عصفات من الجنون ، صرف الزائر وهو يقول له فى لهجة ماساوية تمزق القلوب :

— امض وارو للعالم كيف رايتنى اموت فوق هذه الهضبة اساحله التى يكسوها روت الدجاج •

وقيل ان مرضه انما كان يرجع الى لفحة حر سببتها له شمس الصحراء الحارة ، ثم قيل بعد ذلك انه كان يحتضر فى جواياكيل . وبعد ذلك فى كيتو ، من حمى معوية مزعجة تتسبب فى عدم الاهتمام بما يجرى فى العالم ، ويهدوء مطلق فى الروح ، ولم يعرف أحد الاسس العلمية لهذه الشائعات لانه كان يعترض دائما على علم الأطباء ، ويعالج نفسه طبقا للمواصفات المذكورة فى كتاب بعنوان « الطب فى خدمته » الذى وضعه دونستير ، وهو كتاب فرنسى وجيز فى تشخيص الأمراض وعلاجها ، كان جوزيه بالاسيوس يحمله معه دائما كوحى لتفهم وعناية أى اضطراب فى الجسم أو فى العقل •

وعلى كل حال ، لم يكن هناك احتضار مثمر كاحتضاره ، فبينما كانوا يتصورونه يجود بروحه فى باتيفيلكا ، اجتاز مرة أخرى القمم الجبلية وأحرز انتصارا فى جونينى ، وأتم تحرير أمريكا الاسبانية كلها بانتصاره الأخير فى اياكوشو ، وأنشأ جمهورية بوليفيا ، ووجد الوقت بعد ذلك ، فى ذروة الانتصار ، لأن يكون سعيدا فى ليما كما لم ولن يكونه بعد ذلك أبدا . بحيث ان الاعلان المتكرر عن مغادرته البلد والسلطة بسبب مرضه وبسبب المظاهرات الرسمية التى كان يبدو أنها تؤكد ذلك ، لم تكن الا تكرارا معيبا لمأساة شوهدت كثيرا بحيث لم يعد يصدقها •

وبعد قليل من عودته ، وفى نهاية اجتماع حكومى
عاصف ، أخذ المارشال جوزيه دى سوكريه من قراعه ، وذل
له : ابقى معى . وقاده الى مكتبه الخاص الذى لا يستقبل فيه
الا بعض المختارين ، وأرغمه تقريبا على الجلوس على مقعده
الخاص وقال له :

— هذا المكان قد أصبح لك الآن أكثر مما هو لى .

كان المارشال اياكوشو العظيم ، صديقه العزيز جدا ،
يعرف كل المعرفة حالة البلد . ولكن الجنرال قدم له تقريرا
مفصلا قبل أن يصل الى هدفه ، ففى بضعة أيام سيجتمع
الكونجرس لكى ينتخب رئيسا للجمهورية ، ولكى يضع
دستورا جديدا ويحاول محاولة متأخرة انقاذ الحلم الذهبى
باكتمال القارة . فان جمهورية بيرو فى أيدي سلطة
أرستقراطية رجعية كان يبدو أنه لا يمكن استعادتها . وكان
الجنرال أندريس دى سانتاكروز يحكم بوليفيا بمفرده ،
ويمضى بها فى طريق مستقل وخاص ، والفنزويلا ، تحت
سيطرة أنطونيو بايز ، أعلنت استقلالها . وضم الجنرال
جوان جوزيه فلوريس ، حاكم الجنوب العام ، جواياكيل
وكيثو . وجعل منهما جمهورية الاكوادور المستقلة .
وجمهورية كولومبيا ، وهى أول نواة لوطن كبير وموحد
أخضعت تحت حكم غرناطة الجديدة . فما كاد ستة عشر
مليوناً من الأمريكيين يعرفون الحرية حتى وجدوا أنفسهم
تحت رحمة الزعماء السياسيين ، واختتم الجنرال حديثه
قائلا :

— والغلاصة أن كل ما بنيناه بأيدينا يدمره الآخرون

باقدامهم .

قال الجنرال سوكريه : هذه احدى سخريات القدر ،
فكأننا بذرنا فى عمق سحيق مثالية الحرية الى حد أن تلك
الشعب تحاول الاستقلال ، كل منها عن الآخر .

رد عليه الجنرال في حدة كبيرة :

— لا تكرر ندالة العدو حتى ولو كانت حقيقية كهذه *

اعتذر الجنرال سوكرية - كان ذكيا ، ومجبا للنظام ،
وخجولا وموسوسا - وكانت في وجهه حلاوة لم تستطع نديات
الجدري القديمة محوها - وقد قال عنه الجنرال الذي يجب
كل الحب انه يتظاهر بالتواضع دون أن يكون كذلك - كان
قد تصرف تصرف الأبطال في بيشيشنا وتاموسلا وتاركي ،
وقاد وهو لما يتجاوز التاسعة والعشرين من عمره ، بعد
معركة أياكوشو المجيدة التي حطمت آخر معازل الاسبان
في أميركا الجنوبية - ولكنهم كانوا يحبونه لكرمه في المعارك ،
ولبواهبه السياسية أكثر من حبهم له لتلك المزايا ، تخلى عن
كل مناصبه ، وراح يتجول ، دون أى وسام من أوسمته
العسكرية ، مرتديا معطفا بسيطا من الجوخ - أسود اللون
يصل حتى آخر قدميه - ويرفع ياقته دائما ليحتفى بها من
برد الجبال المجاورة القارس والحاد كالخناجر - وبناء على
رغباته ، كان التزامه الوحيد ، لكى يخدم الأمة ، هو اشتراكه
فى الكونجرس كنائب عن كيتو ، وكان فى الخامسة
والثلاثين ، ويتمتع بصحة جيدة ، وكان يحب الى حد الجنون
دونا ماريانا كارسيلينى - مركيزة سوند - وهى مواطنة من
كيتو ، جميلة ولعوب ، تكان تكون مراهقة - تزوجها بتوكيل
قبل ذلك بسنتين - وأنجب منها طفلة صغيرة عمرها ستة
شهور *

لم يتصور الجنرال أن هناك رجلا أكفا منه لكى يخلفه
فى رئاسة الجمهورية - كان يعلم أنه لا تزال تنقصه خمس
سنوات لكى يكون فى السن القانونية بسبب تحريم دستورى
فرضه الجنرال رافائيل أوردانتيا لكى يقيم أمامه العقوبات ،
ومع ذلك فقد كان الجنرال يقوم بإجراءات سرية ليعدل ذلك
القرار ، وقال له :

— أقبيل • سأظل قائدا عاما ، وسأدور حول الحكومة كما
يدور انشور حول قطيع من البقر . *

بدا أن قواه تنخور ، ولكن تصميمه كان مقنعا • ومع
ذلك فقد كان المارشال يعرف منذ وقت طويل أن المقعد الذي
يجلس فوقه لن يكون مقعده أبدا • فمضى وقت قليل • عندما
عرض عليه لأول مرة امكانية أن يصبح رئيسا قال إنه يحكم
أمة نظامها ومستقبلها محفوفان بالخطر ، من يوم
آخر • كان من رأيه أن أول خطوة للتطهير هي منع العسكريين
من السلطة ، وأراد أن يقترح على الكونجرس ألا يكون أي
جنرال رئيسا خلال السنوات الأربع القادمة • ولا شك أن
ذلك لسد الطريق أمام أوردانيتا ، ولكن أشد المعارضين لهذا
الاقتراح كانوا الجنرالات أنفسهم • وقال سوكرية :

— « اننى متعب جدا بحيث لا يمكننى أن أتحدث من غير
دليل • ثم ان فخامتك مثلى تماما • انهم ليسوا هنا بحاجة الى
رئيس ، وانما الى قانع للثورة » • سيحضر جلسات الكونجرس ،
وسيقبل شرف رئاسته اذا عرض عليه ذلك ، ولكن لا شيء
أكثر ، فقد علمته أربع عشرة سنة من الحروب أنه ليس هناك
نصر أعظم من أن يظل المرء على قيد الحياة • ورئاسة بوليفيا ،
ذلك البلد المجهول والشاسع الذى أسسه وحكمه بيد حكيمة ،
بينت له تقلبات السلطة • وعلمه ذكاء قلبه عدم جدوى المجد ،
وأردف يقول : « بحيث اننى أرفض يا صاحب الفخامة » •
ففى الثالث عشر من مايو • عين سان أنطونيو ، يجب أن يكون
فى كيتو • بجوار زوجته وابنته حتى يحتفل معهما بذلك
اليوم ، وبكل الأيام التى سيتبعها له المستقبل ، لأن قراره بأن
يعيش من أجلهما ، ولا شيء الا لأجلهما ، فى بهجة الحب ، قد
تقرر منذ عيد الميلاد الأخير • وقال :

ـ وهذا كل ما أنشده من الحياة ـ

كان الجنرال مكتئبا وقال : كنت أظن أن ما من شيء
أصبح يثير دهشتي - وحقق في عينيه مليا وقال : أهذه
كلمتك الأخيرة ؟

قال سوكرية : بل قبل الأخيرة ، فالأخيرة هي امتناني
الأيدي لكرم فخامتك .

ضرب الجنرال فخذه بيده كما لو لكي يتخلص من حلم
عضال وقال :

ـ حسنا - انك اتخذت بالنسبة لي القرار النهائي
أحياتي .

وفي نفس تلك الليلة كتب استقالته تحت تأثير مشبط
للهمة لمقيىء وصفه له طبيب عابر في محاولة لتهدئة صفرائه -
وفي العشرين من يناير ، افتتح المجلس بخطاب وداع مدح
فيه رئيسه ، الجنرال سوكرية قائلا انه أكثر الجنرالات
أهلية وجدارة - ولقى المديح هتافا عاليا من جميع أعضاء
المجلس ، ولكن نائبا جالسا بجوار أوردانيتا همس في أذنه
«معنى هذا أن هناك جنرالا أكثر أهلية وجدارة منك» وبقيت
عبارة الجنرال وخبت النائب كمسمارين محميين في قلب
الجنرال رافائيل أوردانيتا .

وكان ذلك صحيحا ، فرغم أن أوردانيتا لم يكن يملك
المزايا العسكرية العديدة للجنرال سوكرية ، ولا قدرته الكبيرة
في التأثير ، إلا أنه لم يكن هناك أى سبب للتفكير في أنه
أقل أهلية أو جدارة منه - وقد أشاد الجنرال نفسه بهدوئه
ومثابرته ، وتأكد من إخلاصه ومحبته له ، وكان واحدا من
قلائل الرجال في هذا العالم الذين يجروون على مواجهته
بالحقائق التي يخشى سماعها - واذ أدرك الجنرال غلطته ،
حاول تعديلها في بروفات المطبعة ، وبدلا من عبارة ■ أنه

أكثر الجنرالات أهلية وجدارة ، صححها بيده بحيث أصبحت « واحد من أكثر الجنرالات أهلية وجدارة » - ومع ذلك فإن التصحيح لم يخفف احساس أوردانيتا بالحق .

فبعد بضعة أيام ، وأثناء اجتماع الجنرال ببعض الأصدقاء والنواب اتهمه أوردانيتا بأنه يتظاهر بالرحيل في حين يحاول بأن يعاد انتخابه سرا ، فقبل ثلاث سنوات ، استولى الجنرال جوزيه أنطونيو بايز على السلطة بالقوة في إقليم فنزويلا في محاولة أولى لفصله عن كولومبيا . ومضى الجنرال عندئذ الى كاراكاس - وتصلح مع بايز وتماثلا علنا وسط الأغاني والهتافات والموسيقى ، واصطنع له نظاما استثنائيا على مقاس أتاح له الحكم كما يتمنى . وقال أوردانيتا : وبدأت الكارثة هناك ، لأنه إذا كانت هذه المجاملة قد انتهت بتسميم العلاقات مع الفرناطيين ، فقد أعطتهم أيضا فيروس الانفصال . وقال أوردانيتا مختتما : والآن فإن أحسن خدمة يمكن للجنرال أن يقدمها للوطن هي أن يتخلى بلا أى اجراء آخر عن الحكم وأن يغادر البلاد . واجاب الجنرال بنفس الحدة ، ولكن أوردانيتا كان رجلا نزيها لا يعرف اللف ولا الدوران ، وأحس الجميع بأنهم حضروا انهيار صداقة قديمة .

كرر الجنرال استقالته وعين دون دومينجو كايسيدو رئيسا مؤقتا ريثما يجتمع المجلس لانتخاب الرئيس الجديد . وفي الأول من مارس غادر قصر الرئاسة من باب الخدم حتى لا يلتقى بالمدعوين الذين يحتفلون بخليفته بكأس من الشمبانيا ، ورحل في عربة معارة الى قصر فوشا ، وهو مكان استراحة مثالي على مقربة من المدينة وضعه الرئيس المؤقت تحت تصرفه . واليقين من أنه لم يعد غير مواطن عادي كغيره زاد وحده خطورة نكبات القىء ، وخلال حلم من أحلام اليقظة طلب من جوزيه بالاسيوس أن يأتيه بالأدوات الكتابية

اللازمة لكتابة مذكراته . و آتاه جوزيه بالاسيوس بالحبر وبكمية كبيرة من الورق تكفى لكتابة أربعين سنة من الذكريات . وطلب الجنرال من فرناندو ، ابن أخيه وسكرتيره أن يعاونه على ذلك ، بدءا من يوم الاثنين التالى فى الساعة الرابعة صباحا ، وهى أكثر ساعاته المناسبة للتفكير بعيدا عن الأحقاد والضغائن . وكما قال لابن أخيه فى مناسبات عدة فإنه يريد أن يبدأ مذكراته بأقدم ذكرى لديه ، وهى حلم رآه فى مزرعة سان ماتيو بفنزويلا ولما يتجاوز بعد الثالثة من عمره ، فقد رأى فى المنام بغلة سوداء لها أسنان ذهبية تدخل البيت ، وجالت فيه ابتداء من الصالون الكبير حتى ملحقات البيت . وهى تاكل فى بطء كل ما تجده فى طريقها ، بينما أصحاب البيت يجمعون للقيولة . وأنها انتهت بأن أكلت الستائر والسجاد والمصابيح وأوانى الزهور والأطباق ومفارش غرفة الطعام ولوحات القديسين والدواليب والصناديق بكل ما فيها والحلل التى فى المطبخ الأبواب والنوافذ بمفصلاتها ومقابضها ، بدءا من البرواق حتى الغرف والشئ الوحيد الذى لم تمسه وكان يعوم فى الفضاء هو المرأة البيضاء بمنضدة الزينة الخاصة بوالدته .

ولكنه أحس بأنه على أتم ما يرام فى بيت فوشا ، وكان الجو جميلا تحت السماء ذات السحب السريعة التحرك . بحيث لم يعد يتحدث عن ذكرياته . وانتهاز فرصة الفجر لكى يتمشى بمعاذاة ممرات السهل المعطرة . وأحس الذين زاروه فى اليوم التالى أن صحته قد تحسنت ، ولا سيما العسكريون ، وهم أخلص أصدقائه الذين توسلوا اليه أن يحتفظ بالرئاسة بأى ثمن ولو اقتضى ذلك ثورة فى القشلاق . الا أنه ثبت عزيمتهم قائلا ان الاستيلاء على السلطة بالقوة لا يليق بمجده . ولكن بدا أنه لم يتغل عن الأمل فى تأييد المجلس له بقرار شرعى . وكان جوزيه بالاسيوس يكرر : لا يعلم ما يفكر فيه سيدى الا سيدى نفسه .

وداويت مانويلا اقامتها على بعد خطوات من قصر
سان كارلوس ، وهو مقر الرؤساء ، مرهفة أذنيها لاشاعات
الشارع : وكانت تمضي الى قوشا مرتين أو ثلاث مرات كل
أسبوع أو أكثر ، إذا كانت هناك ضرورة تستدعي ذلك ، وهي
معملة بطلوى اللوز والسكرات الساخنة التي يصنعونها في
الأديرة ، وقوالب الشيكولاتة بالقرفة التي يحب الجنرال
تناولها في الساعة الرابعة . ولم تكن تأتيه بالجرائد الا فيما
ندر ، لأنه أصبح شديد الحساسية نحو النقد ، بحيث ان أية
ملاحظة تافهة كانت تخرجه عن طوره . ولكنها كانت تروى
له بالتفصيل السياسة وخبث الصالونات ، والأحوال والثرثرات
لأنه كان يحب أن يستمع الى كل شيء حتى ولو كان ضده ،
لأنها كانت الشخص الوحيد المسموح له بأن يقول الحقيقة .
وعندما لم يكن هناك ما يقال ، كانا يراجعان المراسلات أو
تقرأ له أو يلعبان الورق مع الحراس . ولكنهما كانا يتناولان
الغداء دائما وحدهما .

تعارفا في كيتو قبل ذلك بثمانى سنوات أثناء الاحتفال
بالتحرير وكانت لاتزال زوجة الدكتور جيمس ثورب ، وهو
جنتلمان انجليزى تأصل في أرستقراطية ليما أثناء الردافة
الملكية . كانت آخر امرأة أحبها حبا لم ينقطع بعد ان ماتت
زوجته منذ سبعة وعشرين عاما . ولكنها كانت على الأخص
كاتمة أسرار ، حارسة أرشيفه وقارئته البليغة الأثر . ثم
انها في عداد أعوانه برتبة كولونيل ، وقد أوشكت في وقت
بعيد أن تقضم إحدى أذنيه بأسنانها أثناء ذوبة غيرة . ولم
تكن تبقى للنوم ، بل كانت ترحل في وقت مبكر حتى
لا يفاجئها الليل وهي في الطريق ، خصوصا في تلك
الفصل الذى تغرب فيه الشمس بسرعة .

وعلى عكس ما حدث فى ليما ، فى قصر متجددنا ، حيث كان لابد له من ان يخلق الحجج لكنى يبعدها انشاء لهوه مع سيدات الطبقة العليا من المجتمع ، واخرى اقل منهم ، فقد ابدى فى فوشا ما يدل على انه لا يستطيع ان يعيش من غيرها . وكان ينضى وقته فى النظر الى الطريق الذى يجب ان تاتى منه ، ويضايق جوزيه بالاسيوس فيسأله عن الساعة فى كل لحظة . وطلب منه ان يغير المقعد من مكانه ، وان يغذى النار فى الموقد ، وأن يطفئها . ثم يشعلها من جديد وقد فرغ منه الصبر وتملكه الاستياء حتى يرى العربة تظهر من خلف التلال ، فتتألق الحياة فجأة . ولكنه كان يبذى قلقا مماثلا عندما تطول الزيارة أكثر من المتوقع . وكانا يستلقيان على الفراش فى ساعة القيلولة دون أن يغلما ثيابهما ودون أن يستسلما للنوم . وأقدا على الخطأ أكثر من مرة محاولين ممارسة الحب مرة أخيرة لأنه كان يرفض الاعتراف بأن جسده لم يعد قادرا على ارضاء روحه .

وفى ذلك الوقت تسبب أرقه المعساند فى بعض الاضطرابات ، وكان ينام فى أى وقت ، قبل ان يتم عبارة وهو يملئ رسائله أو وهو فى ذروة لعب الورق . وكان هو نفسه لا يعرف ان كان ذلك عصفا حلم أو اغمازات عابرة . ولكنه ما يكاد يأوى الى الفراش حتى يشعر بانبهار من الوضوح الصحو ، وما تأخذه نصف اغفاءة بغيضة حتى توقظه ريح السلام بين الأشجار ، وعندئذ لا يقاوم اغراء تأجيل املاء مذكراته الى صباح الغد لكنى يقوم بجولة وحده تمتد أحيانا حتى ساعة الغداء .

كان يمشى دون حراسة ومن غدير أن يرافقه الكلبان الوفيان اللذان يرافقانه أحيانا فى ميدان القتال . وبدون جياده الملاحمية التى بيعت الفرقة النرسان لتغطية نفقات الرحلة . كان يمضى حتى النهر القريب وهو يطا بقدميه بساط الأوراق الجافة ، فى الطرقات التى لا نهاية لها ، تحميه

عباءته الصوفية من رياح السهل الباردة ، وحذاؤه المبطن بالصوف وقبعته الحريرية الحضراء التي كان يلبسها فيما سبق لدى ينام ، ويجلس فترة طويلة للتأمل امام الكويرى الصغير ذى الالواح غير المتماسكة ، في ظل اشجار الصمصاف غير المواسية مستغرقا فى تأمل تيارات الماء التي قارنها ذات يوم بقدر الرجال فى مشابهة بليغة خاصة بمدرس شبابه دون سيمون رودرپجر ، يتبعه أحد حراسه خفية حتى يعود وقد بلله الندى ، ويكاد يتنفس وهو يصعد الدرجات الامامية للبيت ، شاحبا ونشوان ، بعينى مجنون سعيد - وكان يحس بأنه على ما يرام أثناء تلك النزعات اللاهية بحيث يسمعه الحراس المختفون يغنى بين الأشجار أغانى عسكرية ، كما كان يحدث له أيام سنوات مجده الأسطورى وهزائمه الهوميرية - وكان الذين يعرفونه جيدا يتساءلون عن أسباب هذا المرح ، مادامت مانويلا بالذات تشك فى أن يعين مرة أخرى لرئاسة الجمهورية من قبل المجلس التشريعى الذى وصفه هو نفسه بأنه مجلس رائع .

وفى يوم الانتخاب ، أثناء نزهته الصباحية ، رأى كلبا سلوقيا لا صاحب له يلهو بين الأسوار مع طيور السماء ، فصفر له بطريقة خاصة ، فتوقف الكلب على الفور ، وبحث عنه بأذنين منبتهتين ، واكتشفه بقبعته الحريرية وعباءته المتدلية حتى الأرض - وشمه الكلب بقدر ما استطاع ، فى حين كان الجنرال يداعب شعره بأطراف أصابعه ، ولكنه توقف فجأة ، وحقق فى عينيه بعينيه الذهبيتين ، ثم أطلق زمجرة ارتياح وهرب مرعوبا - وتبعه الجنرال عبر ممر مجهول ، وضل طريقه فى ناحية من الشوارع الصغيرة الموحلة تعبق ساحاتها ببخار اللبن المحلوب للثو - وفجأة انطلقت صيحة :

... أيها السجق !

ولم يسعفه الوقت لكى يتفادى روث بقرة قذفوه بها من احدى الحظائر وارتطم ب صدره ولوث وجهه - ولكن الصيحة

هى التى نبهته من ذهوله الذى كان مستغرقا فيه منذ ان غادر قصر الرئاسة . كان يعرف تلك الكنية التى اطلقها عليه الفرناطيون ، وهى نفس الكنية التى اطلقت على متشرد مخبول ومشهور بزيه المضحك . دعاه نائب من أولئك الذين يدعونهم بالاحرار ، أثناء غيابه عن الكونجرس . بهذه الكنية ، ونهض اثنان من أصدقائه فحسب للاحتجاج . ولكن لم يسبق لأحد أن دعاه بتلك الكنية مباشرة . وبدأ يمسح وجهه بطرف عباوته ، وقبل أن يفرغ من ذلك ، ظهر الحارس الذى يتبعه خفية ، من بين الأشجار ، شاهرا سيفه ليعاقب الاساءة . ولكن الجنرال صعقه بنظرة غاضبة وقال له :

— وأنت ؟ .. ماذا تفعل هنا بحق الشيطان ؟

وقف الحارس فى احترام وأجاب :

— اننى أنفذ الأمر يا صاحب الفخامة .

اجابه فى حدة : أنا لست صاحب فخامتك .

وجرده من منصبه ومن أوسمته بكل حقد بحيث ان الضابط اعتبر نفسه سعيدا : لأن الجنرال لم يعد يملك من السلطة ما يسمح له بأن ينزل به عقابا أشد قسوة . وحتى جوزيه بالاسيوس الذى يعرفه كل المعرفة لقى مشقة فى استيعاب حنقه .

كان يوما سيئا . أمضى الصباح فى اللف والدوران فى أرجاء البيت وهو يشعر بنفس القلق الذى يشعر به وهو ينتظر مانويلا . ولكن لم يجهل أحد هذه المرة أن الأمر ليس متعلقا بها وانما بأخبار المجلس . حاول أن يفهم ما يدور فى الجلسة لحظة بلحظة . وعندما قال له جوزيه بالاسيوس ان الساعة العاشر قال له : لابد أن الاقتراح قد بدأ الآن ، رغم رقبة الديماجوجيين فى النهيق . ثم تساءل بعد لحظة

كبيرة من التفكير : « من يمكن أن يعرف فيم يفكر رجل
أوردانيتا » ، كان جوزيه بالاسيوس يعرف ان «الجنرال
يعرف ذلك ، لان أوردانيتا لم يكف عن التصريح في ارجاء
المجلس عن اسباب حقده الشديد . وعندما مر جوزيه
بالاسيوس بالقرب منه مرة أخرى سأله الجنرال كان الامر لا
يعنيه : لمن تظن ان سوكريه سيصوت؟ وكان جوزيه بالاسيوس
يعرف تماما ان سوكريه لن يستطيع الادلاء بصوته لانه رجل
الى فنزويلا مع اسقف سانتا مارتا : جوزيه مارتا استيفانز
في مهمة للتفاوض حول تفاصيل الانفصال . ولهذا لم يتردد
في ان يرد قائلا : « انت تعرف ذلك خيرا من أى شخص
يا سيدى » . وابتسم الجنرال لأول مرة منذ عودته من نزخته
البغيضة .

ورغم شهيته الشاردة ، كان يجلس تقريبا دائما الى
المدة من الساعة الحادية عشرة لى ياكل بيضة فاترة وكاسا
من النبيذ أو لى يقضم قطعة من الجبن . ولكنه ، فى ذلك
اليوم ، بقى واقفا فى الشرفة يراقب الطريق فى حين راح
الأخرون يتناولون طعام الافطار ، وكان مستغرقا الى حد أن
جوزيه بالاسيوس نفسه لم يجرؤ على ازعاجه . وبعد أن
تجاوزت الساعة الثالثة وقف مرة واحدة وهو يسمع ديبب
البغال ، ولم تكن عربية مانويلا قد ظهرت بعد من فوق التلال .
وأسرع لاستقبالها ، وفتح الباب ليساعدها على الهبوط ،
وعرف الخبر فى نفس اللحظة التى رأى فيها وجهها ، فقد تم
انتخاب الدون جواكين موسكيرا ، الابن الأكبر لأسرة مشهورة
ببويان . بالاجماع رئيسا للجمهورية .

لم يكن رد فعله غضبا ولا احباطا . وانما دهشة لانه هو
نفسه كان قد اقترح على المجلس اسم دون جواكين موسكيرا
وهو واثق ان هذا الأخير لن يقبل . غرق فى تأمل عميق ،
ولم ينطق بكلمة واحدة حتى الأصيل . وسأل : « ولا صوت

واحد لي « . . ولا صوت . . وقال له الوفد الرسمي الذي زاره فيما بعد والمكون من بعض النواب الاصدقاء أن انصاره قد اتفقوا على أن يكون التصويت بالاجماع حتى لا يبدو انه خسر معركة صاخبة . وقد ساء ذلك الى حد انه بدا غير مقدر رقة هذه المناورة اللبقة . وفكر على العكس بأنه كان جديرا بمجده لو أنهم قبلوا أول استقالة له قدمها لهم . وتنهد قائلا :

ـ الخلاصة ان الديماجوجيين فازوا مرة أخرى وكسبوا المعركة .

ومع ذلك ، وحتى اللحظة التي ودعه فيها الوفد على باب البيت حرص على ألا ينم وجهه على الانفعال الشديد الذي يعانیه ما كادت العربات تختفي عن بصره حتى أصيب بنوبة من السعال جعلت البيت كله في حالة تأهب حتى المساء . وكان أحد أعضاء الوفد قد قال ان الكونجرس حرص بقراره هذا على انقاذ الجمهورية . وتظاهر بأنه لم يسمعه . ولكن في تلك الليلة بالذات ، وبينما كانت ماتويلا ترغبه على تناول كأس من المرق قال لها : « لم ينقد أى مجلس الجمهورية أبدا » وقبل أن ينام جمع حراسه وقال لهم بصراحته الممهودة التي كان يستخدمها في استقالاته المشبوهة :

ـ سأغادر البلد ابتداء من الغد .

ولكنه لم يغادر البلد في اليوم التالي ، وانما بعد أربعة أيام . وبينما كان يسترد رباطة جأشه أملى بيان وداع لم يظهر فيه جراح قلبه ، ثم عاد الى المدينة لكي يبدأ في اعداد الرحلة واصطاحبه الجنرال بدرو الكانتارا هيران ، وزير الحربية والبحرية في الحكومة الى بيته بشارع انسينزا . لا لكي يستضيفه ، وانما لكي يحميه من أخطار الموت التي كانت تزداد خطورة .

وقبل أن يرحل الى سانتا في باع في المزاد القليل من الممتلكات التي تبقت له ليحسن من حالته العادية . وفيما عدا الجياد ، تخلص من أنية المائدة الفضية التي ترجع الى عهد بوتسوف المجيد . وقدرها بيت المال بقيمتها الفعلية دون النظر الى جمال صنعها أو مزاياها التاريخية بألفين وخمسمائة بيزوس . وكان جملة ما حصل عليه قبل رحيله سبعة عشر ألفا وستمئة بيزوس ، وأمر بالدفع بمبلغ ثمانية آلاف بيزوس من خزانة كارتاجنة العامة ، ومعاش مدى الحياة منحه له المجلس وأكثر من ستمئة بيزوس ذهباً موضوعاً في عدة حقائب . وكان كل ذلك بقايا مثيرة للحزن من ثروة خاصة كانت تعتبر يوم مولده من أكثر ثروات أميركا المزدهرة .

وفي الأمتعة التي أعدها جوزيه بالاسيوس دون اسراع في صبيحة يوم الرحيل نفسه بينما كان الجنرال ينتهي من ارتداء ثيابه لم يكن غير غيارين داخليين مستعملين ، وقميصين نكل الأيام . وسترته الحربية بصفيتها من الأزرار التي يقال أنها صنعت من ذهب آتاوالبا ، وطاقيّة النوم الحريرية وقبعة حمراء أتاها بها الجنرال سوكرية من بوليفيا . ولم يكن يملك غير شيشبه البيتي والجزمة الملمعة التي يلبسها . وفي الحقائب الخاصة بجوزيه بالاسيوس شنطة الأدوية وكتابا « العقد الاجتماعي » لروسو و « الفن العسكري » للجنرال الايطالي رايموندو مونتيكوكولي . وهما حليتان مكتبتان كانا ملكا لنا بوليون بونايرت أهداهما اليه سير روبرت ويلسون ، أبو أحد حراسه . أما الباقي فكان من القلة بحيث احتواه جراب عسكري ، وعندما رأى الجراب وهو يهم بدخول القاعة التي ينتظره فيها الوفد الرسمي قال :

(*) آخر ملوك الانكا في بيرو ، قتله الأسبان بعد أن أسروه رغم أنه دفع لهم حلة غرفة كبيرة من الذهب والفضة .

— ما كنا نظن أبدا يا عزيزى جوزيه أن كل مجلدنا
سيضمه حذاء .

ومع ذلك فقد كانت البغال السبعة محملة بصناديق أخرى
تضم الأوسمة وأطقم المائدة الذهبية ، وعديدا من الأشياء
الأخرى القيمة شيئا ما : عشر حقائب من المستندات الخاصة ،
وكتابين سبق أن قراهما وخمس حقائب على الأقل من الملابس
وصناديق كثيرة تحتوى على العديد من الأشياء الجيدة وغير
الجيدة لم يجد أحد الصبر لكى يجردها . ومع ذلك فما كان
كل ذلك ليذكر بالنسبة للأمتعة التى دخل بها ليما قبل ذلك
بثلاث سنوات متقلدا السلطة الثلاثية لرئيس بوليفيا
وكولومبيا و دكتاتور بيرو . قطار من الدواب يحمل اثنتين
وسبعين حقيبة وأكثر من أربعمئة صندوق مملوءة بعدديد
من الأشياء التى لا يمكن حصر قيمتها . وفى تلك المناسبة
ترك فى كيتو أكثر من ستمائة كتاب لم يحاول استعادتها
على الإطلاق .

كانت الساعة قد بلغت السادسة تقريبا . كان الرذاذ
الذى نادرا ما يهطل قد توقف ، ولكن الجو كان لا يزال مكفهرًا
وباردا . وبدأت تتصاعد من البيت الذى يحتله الجيش رائحة
القشلاق العفنة . ونهض الفرسان والرماة ، كرجل واحد ،
عندما رأوا الجنرال يقترب فى آخر الرواق . كان صامتا ،
يحيط به حرسه ، أخضر فى جلال الفجر . بعباءته الملقة
فوق كتفه وقبعته العريضة الحواف التى تكشف ظلال وجهه .
كان يضع على فمه منديلا مبللا بماء الكولونيا لكى يحتمى
طبقا لوسواس قديم من تقلبات الجو المفاجئة . ولم يكن يضع
أية علامة تدل على مكانته ، ولم يبق له أى دليل عن سلطته
الكبيرة السابقة ، ولكن هالة السلطة السحرية جعلته يبدو
مختلفا وسط حاشيته الصاخبة من الضباط ، وتوجه نحو
صالة الاستقبال وهو يمشى فى خطى بطيئة فى الرواق
المفروش بالحصر والممتد بالحديقة الداخلية ، غير مكترث

بالجنود الذين يحيونه عند مروره • وقبل أن يدخل الصالون
دس منديلا في كم جاكته ، كما كان يفعل رجال الدين فيما
سبق ، وناول أحد مرافقيه القبعة التي كان يلبسها •

وعلاوة على الذين يسهرون في البيت لم ينقطع المدنيون
والعسكريون عن التوافد منذ الفجر • كانوا يحتسون القهوة ،
في جماعات صغيرة متفرقة وثيابهم الداكنة وأصواتهم الصماء
تضفى على الجو صرامة كثيبة • وارتفع فجأة صوت حاد لأحد
الدبلوماسيين وغطى على مهماتهم قائلا :

ـ لكاننا فى ماتم •

وما كاد يفرغ من عبارته حتى شم ، وراء ظهره ماء
الكولونيا الذى تشبعت به الصالة ، وتحول عندئذ وهو
ممسك بفنجان القهوة الذى يتصاعد منه البخار بين ابهامه
وسبابته • ولكن لا ، فرغم أن آخر رحلة للجنرال فى أوروبا
تعود الى أربع وعشرين سنة ، عندما كان لا يزال شابا يافعا ،
فان الحنين لأوروبا كان أكثر حدة من الأحقاد والضغائن بحيث
ان الدبلوماسى كان أول شخص يوجه الجنرال اليه الحديث
ويقول له فى رقة متناهية :

ـ أرجو ألا يكون هناك ضباب كثير فى هذا الخريف
فى هايدبارك •

تردد الدبلوماسى لحظة لأنه سمع فى هذه الأيام الأخيرة
ان الجنرال راحل الى ثلاثة أماكن مختلفة لم تكن لندن من
بينها • ولكنه تمالك على الفور وقال :

ـ سنحاول أن يكون لدينا شمس نهارا وليلا من أجل
فخامتكم •

لم يكن الرئيس الجديد موجودا بينهم ، لأن المجلس انتخبه في غيابه ، وكان لا يد له من شهر لكي يعود من بوبايا - تواجد بدلا منه ونياية عنه النائب المنتخب ، وهو الجنرال دومينكو كايسيدو ، ويقال عنه ان أية وظيفة في خدمة الامبراطورية محدودة جدا بالنسبة له لأن له هيئة ووقار الملك - وحياء الجنرال باحترام كبير وقال له بلهجة ساخرة :

— هل تعرف أنه ليس معي تصريح بمغادرة البلاد .

قوبلت عبارته بقهقهة عامة رغم أن الجميع كانوا يعرفون انها ليست مزحة - ووعده الجنرال كايسيدو بأنه سيرسل اليه جواز سفر قانونيا في البريد التالي الى مدينة هوندا .

كان الوفد الرسمي مكونا من أسقف المدينة ومن الاعيان والموظفين المرموقين ، وكان المدنيون يلبسون معاطف من الصوف ، والعسكريون جزما خاصة بركوب الخيل لانهم كانوا يستعدون لمرافقة المنفى الكبير طوال فراسخ كثيرة . وطبع الجنرال قبلة على خاتم الأسقف ، وقبل أيدي السيدات ، وشد على أيدي الرجال بدون اندفاق . . سيد مطلق لهذا الحفل المؤثر ، وغريب تماما عن طبع هذه المدينة الغامض الذي قال عنها في مناسبات عديدة « هذه ليست مسرحي » ، وحيا الجميع وهو يمر بكل واحد منهم ويوجه اليه عبارة حفظها من « موجز في الأدب والكياسة » ولكنه لم يحدق في عين أى منهم . وكان صوته رنانا به لذعات حمى ، ولهجته كاريبية ، لم تفلح كل السنوات التي قضها في الترحال والحروب في ترويضها ، بل بدا أنها قد ازدادت أمام هجنة الانديزيين .

وعندما فرغ من تحيتهم ، تلقى مع نائب الرئيس رسالة موقعا عليها من عدد من الغرناطيين المرموقين، يعبرون فيها

عن امتنانهم وامتنان البلاد لسنوات خدمته الطويلة • وتظاهر بأنه يقرأها خلال صمت المجلس كضريبة إضافية للشكليات المحلية لأنه ما كان يستطيع قراءة حتى خط أكبر بدون استخدام نظارته • وعندما تظاهر بأنه انتهى وجهه الى الوفد كلمات وجيزة من الشكر كانت ملائمة الى حد أن أحدا لم يستطع أن يقول انه لم يقرأها • وأخيرا ، ردد البصر في الصالون وقال دون أن يخفى بعض القلق :

— ألم يحضر أوردانيتا •

أخبره نائب الرئيس أن الجنرال رافائيل أوردانيتا رحل وراء الفرق المتمردة لكي يساعد الجنرال جوزيه لورنسيو سيلفا ، وارتفع صوت آخر يقول :

— وسوكريه • هو الآخر • لم يحضر •

لم يستطع أن يمر مر الكرام على سوء نية هذه المعلومة التي لم يلتبسها ، وومضت عيناه الخائيتان والمتهربتان حتى تلك اللحظة بوميض محموم ، ورد دون أن يعرف لمن يوجه الحديث :

— نحن لم نطالع مارشال اياكوشو الكبير عن موعد رحيلنا حتى لا نزعجه •

وبدا أنه كان يجهل أن المارشال سوكريه قد عاد منذ يومين من فنزويلا حيث فشلت مهمته لأنهم منعه من دخول بلده بالذات • ولم يخبره أحد بأن الجنرال راحل • ربما لأنه لم يخطر لأحد ألا يكون أول من يعرف ذلك • وقد عرف جوزيه بالاسيوس ذلك في لحظة غير سوية ، ثم نسيه في صخب الساعات الأخيرة • ولم يستبعد بالطبع الفكرة الخبيثة بأن المارشال سوكريه لم يملكه الاستياء لعدم اطلاعه •

واعد طعام شهى ولذيذ على الطريقة الكريولية . وفى
غرفة الطعام المجاورة : فطائر من دقيق الذرة ، ومحشى الأرز
مع لحم الخنزير ، وبيض مخفوق وتشكيلة جميلة من انواع
الخبز فوق مقارش من الدانتلا ، وأطباق من الشيكولاته
الساخنة كالصمغ المعطر . وقد أصر اصحاب البيت تقديم
الطعام لعل الجنرال يقبل أن يتصدر المائدة رغم أنهم يعرفون
أنه لا يتناول فى الصباح شيئاً آخر غير شراب الخشخاش
المسكر والمزوج بالصمغ العربى . ومهما يكن فقد دعت
صاحبة البيت لكى يجلس على المقعد المجوز له فى آخر
المائدة ، ولكنه رفض هذا الشرف وقال يخاطب الجميع
بابتسامة مهذبة :

— سيكون طريقى طويلاً بالهناء والعافية .

واعتدل لكى يودع نائب الرئيس . وأجاب هذا الأخير
بأن عائقه بقسوة أتاحت للجميع التحقق من هزال الجنرال
وضعفه ، وإلى أى حد كان مضطرباً وحائراً ساعة الوداع ثم
صافح من جديد يد كل من المدعوين . وطبع قبلة مرة أخرى
على أيدي السيدات . واقترح عليه البعض أن ينتظر حتى
يصفو الجو رغم أن الجميع كانوا يعرفون ، مثله تماماً ، إن
الجو لن يصفو قبل نهاية القرن . ومع ذلك فإن رغبته فى
الرحيل بأسرع ما يمكن كانت واضحة بحيث إن الرغبة فى
تأخيره كانت تبدو كأنها وقاحة . وقاده صاحب البيت حتى
الاسطبلات ، تحت رذاذ المطر غير المنظور بالحديقة ، وحاول
أن يساعده بأن أمسكه من ذراعه بأطراف أصابعه ، كما لو
كان من زجاج . وأدهشه نشاط التوتر الذى يسرى تحت
بشرته ، كتيار خفى ليس له أية علاقة بضعف جسده . وكان
ينتظره مندوبون من الحكومة ومن الدبلوماسيين ومن القوى
العسكرية ، وهم يفتشون فى الوحل حتى كواحلهم ، وثيابهم
مبتلة من المطر لكى يرافقه فى اليوم الأول من رحيله . ومع
ذلك فلم يكن أحد يعرف بالتأكيد من منهم يرافقه بدافع

الصداقة . ومن منهم بدافع حمايته . ومن يريد أن يتأكد انه راحل حقا هذه المرة .

كانت البغلة التي احتجزوها له أحسن واحدة في قطع من الدواب أهده تاجر أسباني للحكومة نظير الغاء محاكمته كلص للمواشي . وكان الجنرال قد وضع إحدى قدميه في الركاب الذي قدمه له السائس عندما ناداه وزير الحرب والبحرية قائلا : « يا صاحب الفخامة » فتجمد مكانه واحدة قدميه في الركاب في حين كان يمسك السرج بيديه الاثنتين . قال له الوزير :

— ابق وقم بتضحية أخيرة لانقاذ الوطن .

أجابه : كلا يا هيران . لم يعد لي وطن أضحي في سبيله .

تلك كانت النهاية . فقد كان الجنرال سيمون جسوزيه أنطونيودي لا سنتيسيما ترينيداد بوليفار بالاسيوس يرحل الى الأبد . انتزع من سيطرة اسبانيا امبراطورية اكبر من قارة أوروبا بخمس مرات ، وأدار حربا طوال عشرين سنة لكي يحررها ويوحدها ، وحكمها في حزم حتى الاسبوع السابق . ولكنه في ساعة الرحيل لم يحمل معه ، حتى العزاء بأن هناك من يصدقه . والوحيد الذي كان من الوضوح لكي يعرف انه راحل حقا وأين يذهب هو الدبلوماسي الانجليزى الذى أرسل تقريرا رسميا لحكومته يقول فيه : « ان الوقت المتبقى له سيكفيه بالكاد لكي يبلغ قبره » .

كان اليوم الأول أشد الأيام قسوة وصعوبة ، وقد كان من الممكن أن تكون كذلك لرجل أقل منه علة ، لأن مزاجه كان قد عكسه العداء الكامن الذى أحس به فى شوارع سانتا فى صباح يوم الرحيل . وكان النهار قد بدأ يطلع بالكاد تحت الرذاذ ، ولم يلتق فى طريقه الا ببعض الأبقار الضالة . ولكن كان يكمن فى الجو بعض أعدائه . ورغم احتياط الحكومة التى أصدرت أمرها بمرافقته عبر الشوارع الأقل ازدحاما ، فإن الجنرال استطاع أن يرى بعض عبارات السباب منقوشة على جدران الأديرة .

وكان جوزيه بالاسيوس يتقدم بجواده بجواره ، مرتديا ، كما يفعل دائما ، وحتى وسط أشد المفارك احتداما زيه الرسمى ، وشبك فى ربطة عنقه الحريرية دبوسا من الياقوت الأصفر . وقفازه الجلدى وصديره الديباج . حيث تتشابك به سلسلتا ساعتى الجيب المتجانستين . وطاقم دابته من فضة بوتوسوف ومهمازيه الذهبين ، وكل ذلك سبب كان يجعل أكثر قرى الانديز تخلط بينه وبين الرئيس . ومع ذلك فإن العناية الكبيرة التى كان يلبي بها أقل رغبات سيده ، تجعل هذا الخطأ غير مقبول . كان يعرفه ويعجبه بحيث تألم من أعماقه من هذا الوداع المتهرب من المدينة التى كان من عاداتها أن تتحول الى عيد وطنى لمجرد الاعلان عن وصوله . فعندما عاد منذ أقل من ثلاث سنوات من حروب الجنوب تغطيه هالة الأمجاد التى لم يحصل عليها أبدا أى أمريكى ، ميتا أو على قيد الحياة . استقبل استقبالاً طبيعياً سجله التاريخ . ثم ان الناس فى ذلك الوقت كانوا يتعلقون فى لجام جواده ويوقفونه فى الشارع لكى يعرضوا عليه شكواهم من الخدمات

العامة أو من الضراب ولكي يلتبسوا بعض المزاي . أو ليجرد
الفرض من الاقتراب من بهاء عظمتهم . وكان يولى شكواهم
نفس الاهتمام الذى يولى الى اخطر شئون الجمهورية . وحين
يعرف المشاكل المنزلية لكل واحد منهم . أو أحواله الخاصة
أو حالته الصحية . وكل من يتكلم معه كان يشعر بأنه شارده .
لحظة . مباهج السلطة :

لم يكن بالنسبة لاي أحد نفس الشخص . وكذلك لم تكن
المدينة هي تلك المدينة الصامتة التى يفادرها الى الأبد بحرص
المستبعد . لم يشعر فى أى مكان أنه غريب كما شعر بذلك
فى تلك الشوارع القارسة البرد ببيوتها المتجانسة وأسطحها
السمراء وحدائقها الخاصة العابقة بروائح الزهور . حيث
كانت تنمو . من يوم لآخر . طائفة ريفية أساليها المتصنعة
ولفتها القشتالية تعمل على اخفاء الأمور أكثر من اظهارها .
ومهما يكن . ورغم أن ذلك قد بدا له احدى دعابات التخيل .
فقد كانت هي نفس المدينة ذات السحب والرياح الباردة التى
اختارها حتى قبل أن يعرفها لكي يبنى فيها مجده . والتى
أحبها أكثر من أية مدينة أخرى . وتمثلها كمركز وسبب
لحياته . وكعاصمة لنصف الدنيا .

وفى ساعة تسديد الحسابات . بدا أنه أول من فوجئ
بزوال خطوته . وكانت الحكومة قد أقامت حراسا خفيين .
حتى فى الأماكن الأقل خطرا . فلم تظهر أمامه عصايات
الأوناش الغاضبة التى أعدمت بالأمس تمثالا يمثله .
ولكن أثناء طوال الرحلة سمعت صرخة واحدة «أيها السجق»
والانسان الوحيد الذى رثا له كانت امرأة من نساء الشوارع
قالت له وهو يمر بها : ليحفظك الله أيها الشبح .

وبدا أن أحدا لم يسممها . وغرق المارشال فى أفكار
كئيبة . واستمر يتقدم . غريبا عن العالم . حتى غادر السهل
المتألق . وفى «الأركان الأربعة» حيث يمتد الطريق المبلط

كانت مافويلا ساينز تنتظر وحدها ، فوق صهوة جوادها .
مرور الوفد ، وأرسلت له من بعيد ، بيدها وداعا أخيرا
فأجابها بنفس الحركة وتابع سيره . ولم يكن مقدرا أن يرى
كل منهما الآخر بعد ذلك .

وانقطع الرذاذ بعد ذلك بقليل ، وغدت السماء بلون
ازرق ساطع ، وبقي بركانان يكسوهما الثلوج هامدين في
الافق بقية اليوم . ولكن هذه المرة لم ينم وجهه عن حبه
للطبيعة . ولم يهتم بالقرى التي يجتازونها على مهل ، ولا على
اشارات الوداع التي يوجهونها اليه أثناء مروره ، دون أن
يعرفهم . ومع ذلك فان الأمر الذي بدا غريبا جدا لمرافقيه
هو أنه لم يلق حتى ولا نظرة حنو واحدة للجياد الزائفة في
المراعى العديدة بالسهل ، وهي التي طالما قال انها هي الصورة
التي يجبها أكثر من أى شئ آخر في الدنيا .

وفي قرية فاكاتاتيفا التي مروا بها في أول مرة ، صرف
الجنرال فرقته المتطوعة ، واستأنف الرحلة مع جاشيينه .
وكانت مكونة من خمسة رجال غير جوزيه بالاسيوس ، وهم
الجنرال جوزيه ماريا كارينو الذي بترت ذراعه اليمنى على
أثر جرح أثناء الحرب ، وحارسه الايرلندى الكولونل بلفورد
هنتون ويلسون ، ابن سير روبرت ويلسون ، الجنرال المحتك
الذي اشترك في كل الحروب الأوروبية تقريبا ، وفرناندو ،
حارسه وسكرتيه والحامل لرتبة ملازم ، ابن أخيه الأكبر
الذي لقي حتفه غرقا في سفينته أثناء قيام الجمهورية الأولى ،
والكابتن أندريه ايبارا ، قريبه وحارسه الذي بترت ذراعه
بضربة سيف قبل ذلك بسنتين في هجوم الخامس والعشرين
من سبتمبر ، وأخيرا الكولونل جوزيه دى لاکروز باريدس
الذي أثبت جدارته في معارك الاستقلال العديدة . أما حرس
الشرف فكان مكونا من مائة فارس ورام من أفضل الجنود
الفنزويليين .

وكان جوزيه بالاسيوس يعنى عناية خاصة بلبلين
أخذوهما غنيمة أثناء حرب « أعالي بيرو » . وكانا جميلين
وشجاعين قاما بالحراسة الليلية على قصر الرئاسة فى سانتا
فى حتى الليلة التى قتل فيها رفيقان لهما طعنا بالخناجر .
وأثناء الرحلات اللا متناهية ، من ليما الى كيتو ، ومن كيتو
الى سانتا فى ومن سانتا فى الى كاراكاس ، وفى طريق العودة
الى كيتو والى جوايا كيل قام الكلبان بحراسة الحمولة وهما
يسيران بجوار قطار البهائم . وأثناء الرحلة الأخيرة من
سانتا فى الى قرطاجنة قاما بنفس الحراسة على الرغم من
أن الحمولة كانت تلك المرة أقل أهمية فضلا عن أن الجنود
كانوا يتولون حراستها .

استيقظ الجنرال فى فاكاتاتيفا مقطبا ، ولكن مزاجه
أخذ فى الاعتدال كلما تحسن الجو ، وازداد الضوء صفاء وهم
يهبطون السهل ، عبر تلال متعرجة - واستولى القلق على
حاشيته بسبب حالته البدنية ، وطلبت منه أن يستريح أكثر
من مرة ، ولكنه فضل متابعة السير حتى الأراضى الدافئة من
غير أن يتناول افطاره . وكان من عادته أن يقول ان ديبب
جواده يدعوهُ الى التفكير . وقضى رحيله أياما وليالى وهو
يستبدل الجواد أكثر من مرة حتى لا يرهقه . كانت ركبتاه
ملتويتين . وكان يمشى كأولئك الذين ينامون بمهاميزهم .
وتكون حول شرجه خشونة أشبه بجلد الموسيقى مما حدا الجميع
على أن يكتنوه « بذى الاست المديدى » . كان قد قطع على
صهوة جواده منذ أن بدأت حروب الاستقلال ثمانية عشر ألف
فرسخ . أى أكثر من الطواف حول الأرض مرتين . ولم يكذب
أحد أبدا الاسطورة التى تقول انه كان ينام وهو فوق صهوة
جواده .

وبعد الظهر ، وعندما بدعوا يحسون بالبخر الدافئ
الذى يتصاعد من الوديان ، منحوا أنفسهم وقفة للاسترخاء
فى رواق ارسالية . ووزعت عليهم الأم الرئيسة بنفسها هى

وجماعة من المترهبات بعض الحلوى الطازجة ، شراب الذرة الموشك على التخدير . وحين رأت الرئيسة الجنود يتصيبون عرقا ، ويرقدون دون أى نظام أو عناية ، خطر لها أن الكولونل ويلسون هو الضابط الذى يملوهم فى الرتب ، ولعل ذلك لأنه كان أشقر ووسيم ، ويلبس زيا مزركشا ، فلم تهتم الا به باحترام أنثوى تسبب فى تقولات خبيثة .

انتهر جوزيه بالاسيوس هذا الغموض ونصح سيده أن يستريح قليلا فى ظل أشجار الدير ، ودثره بغطاء من الصوف لكى يعرق ويتخلص من الحمى . وبقي الجنرال دون طعام ودون نوم . يستمع الى أغنيات الحب التى تشدو بها المترهبات . تصاحبهن راهبة عجوز بالعزف على القيثارة . وأخيرا ، قامت احدهن فى الرواق وفى يدها قبعة تجمع الصدقات للارسالية ، وقالت لها عازفة القيثارة : لا تطلبى شيئا من المريض ، ولكن المترهبة لم تصغ اليها ، وقال لها الجنرال دون أن ينظر اليها ، وعلى شفثيه ابتسامة مريرة : أنا الذى كان يجب أن يطلب الصدقة يا بنيتى . وناولها ويلسون قطعة من النقود من ماله الخاص بأسراف تسبب فى دعاية ودية من رئيسه اذ قال : هل ترى كم يكلف المجد يا كولونل ؟ وأبدى ويلسون دهشته فيما بعد ، لأن ما من أحد من الارسالية أو ممن التقى بهم فى الطريق لم يعرف أشهر رجل فى الجمهوريات الجديدة . وكان هذا دون شك درسا لهذا الأخيرة فقد قال : أنا لم أعد أنا .

امضوا الليلة الثانية فى مصنع للدخان تحول الى فندق للمسافرين ، بجوار قرية جوادياس ، حيث كانوا ينتظرونه لمظاهرة تعويض لم يشأ الجنرال تكبدها . وكان البيت فسيحا وقاتما ، والجواد يثير قلقا غريبا بسبب الخضرة المتوحشة والنهر ذى المياه السوداء والصاخبة التى تنحدر نحو مزرعة الموز بالأراضى الساخنة فى دوى مدمر ، وكان الجنرال يعرف

المكان . وقد قال في أول مرة مر به : اذا كان ولا يد من ان انصب كمينا خبيثا لأحد، فسوف اختار هذا المكان . وقد تجنب المرور به في مناسبات كثيرة لأنه كان يذكره بأرض بريكوس . وهي مكان كثيب على طريق كيتو . بحيث ان أجرا المسافرين كانوا يفضلون اجتنابه . وقد عسكر ذات يوم على بعد فرسخين منه رغم رأى الجميع لأنه لم يكن يظن أنه يستطيع تحمل مثل هذه الكآبة . ولكن المكان بدا له هذه المرة . رغم التعب والحمى أكثر احتمالا من مأدبة الغزاء التى ينتظره فيها أصدقاءه المنحوسون بجوادياس .

حين رآه صاحب الفندق يصل بهذه الحالة المثيرة للشفقة، عرض عليه أن يستدعى هندية من نجع مجاور يعالج المرضى بمجرد أن يشم قميصا له مبللا بعرقه . مهما كانت المسافة . وحتى اذا لم يكن قد رآه أبدا . واستهزا الجنرال بسذاجته ومنع أيا من رجاله من الاتصال بذلك الهندي ، صانع المعجزات ، فهو اذا كان لا يؤمن بالأطباء الذين يعتقد أنهم يتاجرون بالأم الغير ، فانه لا يمكن أن يأمل على الأقل أن يسلم مصيره الى زوحانى هندی . وأخيرا ، ولكي يؤيد فوق ذلك ، ازدراؤه للعلوم الطبيعية رفض الغرفة المريحة التى أعدوها له ، والمنامنة لحالته الصحية ، وأمر أن يعلقوا أرجوحته فى الرواق الكبير المكشوف الذى يشرف على الوادى حيث سيقضى الليل معرضا لقسوة الندى .

لم يتناول طوال اليوم غير الشراب الساخن الذى يتناوله فى الصباح ، ولم يجلس الى المائدة الا لمجاملة ضباطه ورغم أنه يمثل خيرا من أى أحد لقسوة الحياة فى الريف . ورغم أنه يكاد يكون متقشفا من ناحية الطعام والشراب . فقد كان يحب ويعرف فنون القبو والمطبخ كأوروبى مرفه . وتعلم من الفرنسيين ، بدعا من رحلته الأولى ، عادة التحدث عن الطعام وهو يأكل ، فاقه فى تلك الليلة شرب نصف كأس من النبيذ

الأحمر ، وذاق يدافع الفضول يخنى الصيد حتى يتحقق مما اذا كان الضباط يقولون ، هم وصاحب الفندق ، الحقيقة وهم يؤكدون ان اللحم المتفسفر له طعم الياسمين . ولم ينطق بغير عبارتين طوال العشاء ، ولم ينطقهما بأكثر حماسا عن العبارات القلائل التي نطقها أثناء الرحيل ، ولكن قدر الجميع جهده لكي يخفف بملعقة صغيرة من النيات الطيبة خلا مصائبه العامة وسوء صحته ، ولم يتكلم عن السياسة او يذكر أى شئ من أحداث يوم السبت ، كرجل لا يستطيع بعد سنوات من المهانة أن يتحمل حكمة الحقد .

وقبل أن يفرغوا من الطعام استأذن لمغادرة المائدة ، وارتدى قميص النوم وطاقيته ، وتهالك في أرجوحته وهو يرتجف من الحمى . كانت الليلة باردة ، وبدأ قمر كبير يرتقلى اللون يرتفع بين التلال ، ولكنه لم يشعر بميل الى رؤيته . وعلى بعد خطوات من الرواق ، راح جنود حراسته يغنون أغاني شعبية معاصرة . وكانوا بناء على أمر قديم منه ينامون دائما على مقربة من غرفته كجحافل يوليوس قيصر . حتى يستطيع أن يعرف أفكارهم وحالاتهم الذهنية من أحاديثهم الليلية ، وقد قادته جولات أرقه مرارا كثيرة حتى مضاجع الجنود ، ورأى أكثر من مرة النهار يطلع وهو يشاركهم غناءهم المطرى أحيانا والساخر أحيانا أخرى وهم يرتجلونها فى حماسهم . ولكنه لم يستطع تلك الليلة تحمل الغناء ، وأصدر أمره بأن يكفوا عن ذلك . وانضم اصطفاق النهر الأبدى بالصخور الى هذيانه ، وصاح :

— رباه ! لو يستطيعون على الأقل ايقافه لحظة !

ولكن لا . لم يعد يستطيع ايقاف جريان الأنهار . وأراد جوزيه بالاسيوس أن يهدئه بأن يتناول أحد الأقراص المسكنة التي يحملانها معها فى حقيبة الأودية ، ولكنه رفض ذلك ، وكانت هذه أول مرة يسمع فيها الجنرال يقول : اننى تخليت

عن السلطة بسبب دواء مقيىء أسىء وصفه ، ولست مستعدا أن أتخلى عن الحياة أيضا . وكان قد قال هذا الكلام قبل ذلك بسنوات عندما عالج به طبيب من حمى أصابته بشراب زرنىخى أوشك أن يقتله بنوبة من الاسهال ، ومنذ ذلك الوقت كانت الأدوية الوحيدة التى يتناولها دون تردد قاصرة على الأقراص المليئة مرات كثيرة كل أسبوع ليعالج نفسه من الامساك العضال ، وغسيل معدته بالسنا فى أشد حالاته حدة *

وبعد منتصف الليل بقليل ، تمدد جوزيه بالاسيوس على الأرض الحجرية وقد هذه التعب ، ونام ، وعندما استيقظ لم يكن الجنرال فى أرجوحته ، وقد ترك على الأرض قميص نومه المبتل بالعرق . ولم يكن هذا بغريب ، فقد كان من عادته ان يغادر الفراش ويتمشى عاريا فى الفجر لكى يغذى أرقه ، عندما لا يكون فى البيت أحد ، ولكنه فى تلك الليلة كان هناك الكثير من الأسباب التى تحثه على الخوف على حياته لأنه أمضى يوما سيئا . والجو البارد والرطب لم يكن ليسمح له بالتجول كما يشاء . وأخذ جوزيه بالاسيوس غطاء وأسرع يبحث عنه فى البيت المضاء بوميض القمر الأخضر ، ووجده راقدا على مقعد حجرى فى الرواق ، كجثة هامدة فوق ضريح . وألقى الجنرال اليه نظرة واضحة لم يعد فيها أى أثر للحمى وقال :

— هذه مرة أخرى كليلة سان جوان دى بايارا ، ولكن بدون رينا مارياتيريزا للأسف .

كان جوزيه بالاسيوس يعرف هذه الذكرى جيدا ، فقد كانت تتعلق بأحدى ليالى يناير سنة ١٨٢٠ فى مكان ضائع فى فنزويلا ، وسط سهول أبورا العالية ، حيث وصلها الجنرال مع ألفى رجل من الجنود ، وكان قد سبق أن حرر من النير الاسباني ثمانى عشرة ولاية ، بدءا من الأراضى القديمة

التي كانت تعرف باسم دائرة فنزويلا ورئاسة كيتو ، وأسس جمهورية كولومبيا وأقام نفسه رئيسا عليها وقائدا عاما لجيوشها . وكان آخر طموحاته أن يحقق الحلم الخيالي بإنشاء أكبر أمة في العالم : بلد واحد حر ومتحد من المكسيك حتى رأس هورن .

ومهما يكن فإن حالته في تلك الليلة لم تكن مناسبة للأحلام ، فقد تفشى وباء فجائي صعب البهائم وهي في سيرها . وترك في السهل كمية نتنة من الخيول الميتة امتد طولها حتى أربعة عشر فرسخا ، ووهنت عزيمة العديد من الضباط ووجدوا عزاءهم في التمرد ، وبلغ الأمر بالبعض منهم بالسخرية من تهديد الجنرال بإعدام المذنبين رميا بالرصاص . وبدأ ألفان من الجنود ، يرتدون الأسمال ، وحفاة الأقدام وعزل من السلاح ويعانون من الجوع ولا يملكون أغذية يحتمون بها من برد السهول وقد أرهقتهم الحروب وأغلبهم مرضى ، بدعوا يهربون بالجماعات . واذ رأى الجنرال نفسه لا يملك حلا منطقيا ، عرض تقديم مكافأة قدرها عشرة بيزوس للدوريات التي تلقى القبض وتسلم أحد زملائهم الهاربين ، وأن يعدم هذا الأخير رميا بالرصاص دون التحقق في أسبابه .

وكانت الحياة قد أتاحت ما يكفي من الأسباب لكي يعرف أن أية هزيمة لن تكون الأخيرة ، فمنذ ما يقرب من سنتين وهو ضائع ، هو وجيشه في غابات أورنيوك ، اضطر أن يأمر بأكل الخيول اشفاقا من أن يلتهم الجنود بعضهم بعضا . وفي ذلك الوقت ، طبقا لشهادة ضابط من الفرقة البريطانية ، كانت له سحنة غريبة لأحد رجال العصابات . فقد كان يضع فوق رأسه خوذة جندي روسي . ويلبس حذاء من القماش مما يلبسه البغالون، وسترة زرقاء . بزخارف حمراء وأزرار ذهبية ويرقع رمحا في طرفه راية قرصان سوداء

مرسوم عليها رأس ميت ، وساقاه معقودتان فوق شـعار
بالحروف الحمراء « الحرية أو الموت » .

وكانت ثيابه ليلة سان جرمان دى بايارا أقل رثاءة .
ولكن موقفه لم يكن بأفضل أبدا . كان بالذات الصورة
للحالة التي عليها فرقته والمأساة لجيش التحرير كله . الذي
خرج مرارا عديدة عظيما من أسوأ الهزائم ، ومع ذلك فقد
كان على وشك أن ينوء تحت ثقل العديد من الانتصارات .
وعلى العكس فان الجنرال الاسباني بابلو موريللو كان مايزال
يسيطر على قطاعات كبيرة من غرب فنزويلا ، وضاعف قواته
فى الجبال مستخدما كل الوسائل لاختضاع الوطنيين واعادة
النظام الاستعماري .

وامام هذا الوضع الدنيوى كان الجنرال يجتر أرقه وهو
يمشى عاريا تماما فى الغرف الشاغرة بالبيت العتيق
بالمزرعة ، وقد جمل سنا القمر وجهه . وكانت غالبية الخيول
التي ماتت بالأمس قد أحرقت بعيدا عن البيت . ولكن رائحة
المعنى كانت لا تزال تفوح بالجو بحيث لم تكن تطاق . وانقطع
الجنود عن الفناء منذ أيام الاسبوع الماضى المميتة . ولم يشعر
هو نفسه بأنه قادر على أن يمنع الحراس من النوم من فرط
الجوع . وفجأة ، فى آخر أحد الأروقة المطلة على السهول
الواسعة الزرقاء رأى رينا ماريا لويزا جالسة على الدرج .
كانت خلاسية حسناء ذات وجه جميل وفى زهرة العمر ،
وتدخن سيجارا طويلا ، وتتدثر حتى قدميها بوشاح مطرز
بالزهور ، وتملكها الخوف حين رآته وواجهته وهى تعقد
سبابتها وقالت :

— أمبعوث أنت من الله أم من الشيطان ؟ ... ماذا
تريد ؟

أجاب : أريدك أنت •

ابتسمت ، وسوف يتذكر ومضة أسنانها في ضوء القمر -
وضمها اليه بكل قواه مانعا اياها من اتيان ايه حركة . وراح
يمطرها بقبلاته الرقيقة فوق جبينها وعينيها وعنقها حتى
تمكن من ترويضها • وعندئذ خلع عنها وشاحها . وما زاد
ينعل حتى انبهرت انفاسه ، فقد كانت هي الأخرى عاريه ،
لان جدتها التي تنام معها في نفس الغرفة كانت تنفى عنها
ثيابها حتى لا تنهض وتخرج لكي تدخن وهي لا تدري انها
تهرب في الفجر متدثرة بالوشاح • وحملها الجنرال بين
ذراعيه حتى أرجوحتة دون أن يكف عن قبلاته الناجعة •
ومنحت نفسها له ، لا عن رغبة ولا عن حب وانما عن خوف •
كانت عذراء ، وما أن استعادت سيطرتها على قلبها حتى
قالت :

— أنا أمة يا سيدى •

قال : لم تعودى كذلك • لقد حررك الحب •

وفي الصباح اشتراها من صاحب العزة بمائة بيزوس
دفعها من ماله الخاص ، وحررها دون أية شروط • ولم يقاوم
قبل رحيله من رغبتة في توريطها أمام الجميع • كان في
الساحة الأخيرة للبيت • ومعه جماعة من الضباط يمتطون
دواب الحمولات • وهي الوحيدة التي نجت من الوباء • في
حين اجتمع فيلق آخر بقيادة اللواء جوزيه أنطونيو بايز •
أقبل بالأمس لوداعه •

استاذن الجنرال في الانصراف بالقاء خطبة وجيزة
خفف فيها من الناحية المساوية للموقف ، وهم بالرحيل عندما
لمح ريينا ماريا لويزا في وضعها الجديد كامرأة حرة يرعاها
الجميع • كانت جميلة ومتألقة تحت سماء السهل • وكانت
قد اغتسلت وارتدت ثيابا بيضاء • والجولة مزدانة بدانتلا

منشاة والقميص مشدود فوق صدرها على طريقة الجوارى .
وسالها فى رفق :

ـ هل تاتين معنا أم تبقيين .

أجابته بضحكة ساحرة : بل سأبقى يا سيدى .

قوبل ردها بقهقهة جماعية . وعندئذ قام صاحب البيت ، وهو اسباني منضو منذ اللحظة الاولى لقضية الاستقلال ، وصديق قديم للجنرال ، بالقاء الكيس الصغير الذى يحتوى على المائة بيزوس اليه وهو يتلوى من الضحك . فتلقفه الجنرال فى حين قال له الرجل :

ـ احتفظ بها من أجل القضية يا صاحب الفتاه .
ومهما يكن فان الجميلة قد أصبحت حرة .

انفجر الجنرال جوزيه أنطونيو بايز ، الذى تنسجم ملامحه البطولية مع قميصه المرقع بثتى الألوان ضاحكا فى صوت مرتفع وقال :

ـ أرايت يا جنرال ... هذا هو ما يجنيه المحررون .

وافقه الجنرال . وودع الجميع بإشارة دائرية من يده . وودع أخيرا رينا ماريا لويزا وداع الخاسر الطيب ، ولم يعرف بعد ذلك شيئا عنها أبدا . وتظل الذكريات باقية فى ذهن جوزيه بالاسيوس ، فلم تمر سنة كاملة حتى قال له الجنرال انه رأى بعين الخيال أنه يعيش تلك الليلة من جديد ولكن من غير ظهور رينا ماريا لويزا الفاتنة . وكانت تلك الليلة ليلة هزيمة .

وفى الساعة الخامسة ، عندما أتاه جوزيه بالاسيوس بأول قدح من شرابه المعتاد ، وجده نائما مفتوح العينين . وحاول الجنرال أن ينهض فى حماس كبير بحيث أوشك أن يقع على ظهره ، وأصابته نوبة من سعال حاد . وبقي جالسا

فى أرجوحته وهو يدفن رأسه بين يديه أثناء سعاله حتى انتهت التوبة - وعندئذ بدأ يحتسى الشراب الذى يتصاعد منه الدخان . وتحسنت حالته بدءا من الجرعة الأولى وقال :

ـ حلمت طول الليل بكاساندر .

كان هذا هو الاسم الذى يطلقه سرا على الجنرال الفرنسى فرانسيسكو دى بول سانتاندر ، صديقه الحميم فيما سبق ، واكبر معارضيه فى كل الأوقات ، وقائد أركانه منذ بداية الحرب . ورئيس كولومبيا أثناء الحروب الضارية لتحرير كيتو وبيرو وأنشاء بوليفيا - وقد كان فعلا وشجاعا من الناحية التاريخية أكثر منه موهبة واستعدادا . ولكن كان به ميل الى القسوة شيئا ما . غير أن مزاياه وثقافته الأكاديمية هما اللتان حققتا مجده . كان دون مرء الرجل الثانى فى الاستقلال ، والرجل الأول فى وضع التشريعات القانونية للجمهورية التى نفخ فيها للأبد روحه المدققة والمحافظة .

وفى إحدى المرات العديدة التى فكر فيها فى الاستقالة قال لسانتاندر انه سيتخلى له عن الرئاسة بكل هدوء - « لأننى أتركها لك أنت . فما أنت الا أنا ، بل لعلك أفضل منى » - ولم يول أى رجل آخر ، سواء يالعقل أو بقوة الأمور مثل الثقة التى أولاه بها ، وكرمه بأن منحه لقب « رجل القوانين » - ومع ذلك فان الذى استحق كل ذلك كان منفيا فى باريس منذ سنتين بسبب اشتراكه فى مؤامرة لاغتياله . وهى مؤامرة لم تتأكد قط .

جرت الأمور هكذا . وفى الاربعاء الخامس والعشرين من سبتمبر سنة ١٨٢٨ ، وفى نحو نصف الليل اقتحم اثنا عشر مدنيا وستة وعشرون عسكريا بوابة قصر الرئاسة فى سانتا فى ، وذهبوا اثنين من كلاب الحراسة الضارية ، وجرحوا كثيرا من الحراس ، وأصابوا الكابتن أندريس ايبارا بجرح خطير فى ذراعه وقتلوا يرصاصة الكولونيل

الاسكتلندى ويليام فرجسون ، عضو الفرقة البريطانية ،
وملازم الرئيس الذى قال عنه الجنرال انه شجاع كقيصر -
وصعدوا الى غرفة الرئيس وهم يهتفون بحياة الحرية
ويصيحون بالموت للطاغية -

وقد برر المتآمرون محاولة الاغتيال بسبب السلطان
الواسعة المتسمة بالروح الدكتاتورية الواضحة التى اضطلع
بها الجنرال قبل ذلك بثلاثة شهور لكى يعيق انتصار
السانتاندرين فى معاهدة أوكانا ، فقد ألغيت صلاحيات
نائب رئيس الجمهورية التى مارسها سانتاندر طوال سبع
سنوات - واطلع سانتاندر صديقا له على ذلك بأن قال له :
« يسرنى أننى دفنت تحت أنقاض دستور سنة ١٨٢١ وكان
فى السادسة والثلاثين من عمره عندئذ - وقد عين وزيرا
مقوضا فى واشنطن ، ولكنه أجل انتقاله الى واشنطن ثلاث
مرات ، ربما على أمل أن تنجح المؤامرة -

وكان الجنرال ومانويلا ساينز قد احتفلا بالكاد بليلة
مصالحة وأمضيا نهاية الأسبوع فى قرية سواشا ، على بعد
فرسحين ونصف ، وعادا يوم الاثنين فى عربتين متفصلتين
بعد مشادة غرامية أكثر احتداما من المشادات الأخرى ، لأنه
كان يصم أذنيه عن التحذيرات من مؤامرة اغتيال يتكلم
عنها الجميع ، وهو وحده لا يصدقها - وقاومت حتى الساعة
التاسعة مساء ، وهى فى بيتها ، الرسائل الملحة التى كان
يبعث بها اليها من قصر سان كارلوس ، على الرصيف المقابل -
وبعد ثلاث رسائل كل منها أكثر إلحاحا عن الأخرى لبست
خفا واقيا من المطر فوق حذاءها ، وغطت رأسها بوشاح
واجتازت الشارع الذى أغرقه المطر - ووجدته يعوم على
ظهره فى مياه البانيو المعطرة بمعاونة جوزيه بالاسيوس -
وإذا كانت لم تظنه ميتا فذلك لأنها كثيرا ما رآته يفكر وهو
فى هذه الحالة من الرضا - وعرفها مع وقع خطوتها وكلمها
دون أن يفتح عينيه :

— سوف يكون هناك تمرد —

ولم تستطع سخريته اخفاء حفيظته .

قالت : لك تهائني . بل قد يكون هناك عشر مؤامرات .
لأنك تسمع جيدا التحذيرات .

اجابها : اننى لا اؤمن الا بالتفاؤلات .

كان يجيز لنفسه هذه اللعبة لأن رئيس أركانه الذى
أطلع المتآمرين على كلمة السر الليلية حتى يستطيعوا خداع
حرس الليل . كان قد أقسم له بشرفه على أن المؤامرة قد
فشلت . وخرج من البانيو والقلب مسرور وقال : لا تبال .
يبدو أن هؤلاء الجبناء خوافون .

وكانا قد يدها فوق الفراش مداعبات الحب وهو عار
تماما وهى نصف عارية عندما سمعا الصيحات الأولى وطلقات
الرصاص الأولى ودوى المدافع على ثكنة الجنود الملكية .
وساعدته مانويلا على ارتداء ثيابه بكل سرعة ، وناولته الخف
الواقى من المطر الذى كانت قد لبسته لأن الجنرال كان قد
أعطى حذاءه للتلميع ، وعاونته على الهرب من الشرفة ومعه
سيف ومسدس . ولكن دون أية حماية من المطر الذى ينهمر .
وما أن وجد نفسه فى الشارع حتى شهر سيفه على شبح
يتقدم وهو يصيح : من القادم ؟ كان رئيس خدمه . وكان
عائدا الى البيت منهارا لأنه علم أنهم قتلوا الجنرال . وقرر
أن يشاركه مصيره حتى النهاية ، واختفى معه داخل دغل .
تحت كوبرى كارمن ، على سواحل سان أوجستان . الى أن
انتهت الجنود الملكية من احباط الفتنة .

واستقبلت مانويلا بدهائها وشجاعتها اللتين استخدمتهما
فى مثل هذه المواقف التاريخية المهاجمين الذين اقتحموا
الباب وسألوها عن الرئيس . وأجابتهم بأنه كان فى قاعة .

الجلس - وسألوها لماذا نافذة الشرفة مفتوحة في هذه الليلة من الشتاء ، فأجابت بأنها فتحتها لكي تعرف سبب الضجة التي سمعتها في الشارع . وسألوها لماذا الفراش دافئ ؟ فأجابت بأنها استلقت عليه وهي يملأها في انتظار الجنرال . وبينما كانت تكتسب الوقت هكذا بأجوبتها القصيرة كانت تدخن سيجارا عاديا وهي تنفث أنفاسا كثيفة من الدخان ، لكي تغطي على رائحة الكولونيا التي لا تزال تعبق بالغرفة .

قضت محكمة رأسها الجنرال رافائيل اوردانيتا بان الجنرال سانتاندر هو المحرض السري للمؤامرة ، وحكمت عليه بالموت . واعترف أعداؤه بأنه يستحق هذا الحكم دل الاستحقاق ، ليس بسبب ذنبه في محاولة الاغتيال وانما لوقاحته لأنه كان أول من ظهر في الميدان الكبير لكي يحتفل بنجاة الرئيس ويعانقه . وكان هذا الأخير يمتطي جوادا تحت المطر ، بدون قميص وسترته ممزقة ومبتلة ، وسط هتافات جنوده والجمهور الصغير الذي أسرع ، جماعات من النجوع للمطالبة باعدام القتلة . وكتب الجنرال الى سوكريه يقول : « سوف نجازي كل المتآمرين » سانتاندر هو المذنب الرئيسي ولكنه الأكثر حظا لأن كرمى سيحمله » . والواقع أنه استخدم اختصاصاته وخفف حكم الموت الى النفي بباريس . وعلى العكس رموا بالرصاص بدون أدلة كافية الأدميرال جوزيه برونشيرو باديل ، وكان موجودا في سجن سانتا في لاشترائه في عصيان فاشل في قرطاجنه .

لم يكن جوزيه بالاسيوس يعرف ، عندما يعلم سيده بالجنرال سانتاندر متى تكون أحلامه حقيقة ومتى تكون خيالية . فقد روى له ذات يوم ، في جواياكيل أنه حلم بكتاب مفتوح فوق بطنه المستديرة ، ولكنه بدلا من أن يقرأ كان ينتزع الصفحة اثر الصفحة ويأكلها ويتلذذ بمضغها كما تفعل الماعز . وحلم مرة أخرى في كوكوتا بأنه رآه مغطى بالصراصير من أخمص قدميه حتى قمة رأسه ، واستيقظ

مرة أخرى فى بيت ريفى بمونسيرات بسانتا فى مرغوبا لأنه حلم بأنه كان يتناول الافطار مع الجنرال سانتاندر ، وان هذا الأخير انتزع عينيه من محجريهما ووضعهما على المائدة لأنهما تموقانه عن الأكل بحيث انه فى الفجر ، بالقرب من جوادياس عندما قال له الجنرال بأنه حلم مرة أخرى بسانتاندر لم يسأله جوزيه بالاسيوس حتى عن موضوع الحلم وانما حاول أن يواسيه بأن يذكره الحقيقة قائلا :

ـ ان البحر كله بيننا وبينه ـ

أوقفه على الفور بنظرة متألقة وقال : كلا ، اننى واثق ان هذا الغبى جواكين موسكيرا سيدعه يعود .

أزعجته هذه الفكرة منذ عودته الى البلد عندما فكر فى أن التخلي عن السلطة مسألة شرف وقال لجوزيه بالاسيوس : اننى أفضل النفى أو الموت على عار ترك مجدى بين أيدي كلبه سان بارثولوميه . ومع ذلك فان الترياق كان يحمل فيه سمه بالذات لأنه كلما اقترب من القرار النهائى زاد يقينه بأنهم سيستدعون الجنرال سانتاندر من منفاه ، فهو أكبر الضباط رتبة وشهرة فى هذا الوكر من الخاملين ، وقال :

ـ انه وعد حقا ـ

اختفت الحمى تماما ، وأحس بأنه على ما يرام بحيث طلب ريشة وورقا من جوزيه بالاسيوس ، ثم وضع نظارته على عينيه وكتب بيده بالذات رسالة من ستة سطور لماثويلا ساينز ، وهو تصرف كان لابد أن يبدو غريبا لرجل معتاد على مثل هذه التصرفات كجوزيه بالاسيوس ، ثم انها تصرفات لا يمكن استيعابها الا كفأل أو ايعاء فجائى لا يطاق ، لأنه كان يتعارض مع تصميمه الذى اتخذه يوم الجمعة الماضى بأن لا يكتب بعد خطابا واحدا طوال حياته . كما أنه كان

يناقض عادته فى ايقاظ سكرتيره فى اية ساعة لارسال البريد المتأخر أو لاملأء تصريح او لتنسيق الافكار المختلفة التى واثته اثناء تأملاته الليلية • ولا بد ان ذلك كان يبدو غريباً كذلك لأن الرسالة لم تكن من الضرورة العاجلة ، ولم تضاف شيئاً الى نصيحة زودها بها لحظة الوداع ، أى عبارة بالأحرى غامضة : « توخى الحذر فيما تفعلين والا فانك بضياحك تضيعيننا معا » ، كتبها بكل سرعة ، كما لو انه لم يكن يفكر فيها ، وفى النهاية استأنف اهتزازة فى الأرجوحة وهو مستغرق فى أفكاره والرسالة فى يده • وتنهى فجأة وقال :

— ان السلطة الكبيرة تكمن فى قوة الحب التى لا تقهر •
من قال هذا ؟

أجابه جوزيه بالاسيوس : لا أحد •

لم يكن يعرف القراءة ولا الكتابة ، ورفض ان يتعلم متذرعاً بحجة بسيطة وهى أنه ليست هناك أية حكمة اكبر من حكمة الحمير - ولكنه ، فى المقابل ، كان قميناً بان يتذكر أية عبارة يسمعها صدفة واتفاقاً ، وهو كم يتذكر تلك العبارة ، وقال الجنرال :

— أنا الذى أقول ذلك اذن • ولكننا سنزعم ان الذى قالها هو الجنرال سوكرية •

لم يكن هناك من يتلاءم مع هذه الأزمات التى يتعرض لها الجنرال أكثر من فرناندو ، فقد كان أكثر سكرتيره خدمة وصبراً رغم أنه لم يكن أكثرهم تالفاً • وكان يواجه برباطة جأش محنة جور أوقات العمل أو سحق أرق الجنرال ، فقد كان يوقظه فى أى وقت لكى يقرأ له كتاباً لا أهمية له ، أو لكى يملأ عليه ملحوظات ارتجالية وعاجلة لا يلبث أن يلقي بها فى سلة المهملات فى صباح اليوم التالى • ولم ينبج

الجنرال أولادا من ليالى حبه الكثيرة (رغم أنه كان يملك الدليل على أنه ليس عقيما) ، وعندما مات أخوه تحفل بفرناندو ، وأرسله بخطابات توصية الى الأكاديمية العسكرية بجورج تاون ، حيث عبر له الجنرال لافاييت عن مشاعر الاعجاب والاحترام التى يكنها نحو عمه . وأقام بعد ذلك فى كلية جيفرسون بشارلوتفيل . وفى جامعة فيرجينيا ، وهو لم يكن الخلف الذى تمناه الجنرال كثيرا لأن الدراسات الأكاديمية كانت تثير ملله ، وكان يستبدلها ، مسرورا ، بالحياة فى الهواء الطلق ، وبالفنون المتعلقة بفلاحة البساتين . واستدعاه الجنرال الى سانتا فى بعد أن انتهى من دراسته ، واكتشف فيه على الفور مزاياه السكرتارية . من ناحية ، بسبب خطه الجميل وتمكنه من اللغة الانجليزية ، قراءة وكتابة . ومن ناحية أخرى ، لأنه الوحيد الذى يستطيع ابتكار أساليب الراوى الذى يشد الاهتمام ، وأنه عندما كان يقرأ بصوت عال ، يرتجل عند المناسبة أحداثا جريئة لى يجمع بها الفقرات المملة . وكغيره ، زالت حظوته عند الجنرال ذات مرة ، عندما نسب الى شيشرون عبارة لديموستين ، ذكرها عمه بعد ذلك فى احدى خطبه . وكان الجنرال . بكونه رئيسا للجمهورية أشد قسوة معه عن الآخرين ، ولكنه سامحه قبل نهاية العقاب .

اصبح الجنرال مرة أخرى لا يقهر ، ودخل من الشارع الرئيسى مكشوف الصدر وعلى رأسه وشاح غجرى لى يجفف به عرقه ، يحيى الحشود بقيمته وسط الهتافات وطلقات الصواريخ ورنين أجراس الكنيسة التى تغطى على الموسيقى ، وهو ممتط بغلة تسير خبيا فى مرج حزم الموكب من كل ادعاء احتفالى . كان البيت الوحيد الذى ظلت نوافذه مغلقة هو كلية الراهبات ، وفى نفس ذلك الأصيل سرت اشاعة بأنهم منعوا الطلبة من الاشتراك فى الاحتفال بالاستقبال . ولكنه نصح الذين رددوا هذا الأمر ألا يصدقوا اشاعات الدير .

كان جوزيه بالاسيوس قد أعطى بالأمس القميص الذى تبلى بقرع الجنرال للغسيل - وقد عهد به مراسلته الى الجنود الذين هبطوا فى الفجر لكي يغسلوه فى النهر - ولكن عند الأصيل لم يستطع أحد العثور عليه - وفى أثناء الرحلة الى جوادياس ، وفيما بعد - أثناء الاحتفال تمكن جوزيه بالاسيوس من التأكد من أن صاحب الفندق أخذ القميص القدر لكي يظهر الهندى صاحب المعجزات قدرته ، بحيث انه عندما عاد الجنرال أخبره جوزيه بخدعة صاحب الفندق موضعا له أنه لم يعد لديه غير قميص واحد وهو الذى يرتديه - وتقبل الجنرال الأمر باستسلام فلسفى وقال :

• ان الخرافات أشد تعنتا من الحب •

وقال جوزيه بالاسيوس : من الغريب أن الحمى قد زالت عنك منذ الأمس ، وقد يكون هذا الطبيب ساحرا حقا •

لم يسعف النطق الجنرال على الفور ، وغرق فى تفكير عميق وهو يتأجج فى أرجوحته على ايقاع أفكاره ، ثم قال : « صحيح انى لم أعد أشعر بصداع ، وليس فى قمى مرارة ، ولا أشعر بأننى سأقع من فوق برج » ولكنه ربت على ركبته فى النهاية ، ونهض فى شىء من التصحيح وقال :

• كفافك بليلة لرأسى •

أتى خادمان بقدر كبير به ماء ساخن مملوء بأوراق معطرة - وأعد جوزيه بالاسيوس حمام الليل - معتقدا أن الجنرال سيأوى الى الفراش مبكرا بسبب تعب النهار - ولكن الماء برد بينما كان يملأ خطابا لجابرييل كاماشو ، زوج ابنة أخته فالنثينا بالاسيوس ووكيله المعتمد فى كاراكاس المكلف ببيع مناجم نحاس فى أروا ورثها عن أجداده ، ولم يبد عليه أن لديه أية فكرة واضحة عن مستقبل تلك المناجم لأنه قال فى أحد سطور تلك الرسالة انه ذاهب الى كيراساو فى حين أن

كومانشو يهتم بتلك العملية كل الاهتمام ، وطلب منه في سطر آخر أن يكتب اليه في لندن طرف سير روبرت ويلسون وأن يرسل صورة من خطابه الى مستر مكسويل هيسلوب في جامايكا حتى يتأكد من انه سيتلقى احدى الرسالتين اذا ما فقدت الأخرى .

كانت مناجم أروا بالنسبة للكثيرين ، وعلى الاخص بالنسبة لسكرتيريه تيهنا لنوبات الحمى فقد أولاها القليل من الاهتمام بحيث انها بقيت طوال سنوات في أيدي بعض المستغلين النفعيين ، وتذكرها في اخر أيامه عندما بدأ يفتقر الى النقود ، ولكنه لم يتمكن من بيعها لشركة انجليزية لان مستندات الملكية لم تكن واضحة - وكان ذلك بداية قضية معقدة وخرافية امتدت حتى بعد موته بسنتين . وفي وسط الحروب والمعارك السياسية والأحقاد الشخصية لم يكن هناك من يسيء الظن به عندما يسمعه يقول « قضيتي » ، اذ لم تكن هناك غير قضية أروا .

والرسالة التي أملاها في جوادياس لجابرييل كومانشو أوحث لابن أخيه أنهما لن يرحلا الى أوروبا طالما لا تحسم هذه القضية ، وقد علق فرناندو على ذلك فيما بعد وهو يلعب الورق مع الضباط وقال الكولونيل ويلسون عندئذ :
— اذن فلن نرحل أبدا . لقد بلغ الأمر بأبى الى حد أنه راح يتساءل اذا كان هذا النحاس موجودا حقا .

قال الكابتن اندريس ايبارا :

— اذا كان هناك من لم يره فلا يعنى هذا ان المناجم لا وجود لها .

قال الجنرال كارينو : بل هي موجودة ، في مقاطعة هنزويلا .

وقال ويلسون محنقا : أما أنا فأننى أتساءل اذا كانت
فنزويلا موجودة حقا .

لم يكن باستطاعته أن يخفى استياءه . فقد بلغ به الأمر
الى حد الاعتقاد بأن الجنرال لا يحبه ، وانه لا يبقيه فى
حاشيته الا اكراما لأبيه الذى لن يفیه حقه من الشكر ابدا
لدفاعة عن تحرير أميركا من البرلمان الانجليزى . وقد عرف
من تطفل ملازم فرنسى أن الجنرال قد قال : « ان ويلسون
بحاجة الى أن يقضى بعض الوقت فى مدرسة الصعوبات ، بل
فى مدرسة المعن والبؤس » ولم يستطع الكولونيل ويلسون
التحقق من صحة ذلك ، ولكنه اعتبر على كل حال ان معركة
واحدة من معاركه كانت من الكفاية لكى يشعر انه تخرج من
تلك المدارس الثلاث . كان عمره ستة وثلاثين عاما . ومرت
ثمانى سنوات منذ أن أرسله أبوه لخدمة الجنرال . بعد أن
أنهى دراسته فى وستمنستر وفى ساند هارست . كان ملازم
الجنرال فى معركة جونين ، وهو الذى حمل من شوكيزاكا
مسودة الدستور البوليفى على ظهر بغلة عبر طريق ساحلى
يمتد طوال ثلاثمائة وستين فرسغا . وقال له الجنرال
عندئذ انه يجب أن يكون فى لا باز بعد واحد وعشرين يوما
على الأكثر . وأدى ويلسون التحية العسكرية على أثر ذلك
وقال : « سأكون هناك بعد عشرين يوما يا صاحب الفخامة » .
ووصل الى لا باز بعد تسعة عشر يوما .

صمم أن يعود الى أوروبا مع الجنرال . ولكن كان كل يوم
يزيد اعتقاده بأن هذا الأخير سيجد دائما سببا مختلفا لكى
يؤجل رحيله . وحقيقة أنه تحدث مرة أخرى عن مناجم أروا
التي لم تعد مبررا لأى شىء منذ سنتين ، كانت بالنسبة
لويلسون دليلا محبطا .

كان جوزيه بالاسيوس قد سخن الماء بعد املاء الخطاب .
ولكن الجنرال لم يستحم ، وراح يدور فى الغرفة وهو ينشد

يصوت سمعه كل من فى البيت قصائد من وضعه كان جوزيه بالاسيوس يعرفها وحده - ثم أخذ يذرع الرواق عدة مرات ، حيث يلعب ضباطه الورق - وكان هو الآخر قد لعب معهم فيما سبق - وتوقف لحظة لكي ينظر الى اللعاب من فوق كتف كل منهم ويستنتج نتائج الشخصية عن سير اللعاب ثم تابع جولاته وهو يقول :

— لا أدري كيف تضيعون الوقت فى لعبة مملة كهذه -

ومع ذلك ، وبعد ذهاب وعودة بضع مرات ، لم يستطع مقاومة الاغراء ، وطلب من الملازم ايبارا أن يتخلي عن مكانه - كان بطبعه العدوانى وخسارته فى اللعاب لا يتمتع بصبر اللاعبين - ولكنه كان ذكيا وسريعا ويعرف كيف يتنازل الى مستوى مرؤوسيه - ولعب ستة أدوار مع الجنرال كارينو كشريك له ، وخسرهما كلها - وألقى الورق فوق المنضدة وقال :

— هذه لعبة ثانية - لنر الآن من الذى يجرؤ على أن يشاركنى لعبة « التريسيللا » ؟

وتحدوه ، وريح ثلاثة أدوار متتالية ، وتملكه المرح وحاول أن يستهزئ بطريقة الكولونيل ويلسون فى اللعاب - وتقبل ويلسون الأمر - ولكنه انتهز حماس الجنرال وغلبه - ولم يعد يخسر بعد ذلك - وتوتر الجنرال وامتقمت شفتاه وتصلبتا ، وغارت عيناه ، وارتسمت فيهما ضراوتهما السابقة ولم ينطق بكلمة ، ولكن منه سعال شديدة من التركيز - وأوقف اللعاب بعد منتصف الليل قائلا :

— لقد ضايقتنى الريح طوال الليل -

نقلوا المنضدة الى مكان بعيد عن تيارات الهواء ، ولكنه استمر يخسر ، وطلب أن يسكتوا الزمارين الذين تسمع

أصواتهم وهم يحتفلون عن كذب • ولكن المزامير ظلت تسمع
وهي تنطى على أصوات الصراصير • وغير مكانه ، وطلب
وسادة فوق مقعده لكي يعلو كثيرا ويحس بالراحة • واحتسى
قدحا من التليو الساخن خفف من سعاله بعض الشيء • ولعب
عدة أدوار وهو يمشى من أول الرواق الى آخره • ولكنه ظل
يخسر • وراح ويلسون يعدجه بعينييه الصافيتين الضاريتين،
بيد أن الجنرال لم يستطع مواجهته بعينييه قال :

— هذا الورق معلم •

قال ويلسون : ولكنه ورقك يا سيدى الجنرال •

كانت مجموعة الورق من مجموعاتة بالفعل ، ولكنه
فحصها مع ذلك ورقة ورقة ، وطلب تغييرها فى النهاية • ولم
يترك له ويلسون الوقت لكي يأخذ نفسه • وكفت الصراصير
عن صرصرتها ، وخيم صمت طويل لا يشوشه الا نسمة رطبة
حملت الى الرواق روائح الوادى الحادة • ثم ارتفع صياح
ديك ثلاث مرات ، وقال ايبارا : هذا الديك مجنون فالساعة
لم تتجاوز الثانية بعد • وقال الجنرال بصوت أمر دون أن
تفارق عيناه الورق : ليبق كل مكانه بحق الله •

لم يتنفس أحد • وكان الجنرال كارينو يتابع اللعب بقلق
أكثر منه اهتماما • وتذكر أطول ليلة مرت به فى حياته منذ
سنتين • بينما كانوا ينتظرون فى بوكارانجا نتائج مؤتمر
لوكانا ، فقد بدءوا يلعبون الورق فى الساعة التاسعة مساء
وفرغوا منه فى الحادية عشرة من صباح اليوم التالى ، لأن
شركاء الجنرال كانوا قد اتفقوا على أن يتركوه يكسب ثلاث
مباريات متتالية • وخشى الجنرال كارنو من تجربة
اضطرارية أخرى فأشار الى الكولونل ويلسون لكي يخسر •
ولكن الكولونل ويلسون لم يذعن ، وفيما بعد • عندما طلب
هذا الأخير استراحة لخمس دقائق ، تبعه الى الشرفة ، ووجده
يصب جام غضبه على أزهار الجيرانيوم • فقال له :

— كولونل ويلسون ، انتباه •

أجابه ويلسون دون أن يلتفت اليه :

— انتظر حتى أفرغ •

وفرغ دون أن يفقد هدوءه • ثم تحول وهو يزور
بنطلونه ، فقال له الكولونل كارينو : لابد أن تنخر ،
بالاعتبار الى صديق سييء الحظ •

قال ويلسون فى شىء من السخرية : اننى أرفض أن
ألحق أى أحد بمثل هذا العار •

قال كارينو : هذا أمر •

وقف ويلسون وهو على أتم الأهبة والاستعداد ، ونظر
اليه ، بدءا من قمة رأسه فى ازدراء ، ثم عاد الى المنضدة ،
وبدأ ينخر • وأدرك الجنرال الحقيقة وقال :

— وليس من الضرورى يا عزيزى ويلسون أن تنخر
بهذا السوء • ومهما يكن من أمر فإن من العدل أن نمضى
الى النوم •

وانصرف بعد أن شد على يد كل منهم بقوة كما كان
يفعل عندما يفادر المنضدة ليبدل على أن اللعب لم يغير
مشاعره ، وعاد الى غرفته • وكان جوزيه بالاسيوس قد رقد
على الأرض ، ولكنه أسرع بالنهوض عندما رآه يدخل •
ونضا الجنرال ثيابه عنه بكل سرعة وبدأ يتأرجح وهو عار
تماما فى أرجوحته ، ثائر الأعصاب • وكلما فكر أصبحت
أنفاسه أكثر صخباً وخشونة ، وعندما غطس فى البانيو كان
يرتعش بشدة ولكنه لم يكن يرتعش هذه المرة من الحمى أو
من البرد وإنما من الغيظ ، وقال :

ـ ان ويلسون وغد ـ

وأمضى ليلة من أسوأ لياليه - وخالف جوزيه بالاسيوس أوامره ، وأطلع الضباط لى يستدعوا طبيباً اذا افترس الأمر ، ودثره بغطاء لى يعرق فيه حمته - وبلل الكثير من الأغطية فى فترات مؤقتة من السكون ، كان ينتقل منها على الفور الى نوبات من الهلوسة ، ويصيح اكثر من مرة : « اسكت هذه المزامير بحق الله » ولكن لم يستطع أحد أن ينجده عندئذ لأن المزامير كانت قد سككت منذ منتصف الليل ووجد ، فيما بعد ، مذنباً لآلامه وتعبه بأن قال :

ـ كنت فى صحة جيدة قبل أن يثيروا أعصابى بهذا الهندى المجنون بالقمصان -

قطعوا المرحلة الأخيرة حتى هوندا على ساحل مخيف شى جو جليدى لا يمكن أن تتحمله الا عزيمة قوية كعزيمته . بعد ليلة من الاحتضار - وبدءاً من القراسخ الاولى ترك مكانه المادى لى يسير بجوار الكولونل ويلسون - وفسر هذا الأخير هذه الحركة على أنها دعوة لى ينسى اهانات مائدة اللعب ، وقدم له ذراعه لمساعدته - وهبطا المنحدر وهما على هذه الحال : الكولونل ويلسون متأثراً مراعاة له ، فى حين كان الجنرال يتنفس بكل صعوبة ولكنه متمالك لقواه فوق مطيته - وعندما اجتازا الممر الأكثر انحداراً ، قال يسال بصوت بدا كأنه خارج من القبر :

ـ كيف حال لندن ؟

نظر الكولونل ويلسون الى الشمس وهى تكاد تكون فى كبد السماء وقال :

ـ فى حال سيئة أيها الجنرال -

لم تبد الدهشة على هذا الأخير ، وانما عاد يسأل بنفس اللهجة :

— وماذا ؟

أجاب ويلسون : لأن الساعة هناك الآن السادسة مساء
وهي أسوأ ساعة في لندن ، ثم لأن مطرا قدرا وعنيفا يهطل
لأن فصل الربيع عندنا فظيع .

قال الجنرال : لا تقل لى انك تغلبت على الحنين .

قال ويلسون : بل على العكس . ان الحنين هو الذى
تغلب على لم أعد أبذل نحوه أية مقاومة .

— أتريد اذن أن تعود أم لا ؟

أجاب ويلسون : لا أدرى يا سيدى الجنرال ، فأنا تحت
رحمة قدر ليس بقدرى .

حدق الجنرال فى عينيه مباشرة وقال : أنا الذى كان
يجب أن يقول هذا .

وعندما تكلم من جديد تغير صوته ومزاجه وقال :

— لا تنزعج . سنمضى الى أوروبا مهما يحدث حتى ولو
لكى لا نحرم أباك من السرور برؤيتك .

ثم أردف بعد تفكير قصير :

— واسمح لى أن أقول لك شيئاً يا عزيزى ويلسون .
يمكن أن يقولوا عنك أى شيء فيما عدا انك وغد .

تراجع الكولونل ويلسون مرة أخرى . معتاداً على
عقوباته اللبقة ، خصوصاً بعد لعبة ورق صاخبة أو معركة
ظافرة . واستمر يتقدم ببطء واليد المحمومة لأكثر المرضى
الأمريكيين مجداً ممسكة بساعده بقوة فى حين بدأ الهواء
يسخن ، واضطرا أن يطردا الطيور الكثيبة التى تحلق فوق
رأسيهما كما يطردا الذباب .

وفى أشد المنحدرات وعورة التقيا بزمرة من الهنود
يقودون جماعة من المسافرين الأوروبيين فوق مقاعد معلقة

فى ظهورهم • وفجأة • قبل أن ينتهى المنحدر ، مر فارس
مسرعا فى جنون • فى نفس اتجاههم • كان يلبس قلنسوة
تغطى وجهه تقريبا • والفوضى التى بدت فى تعجله كانت
من الغرابة بحيث ان بغلة الكابتن ايارا أوشكت أن تهوى
من حالق الى الهوة • وتمكن الجنرال من أن يصيح به « توخ
الحذر بحق الله » • وظل يتابعه ببصره حتى اختفى فى اول
منحنى ، ولم يفارقه بعينيه كلما ظهر فى المنحنيات حتى بلغ
الساحل •

وفى الساعة الثانية من بعد الظهر اجتازوا قمة التل
الآخر • وفتتح الأفق على سهل مضيء تقبع فى نهايته ، فى
الخدر ، مدينة هوندا الشهيرة بجسرها العجبرى فوق النهر
الكبير الموحد ، وبأسوارها الخربة وبرج كنيسستها الذى اسلم
زلزال بقمته • وتأمل الجنرال الوادى الملهب ، ولكن أساريه
لم تنم عن أى انفعال فيما عدا عندما رأى الفارس ذا
القلنسوة الحمراء يجتاز فى نفس هذه اللحظة الجسر مسرعا
بجواده • وعندئذ عاد وحى الحلم الى ذهنه فقال :

— يا اله الفقراء • ان التفسير الوحيد لمثل هذه العجلة
هو أنه يحمل رسالة الى كاساندر تقول اننا رحلنا •

على الرغم من التوصية بعدم تنظيم مظاهرات عامة بمناسبة وصوله ، فقد اتجهت ذوكبة نشطة من الفرسان نحو الميناء لاستقباله . وجمع بوزادا جوتيريز ، المحافظ فرقة الموسيقى ، وكمية من البارود تكفى لاطلاق صواريخ لمدة ثلاثة أيام ، ولكن المطر أفسد الاحتفال قبل أن تبلغ الحاشية الشوارع التجارية . وكان سيلاً عارماً هطل قبل الآوان بعنف مدمر قلع بلاط الشوارع وأغرق الأحياء الفقيرة . ومع ذلك فقد بقيت الحرارة عنيفة هي الأخرى ، وفي فوضى المصافحات ، ردد بعضهم الحماقة الخالدة بأن قال : « الجو حار جداً بحيث يبيض الدجاج البيض برشت » . تجددت هذه الكارثة العادية دون تغيير ثلاثة أيام متتالية ، وأثناء القيلولة هبطت سحابة من الجبال ، واستقرت فوق المدينة ، وانثقت في طوفان فجائي . ثم تألقت الشمس في السماء الصافية بنفس قسوتها السابقة ، في حين راح عمال النظافة ينظفون الشوارع من الأنقاض التي خلفها الفيضان ، وبدأت سحابة الغد تتكون فوق الجبال ، وراحت الرياح تعصف بكل قوة في كل مكان .

تحمل الجنرال ، بمشقة كبيرة ، وهو واهن القوى ، الاستقبال الرسمي الذي قوبل به . وكان الهواء شديداً الحرارة في دار الحكومة ، ولكنه تخلص من الموقف بأن ألقى خطبة وجيزة في صوت فاطر دون أن ينهض من مقعده . وألقت طفلة في العاشرة من عمرها ، ترتدى ثوباً بدائرة من الإورجندى وله كمان أشبه بأجنحة الملائكة ، خطبة عن ظهر قلب تمجد بها الجنرال . وكانت متسرفة بحيث أوشكت أن تختنق . ولكنها أخطأت ، وعادت تبدأ من فقرة سيئة ،

وارتبت ، وراحت تحديق فيه بعينين مرعوبتين دون أن تدري
ماذا تفعل . وابتسم الجنرال لها متواطئاً ، وهمس فى صوت
خافت :

ووميض سيفه

هو الانعكاس الحاد لمجده

لم يكن الجنرال يضيع أبدا أية فرصة لاقامة مآدب كبيرة
وفخمة ، أثناء السنوات الأولى من حكمه . وكان يبحث مدعويه
على الأكل والشرب حتى الثمالة . ومن هذا الماضى السعيد
لم يبق له غير طقم من الشوك والسكاكين والملاعق معفور
عليها الحروف الأولى من اسمه ، كان جوزيه بالاسيوس يحملها
للولائم . وفى حفلة الاستقبال بهوندا ، رضى الجنرال أن
يتصدر المائدة . ولكنه لم يشرب غير كأس من النبيذ ، وتذوق
بالكاد حساء السلحفاه الذى قدموه تكريما له . وقد ترك له
مذاقا مريرا فى فمه .

وانسحب مبكرا ، ومضى الى المكان الذى أعده له
الكولونل بوزادا جويتيريز فى بيته بالذات ، ولكن عندما
عرف أنهم ينتظرون وصول ساعى البريد من سانتا فى صباح
الغد تبخر القليل من النوم المتبقى له . وراح يفكر فى
مصائبه ، وهو فريسة للقلق بعد الأيام الثلاثة التى قضاها
فى راحة واستجمام . وطفق يزعج جوزيه بالاسيوس باسئلته
الملحة . كان يريد أن يعرف ماذا حدث منذ أن رحل . وكيف
أصبحت المدينة بحكومة غير حكومته ، وكيف غدت الحيساسة
بدونه . وذات يوم قال فى حزن : ان أمريكا ، نصف الكرة
الأرضية قد أصبحت مجنونة . . وقد كان لديه فى تلك الليلة
الأولى التى قضاها فى هوندا أكثر من سبب لكى يعتقد ذلك .

لم يطبق عينا ، تعذبه لسمات الناموس ، لانه رفض ان يرقد تحت ناموسية ، كان يمشى تارة جيئة وذهابا وهو يحدث نفسه فى الغرفة ، وتارة يتارجح بشدة فى ارجوحته . وتارة أخرى يلتف بالغطاء ويستسلم للحمى وهو يهذى فى صوت مسموع . فى مستنقع من العرق - وعنى جوزيه بالاسيوس به - مجيبا على أسئلته - يخبره فى كل لحظة عن الوقت بالساعة والدقيقة دون أن يحتاج الى النظر فى ساعتي الجيب اللتين يحتفظ بهما فى جيب صدره - وراح يهز الأرجوحة عندما لم يعد الجنرال يجد القوة لكى يفعل ذلك - ويطرد الناموس بخرقه حتى استطاع أن ينيمه أكثر من ساعة - ولكنه استيقظ مذعورا قبيل الفجر وهو يسمع صوت دواب ورجال فى الحديقة ، وخرج بقميص النوم لكى يستقبل ساعى البريد .

كان يوجد فى نفس القافلة الشاب أوجستين دى ايتورييد ملازمه المكسيكى . وكان قد تأخر فى سانتا فى ، فى آخر لحظة . عن القدوم - وكان معه رسالة من المارشال سوكريه . يبدى فيها أسفه العميق لأنه لم يتمكن من الحضور فى الوقت المناسب لكى يودعه - وكان هناك ، فى البريد أيضا ، رسالة كتبها الرئيس كاي سيدو قبل ذلك بيومين - ودخل الحاكم بوزاد جوتيريز الغرفة بعد قليل ، فطلب منه الجنرال أن يقرأ له الرسالتين لأن النور كان لا يزال ضعيفا بالنسبة لعينيه .

قالت الأخبار ان الجو كان جميلا فى سانتا فى يوم الأحد الماضى . واختلفت أسر عديدة الى المراعى والحدائق ومعهم سلات ملأى بخنازير صغيرة مشوية ولجم بقرى مشوى هو الآخر ، وطواجن أرز ، وبطاطس بالجبن المذابة - وتناولوا الطعام فوق العشب ، تحت شمس ساطعة لم يروا مثلها منذ أوقات الضجيج ، وقد بددت معجزة مايو تلك انفعال يوم السبت ، وعاد طلبة كلية سان بارثولوميو الى مرحهم فى

الشوارع ، وقاموا بتمثيل بعض المشاهد الرمزية . ولديهم
لم يجدوا لها أى صدى عند المتجهرين . واذ لم يعرفوا عندئذ
ماذا يفعلون تشتتوا قبل هبوط الليل - واستبدلوا ، فى يوم
الآحد ، بنادقهم بقيثارات ، وراحوا يعزفون بين الناس الذين
يتشمسون ، فى الحدائق ، ثم ، ودون أى توقع ، عاد المطر
يهطل فى الساعة الخامسة ، وأنهى الحفلة -

قطع بوزادا جوتيريز قراءته وقال للجنرال :

- لم يعد هناك فى العالم ما يمكن أن يلوث مجدك . ولهم
ان يقولوا ما يشاءون ، فستبقى فخامتك أعظم الكولومبيين ،
حتى فى أرجاء الأرض قاطبة .

قال الجنرال : لا أشك فى ذلك ، اذا كان لابد ان اذهب
لكى تعود الشمس وتشرق .

كان الشيء الوحيد الذى أثار سخطه فى الرسالة هو ان
رئيس الجمهورية بنفسه اخطأ بأن وصف انصار سانتاندر
بأنهم ليبراليون ، كما لو أن هذه الصفة أصبحت رسمية
وقال : لا أدري كيف أجاز الديماجوجيون أن يصفوا أنفسهم
بأنهم ليبراليون - انهم سرقوا الكلمة ، لا أكثر ولا أقل . كما
يسرقون كل ما يقع تحت أيديهم - ووثب من أرجوحته ،
واستمر ينم عما فى قلبه أمام الحاكم ، وهو يذرع الغرفة
جئة وذهابا بخطواته العسكرية الواسعة - وقال أخيرا :

- الحقيقة أنه ليس هنا الا الحزب الذى معى وانحزب
الذى ضدى ، وأنت تعرف ذلك خيرا من أى شخص آخر .
ورغم أنهم لا يصدقون ذلك فليس هناك من هو أكثر منى
ليبرالية .

وحمل مبعوث خاص للحاكم بعد قليل رسالة تقول ان
مانويل ساينز لم تستطع أن تكتب اليه لأن المشرفين على

البريد لديهم تعليمات تعسفية بعدم قبول رسائلها - وقد أوفدت مانويلا بنفسها الرسول وبعثت في نفس اليوم الى نائب الرئيس رسالة تحتج فيها على ذلك الحظر . وهى اول رسالة من سلسلة من التحديات المشتركة كان لابد لها أن تنتهى بنفيها ونسيانها - ومع ذلك ، وعلى ما كان يتوقع بوزادا جوتيريز ، الذى يعرف عن كثب عثرات هذا الحب المعذب فان الجنرال ابتسم ازاء هذا الخبر وقال :

— هذه المصادمات هى جزء من طبيعة مجنونتى الرقيقة .

لم يخف جوريه بالاسيوس استيائه ازاء قلة الاعتبار الذى رتب به أيام هوندا الثلاثة ، فأكثر الدعوات دهشة كانت نزهة حتى مناجم الفضة بساننا أنا ، على بعد ستة فراسخ من المدينة - ولكن دهشته ازدادت ازاء موافقة الجنرال . وازدادت أكثر عندما هبط داخل المنجم ، ولكن كان هناك ما هو أسوأ . ففى أثناء العودة ، ورغم حمى مرتفعة ، ورغم ان رأسه أوشكت على الانفجار بسبب صداد ، سبح فى بقعة مائية بنهر هادىء - كانت الأيام بعيدة ، تلك التى كان يراها فيها عن قدرته فى اجتياز سيل ويده مقيدة ويسبق أسرع السباحين - ومهما يكن فقد سبح نصف ساعة دون أى تعب - ولكن أولئك الذين رأوا جسده الهزيل وساقيه الكسيتين لم يفهموا كيف يستطيع البقاء حيا هكذا بهذا الجسم الضامر .

قدمت البلدية ، فى الليلة الأخيرة ، تكريما له ، حفلة راقصة اعتذر عن عدم استطاعته حضورها بسبب تعب من الرحلة - وانفرد فى غرفته ، وأمل على قرناندو على الجنرال دومينجو كاي سيدو - واستمع الى قراءة صفحات كثيرة من مغامرات ليما الغرامية ، وكان هو البطل لبعض تلك المغامرات ، ثم أخذ حماما دافئا ، وبقي ساكنا فى أرجوحته ، يستمع الى صخب موسيقى الحفلة الراقصة

التي اقيمت تكريما له . وحسبه جوزيه بالاسيوس نائما .
ولكنه لم يلبث أن سمعه يقول :

ـ هل تتذكر هذه الرقصة ؟

وراح يصفر بوضع نغمات ليحيى الموسيقى فى ذاكرة
خادمه . ولكن هذا الأخير لم يعرفها فقال : هذه موسيقى
الفالس التي عزفوها اثنى من مرة ليلة ان بلغنا ليما عند
قدومنا من شوكيزاكا . ولم يتذكرها جوزيه بالاسيوس
ولكنه لم يستطع أن ينسى أبدا ليلة المجد فى الثامن
من فبراير سنة ١٨٢٦ ، فقد قدمت ليما لهم فى
ذلك الصباح حفلة ملكية القى الجنرال خلالها عبارة
راح يرددها باستمرار عند كل نخب يشربونه : لم يعد
هناك ، حتى امتداد بيرو الشاسع « ولا اسبانى واحد » وقد
ختم فى ذلك اليوم استقلال القارة الكبيرة التي انتوى أن
يبدلها ، طبقا لأقواله بالذات الى دولة من أكثر الدول الأكثر
اتساعا أو الأكثر استغرابا أو الأكثر قوة تواجدت على الأرض
حتى اليوم . وارتبطت انفعالات العيد فى ذاكرته بالفالس
الذى أعاده عدة مرات أكثر مما يجب حتى لا تكون هناك سيدة
واحدة فى ليما لم ترقص معه . وقد حذا ضباطه حذوه وهم
يرتدون أزهى الثياب التي لم ير أحد مثلها فى المدينة .
بقدر ما سمحت لهم قواهم لأنهم كانوا جميعا راقصين بارعين ،
وستبقى تلك الذكرى ماثلة فى قلوب زميلاتهم الى وقت طويل
أكثر من بقاء ذكرى الحروب المجيدة .

وافتحوا العيد فى الليلة الأخيرة فى هوندا برقصة
النصر ، وانتظر فى أرجوحته أن يعيدوها . ولكن ، عندما
لم يحدث ذلك نهض فجأة ، وارتدى ثياب الركوب التي لبسها
فى الذهاب الى مناجم سانتا آنا ، وحضر الحفلة ، دون أن
يعلم أحدا بذلك . ورقص ثلاث ساعات تقريبا ، وهو يكرر
الرقصة كل مرة يغير فيها الراقصة ، محاولا ، ربما إعادة

امجاد الماضى برماد حنينه ، فقد كانت سنوات الحلم ، حيث كان الجميع يقرون بالتعب والارهاق، فى حين كان هو وحده يستمر فى الرقص حتى الفجر مع آخر امرأة فى الصالون . كانت تلك السنون خلفه دائما ، لأن الرقص كان بالنسبة له نقطة مسيطرة عليه الى حد انه كان يرقص بمفرده اذا لم يجد من تزامنله ، او يرقص وحده على أنغام الموسيقى التى يدندن بها بين أسنانه ، ويعبر عن سروره العظيم وهو يرقص فوق مائدة صالة الطعام . فى تلك الليلة الأخيرة بهوندا وهنت قواه الى حد انه كان لا يد له ان يستريح أثناء الاستراحات وهو يستنشق أبخرة منديل مبلل بماء الكولونيا، ولكنه رقص بكل حمية ورباطة جأش لا تبدو الا من الشباب ، وأنهى ، دون أن يقصد ، الشائعات التى تقول انه مصاب بمرض خبيث .

وعندما عاد الى البيت ، قبيل الليل ، أبلغوه أن امرأة تنتظره فى الصالون . كانت أنيقة ومتكبرة . يفوح منها شذا ربيعى . وترتدى ثوبا من المخمل ، طويل الكمين ، وحذاء لركوب الخيل من أرقى أنواع الجلد ، وقبعة أنيقة بخمار من الحرير . . . وحياتها الجنرال بالنعناء مهذبة . وقد أحس بالحيرة بالنسبة للساعة ولطريقة الزيارة ، وبدون أن تنطق بكلمة رفعت عند عينيها حلية تتدلى من عنقها فى آخر سلسلة ، عرفها وقال مشدوها :

— ميراندا لندساي ؟

قالت : هى أنا ، رغم أنني لم أعد نفس المرأة .

جدد فيه صوتها الرزين والدافئ والأشبه بأنغام الكمان والذى تشوشه بالكاد لكثة خفيفة من اللغة الانجليزية ذكريات لا مثيل لها . وبحركة من يده صرف الحارس الذى يقوم بالحراسة أمام الباب ، وجلس أمامها تقريبا ، قريبا جدا بحيث تلامست ركبتهما تقريبا ، وأخذ يديها .

كانا قد تعارفا قبل ذلك بخمس عشرة سنة فى كنجستون .
حيث كان يقضى مدة نفيه الثانية ، فى غداء متوقع فى بيت
تاجر انجليزى يدعى ماكسويل هيسلوب ، وكانت الابنة
الوحيدة لسير لندن هيسلوب ، وهو دبلوماسى انجليزى اعتزل
فى مصنع للسكر فى جمايكا لكى يكتب مذكرات فى سسة
أجزاء لن يقرأها أحد أبدا . ورغم جمالها الباهر ، وقلب
المنفى الشاب البسيط ، أحس هذا الأخير بأنه غارق جدا فى
أحلامه ، وأنه مرتبط بامرأة أخرى بحيث لا يمكن لأحد أن
يثير اهتمامه .

وسوف تتذكره دائما كرجل شاحب وأشبه بالهيكل .
كان يبدو أنه أكبر بكثير من سنه الاثنتين والثلاثين ، بسالفه
الخشنين هما وشاربه ، وشعره الطويل حتى الكتفين . كان
يرتدى ثيابه على الطريقة الانجليزية . كغيره من الشبان
المولدين الارستقراطيين ، برباط عنق أبيض وسترة سميقة
جدا نظرا للمناخ ، ويضع فى عروة جاكته زهرة جردينيا ،
كما يفعل الرومانسيون ، وقد حسبتة إحدى العاهرات
المستهترات وهو بزيه ذاك ، فى سنة ١٨١٠ لوطيا يونانيا
ينتمى الى ماخور بلندن .

كان أكثر ما تتذكره بيراندا لندساي ، سواء أكان خيرا
أم شرا ، هو نظراته المتوهمة ، وحديثه الذى لا ينضب والمرهق
صوته المتشنج . وأغرب شيء هو انه كان يبقى عينيه
منخفضتين ، ويسترعى انتباه المدعويين دون أن ينظر اليهم
، واجهة . وكان يتكلم بايقاع وأسلوب أهالى جذر الكناريا ،
ولهجة أهالى مدريد المنقفين . وكان يخلطها فى ذلك اليوم
بانجليزية ابتدائية ، ولكنها مفهومة ، تكريما لاثنين من
المدعويين لا يفهمان القشتالية .

ولم يبد أثناء الغداء الاهتمام بأى شيء فيما عدا أوهامه ،
وتكلم بلا انشغال بأسلوب بليغ وخطابى . مطلقا عبارات

تنبؤية لا تزال تفتقر الى ملاحظتها . ظهر أغلبها بعد ذلك
بأيام في جريدة كنجستون . وخلدها التاريخ كرسالة من
جاميكا قال فيها : « لم يسقنا الاسبان الى العبودية . !نما عدم
وحدثنا بالذات هي التي عادت بنا فسافتنا من جديد » .
وتحدث عن عظمة أميركا ومواردها ومواهبها فقال أكثر من
مرة : « نحن نوع صغير من البشر » . وعندما عادت ميراندا
سألها أبوها كيف رأت هذا المتآمر الذي طالما أثار العملاء
الاسبان في الجزيرة . وردت عليه بعبارة واحدة وهي :

« انه يشعر انه بونابرت » .

وبعد بضعة أيام ، تلقى رسالة غربية تتضمن تعليمات
دقيقة ، لكي ينضم اليها في الساعة التاسعة من مساء السبت
التالى ، وحده ، وراجلا ، في مكان غير مأهول . كان هذا
التحدى يضع حياته ومصير أميركا في خطر لأنه كان الملاذ
الوحيد لتمرد لم يلبث أن سحق . فبعد خمس سنوات من
الاستقلال غير المستقر لم تستطع أراضى ردافة غرناطة
الجديدة ، ولا مقاطعة فنزويلا العامة مقاومة الحملات
الضارية للجنرال باولو موريللو الملقب « بمحمد الفتن »
واستولت اسبانيا عليهما من جديد . وقد استبعدت القيادة
العليا للوطنيين بفضل القاعدة البسيطة بشنق جميع الذين
يعرفون القراءة .

كان هو . من جيل المولدين البيض المثقفين الذين زرعوا
بذرة الاستقلال من المكسيك حتى ريو دى لابلاتا أكثرهم
اقتناعا ، وتصلبا ، وبصيرة ، وخير من يوفق بين العبقريتين
السياسية والبدئية في الحرب . كان قد اكترى بيتا من
غرفتين يعيش فيه مع مساعديه العسكريين ، واثنين من العبيد
الشبان القدماء بقيا في خدمته بعد عتقهما وجوزيه
بالاسيوس . أن يفر على قدميه لكي يمضى الى موعد مريب .
ليل . ودون حراسة . كان أكثر من مجازفة لا طائل منها

وخبل تاريخي ، ومع ذلك ، ورغم حبه لحياته وقضيته لم يكن هناك ما يشد اهتمامه أكثر من لغز امرأة جميلة -

كانت ميراندا تنتظره فوق صهوة جوادها في المكان المتوقع ، وحدها هي الأخرى - واركبته خلفها ومضت به هي طريق خفي - وكان الجو يندر بالمطر ، ودوى فوق البحر برق ورعد بعيدان ، وعرقلت بعض الكلاب قوائم الجواد وهي تنبح في الظلام ، ولكنها أبعدتهم وهي تهمس بدلمات رقيقة باللغة الانجليزية - ومرا بالقرب من مصنع السكر - حيث يعكف سير لندن ليندساي على كتابة مذكراته التي لن يتذكرها أحد غيره - واجتازا مخاضة حجرية لنهر ، وولجا غابة من الصنوبر في الناحية الأخرى ، في آخرها صومعة مهجورة - وهبطا عن الجواد ، وقادته من يده خلال المصلى المظلم حتى غرفة الأمتعة المقدسة التي يكاد يبدد ظلامها مشعل بالحائط ، وليس بها من الأثاث غير جذعي شجرة منحوتين بضربات فأس - وعندئذ فقط رأى كل منهما وجه الآخر - لم يكن يرتدي غير القميص ، ويربط شعره خلف رأسه بشريط كذيل الحصان ، ووجدته ميراندا أكثر فتوة وجاذبية عما كان أثناء الغداء -

- لم يقم بأية مبادرة ، لأن طريقته في الاغواء لا تخضع لأية قاعدة ، فكل حالة ، وعلى الأخص الخطوة الأولى ، تختلف - وقد قال : « في تمهيدات الحب لا يمكن اصلاح أي خطأ » وكان لابد له هذه المرة من أن يعترف بأن كل العقبات قد ذلت مسبقا ، لأنها هي التي كانت قد اتخذت القرار -

ولكنه أخطأ ، فقد كانت ميراندا ، فضلا عن جمالها ، تملك وقارا من الصعب تجنبه ، ومر بعض الوقت قبل أن يفهم أنه يجب ، هذه المرة أيضا أن يأخذ المبادرة - وكانت قد دعتة الى الجلوس - وجلسا كما يجب أن يجلسا بعد خمسة

عثر عابا فى هوندا . كل منهما أمام الآخر ، فوق الجذعين المنحوتين . وقريبين جدا بحيث تلامست ركبتهما تقريبا . وأمسك بيديها وجذبيها نحوه ، وحاول أن يقبلها . وتركته يقترب حتى أحست بحرارة أنفاسه ، ثم أقصت وجهها وهى تقول :

— كل شيء فى وقته •

ووضعت نفس العبارة نهاية للمحاولات المتكررة التى قام بها بعد ذلك • وفى نحو منتصف الليل ، عندما بدأ المطر يتسرب من كوات السطح كانا ما يزالان جالسين ، أحدهما أمام الآخر . ممسكى الأيدي بينما كان يستظهر إحدى قصائده التى نظمها فى الأيام الأخيرة • كانت قصيدة ثمانية موزونة ومنتظمة القوافى ، تمتزج فيها المجاملات الغرامية وامجاد الحرب • وتأثرت ، وذكرت ثلاثة أسماء محاولة أن تعرف اسم المؤلف ، ولكنه قال :

— انها من وضع أحد العسكريين •

سألته : أعسرى من عساكر الحرب أم من عساكر الصالونات ؟ •

قال : من الاثنين • وهو أعظم العسكريين الذين وجدوا حتى الآن •

وتذكرت ما قالته لأبيها ، بعد الغداء ، فى بيت هيسلوب ، فقالت :

— لا يمكن أن تكون إحدى قصائد بونابرت •

قال الجنرال : تقريبا • ولكن الفارق الأدبى كبير جدا بحيث ان مؤلف هذه القصيدة لم يسمح بأن يتوجوه •

وبمرور السنين ، وكلما جاءتها أخباره . كانت تتساءل
بدهشة متزايدة اذا كان قد وعى اذا كانت تلك المزحة تجسيدا
لمصيره . ولكنها ، فى تلك الليلة ، لم تشك فى ذلك حتى وهى
تحاول ان تنجز وحدها المستحيل تقريبا بأن تبقيه دون ان
تجرح شعوره . ودون أن تستسلم لهجماتة التى غدت أكثر
العاحا كلما اقترب الفجر . سمحت له ببعض القبلات
المفاجئة ولكن لا أكثر من ذلك . وهى تقول له :

— كل شيء فى وقته •

قال : اننى سأرحل الى الابد فى الساعة الثالثة من بعد
ظهر الغد على الباخرة هايتى •

ردت على خبيثه قائلة : بادىء ذى بدء ، لن ترحل بالبحرة
قبل يوم الجمعة ، والأخير من ذلك انك طلبت من مدام تورنر
أن تعد فطيرة من أجل العشاء الذى ستتناوله الليلة مع المرأة
التي تكرهنى كل الكراهية •

كانت المرأة التي تكرهها كل الكراهية تدعى جوليا كوبر ،
وهى من أهالى الدومينيكا ، جميلة وثرية ، منفية هى الأخرى
فى جامايكا ، وقد قيل أكثر من مرة انه قضى أكثر من ليلة
عندها وكانا سيحتفلان الليلة بعيد ميلاده . وحدهما •

وقال :

— انت تعرفين عنى أكثر مما يعرفه جواسيسى •

— ولماذا لا ينظر لك بالأحرى أننى من جواسيسك ؟ •

ولم يفهم هذه العبارة الا فى الساعة السادسة صباحا .
عندما عاد الى بيته ووجد صديقه فليكس أميستوى ميتا
وغارقا فى دمه فى أرجوحته هو بالذات حيث كان يجب أن
ينام لولا ذلك الموعد الغرامى الزائف • غلب النوم فليكس
أميستوى بينما كان ينتظر عودة صديقه ليبلغه رسالة عاجلة ،

وقتل أحد الخادمين المحررين . بتعريض من الاسبان
وطعته احدى عشرة طعنة ، معتقدا انه سيده . وكانت ميراندا
على علم بمؤامرة الاغتيال ولم تجد آمن من هذه اللحظة
لاحباطها . وحاول أن يشكرها شخصيا ولكنها لم ترد على
رسائله . قبل أن يرحل الى بورت او برنس فوق سفينة
قراصنة أرسل اليها مع جوزيه بالاسبوس الحلية النفيسة
التي ورثها عن أمه مع رسالة من سطر واحد تقول :

« مقرر لي ان ألقى مصيرا مسرحيا » .

لم تنس ميراندا ابدا . ولم تفهم تلك العبارة المستغلقة
للمجندي الشاب الذي عاد خلال السنوات التالية الى بده
بفضل مساعدة رئيس جمهورية هايتي الحرة ، الجنرال
الكستدر بريون ، واجتاز الانديز بفرقة من الجنود الحسة
من أهالي السهول ، وهزم الجيوش الملكية على جسر بويكا ،
وحرر للمرة الثانية والى الأبد غرناطة الجديدة ثم فنزويلا
مسقط رأسه ، واخيرا اراضى الجنوب الوعرة حتى حدود
الامبراطورية البرازيلية ، وتتبع أخباره ، خصوصا بفضل
قصص المسافرين الذين لا يكلون أبدا من رواية أعماله
الباهرة . واذ تحررت المستعمرات الاسبانية القديمة تزوجت
ميراندا مهندسا لم يلبث أن غير مهنته واستقر في غرناطة
الجديدة لكي يزرع قصب السكر الذي أتى به من جمايكا .
وقد كانت هناك عندما علمت أن صديقها القديم ، الذي كان
منفيا في كنجستون . على بعد ثلاثة فراسخ من بيتها ، لكنها
وصلت الى المناجم بعد أن شرع الجنرال في المسير الى هوندا ،
واضطرت الى أن تنطلق فوق صهوة جوادها نصف النهار لكي
تلتحق به .

وما كانت لتعرفه في الشارع ، بدون سالفه وشاربه
الفتى وبشعره القليل الذي ابيض وبمظهره المهمل بحيث
خيل اليها أنها تخاطب ميتا . وكان قد خطر لها أن ترفع

حجابها لكي تتحدث اليه ، ولكنها خشيت أن يتعرف عليها
أحد في الشارع ، ثم ان الخوف من أن يرى هو الآخر أضرار
الزمن على وجهها منعها من ذلك . وما أن فرغت من الاجراءات
الشكلية حتى مضت الى الهدف رأسا فقالت :

ـ أتيت أسألك معروفا .

أجاب : كلى لك .

ـ والد أبنائى الخمسة يقضى عقوبة طويلة لأنه قتل
رجلا .

ـ فى معركة شريفة ؟

قالت : فى مبارزة صريحة .

وأردفت تقول على الفور : بسبب الغيرة .

قال : لا أساس لها من الصحة طبعاً .

أجابته : بل لها أساس .

ولكن كل شيء الآن أصبح طى الماضى ، وكذلك بالنسبة
له . والشئ الوحيد الذى تطلبه منه عن محبة هو أن يستخدم
نفوذه لوضع حد لجبس زوجها . ولم يسمعه الا أن يقول
الحقيقة :

ـ اننى مريض ولا حظوة لى كما تريين . ولكن ليس
هناك فى العالم ما يمنعنى من أن أرضيك .

واستدعى الكابتن أيبارا لكي يدون مذكرة بالموضوع .
ووعده بأن يبذل كل ما فى مقدوره رغم تجرده من حقوقه
لاعفاء زوجها من عقوبته . وفى نفس الليلة تبادل بعض
الآراء مع الجنرال بوزادا جوتيريز ، تحت كل التحفظات .
ودون أن يترك آثارا مكتوبة ، ولكن بقى كل شيء معلقا

لأنه كان لابد من انتظار طبيعة الحكومة الجديدة - ورائق
ميراندا حتى باب البيت حيث تنتظرها فرقة حراسة من ستة
من العبيد المحررين وودعها وهو يطبع قبلة على يدها فقالت :

ـ لقد كانت ليلة كلها سعادة •

ـ هذه الليلة أم الأخرى ؟

اجابت : الاثنتان •

وامتطت جوادا غير الذى جاءت به ، نشطا ومسرجا
كجواد نائب الملك ، وانطلقت بسرعة من غير أن تلتفت لكى
تنظر اليه - وانتظر أمام الباب حتى غابت عن عينيه ، ولكنه
كان ما يزال يراها فى مخيلته عندما أيقظه جوزيه بالاسيوس
مبكرا فى الصباح لكى يبدأ الرحلة عبر البحر •

كان قد منح امتيازاً خاصاً للكومودور جيان ب • البيرس
قبل ذلك بسبع سنوات لافتتاح الملاحة بالبخار ، وأبحر هو
نفسه فى طريقه الى أوكانا على إحدى هذه البواخر بين
بارانكا نيوكا وبويرتوريال ، وتم الاتفاق على أن هذه طريقة
عملية ومأمونة للسفر - ومع ذلك ، فإن الكومودور البيرس
اعتبر ان المسألة لن تكون لها قيمة اذا لم تتمتع وتستند الى
امتياز قاصر عليه وحده - ومنحه الجترال سائناندر هذا
الامتياز دون أى قيد عندما اضطلع بأعباء الرئيس - ولكن
بعد ذلك بستين ، بعد أن ولاه المجلس القومى جميع السلطات ،
ألغى ذلك الامتياز باحدى عباراته التنبؤية قائلا : اذا تركنا
الاحتكار للألمانين فسوف ينتهى بنا الأمر الى منحه للولايات
المتحدة - وبعد ذلك جعل الملاحة حرة فى جميع البلاد ، بحيث
انه عندما أراد الحصول على باخرة فى حالة ما اذا اتخذ قراره
بالرحيل واجهته مماطلات وتسويات كانت أشبه بالانتقام ،
واضطر الى أن يقنع عند رحيله بزورق يسير بالمجداف •

اكتظ الميناء بالناس منذ الخامسة صباحا ، ما بين راجل وراكب جواد ، جمعهم المحافظ على عجل من التجوع المجاورة لتصنع وداعات كالوداعات السابقة ، وراحت تطوف حول الميناء زوارق محملة بنساء مرحات كن يغرين جنود السرس بصيحات ماجنة ، وكانوا يرددون عليهن عبارات بذينة - ووصل الجنرال فى الساعة السادسة يرافقه الوفد الرسمى - كان قد أقبل راجلا من بيت المحافظ ، فى خطى بطيئة ، وهو يضع فوق فمه منديلا مبللا بماء الكولونيا -

كان اليوم يبدو مضجبا ، وقد فتحت محلات شارع التجارة أبوابها منذ الصباح ، وعرضت بعضها بضائعها تقريبا فى مهب الرياح ، بين انقاض البيوت التى مازالت خربة بسبب زلزال وقع منذ عشرين سنة - وكان الجنرال يرد بمنديله على الذين يحيونه من النوافذ ، ولكنهم كانوا أقل المودعين لأن الآخرين كانوا ينظرون اليه فى صمت وهو يمر ، مشدوهين من سحنه السيئة - كان يرتدى قميصا ويحتذى بجزمته الوحيدة ، ويضع على رأسه قبعة من القش الأبيض - ووقف الكاهن على مقعد ، فى ساحة الكنيسة وهم بأن يلقى خطبة ولكن الجنرال كارينو منعه ، واقترب الجنرال منه وشد على يده -

وما أن بلغ ناصية الشارع حتى أدرك من نظرة واحدة أنه لن يستطيع ارتقاء المنحدر ، ولكنه بدأ يصعده وهو ممسك بذراع الجنرال كارينو حتى اتضح له أنه لن يستطيع ذلك بعد - وحاولوا اقناعه عندئذ بالجلوس فوق مقعد أحضره بوزادا جوتيريز لكى يحملوه عند الحاجة ولكنه قال مرعوبا :

- كلا يا جنرال - أرجوك - جنبنى هذه الالهانة -

وصل الى القمة بفضل قوة ارادته أكثر منها بقوة جسده ، وكان من الشجاعة كذلك بأن هبط حتى الميناء دون

مساعدة - وهناك ، ودع كل شخص من الوفد بمباراة مجاملة .
وإن يتكلف الابتسام لكي لا يلاحظوا أنه ، في ذلك اليوم
الخامس عشر من مايو المزهري لا يقوم برحلة العودة الى العدم .
قدم ميدالية من الذهب محفور صورته عليها هدية للجنرال
بوزادا جوتييريز ، وشكره على كرمه بصوت مرتفع لكي
يسمعه الجميع ، وعانقه بتأثر حقيقي - ثم ظهر في مؤخرة
الزورق ، ملوحا بقبعته في حركة وداع دون أن ينظر الى
أحد بين الحشد الذي يقول له وداعا ، بدعا من الشاطئ ،
ودون أن يرى فوضى الزوارق في البحر ، ولا الأطفال الذين
يسبحون حولها كالسردين - واستمر يهز قبعته نحو مكان
واحد في غير اهتمام ، حتى لم يعد يرى غير قمة برج الكنيسة
المتهدم ، وعندئذ انزلق تحت سقيفة الزورق ، وجلس في
الارجوحة ومدد ساقيه حتى يستطيع جوزه بالاسيوس . أن
يخلع له جزمته ، وقال : سوف نرى الآن اذا كانوا سيصدقون
أننا راحلون أم لا -

كان الأسطول مكونا من ثمانية زوارق مختلفة الأحجام ،
ومن زورق خاص له هو وحاشيته ومن موجه السكان وثمانية
من المجدفين يحركونه برافعات سمكية من الخشب - وبخلاف
الزوارق العادية التي تتوسطها غرفة من سقف النخل لوضع
الحمولة ، كان بذلك الزورق سقيفة من الجوخ يمكن تثبيت
الرجوحة تحت ظلها ، وكانت مكسوة من الداخل بنسيج
هندي ، ومفروشة بالحصر ، وقد شقت فيها أربع نوافذ لزيادة
التهوية والنور ، ووضعوا له فيها منضدة صغيرة للكتابة أو
للعب الورق ، ورفا للكتب ، وجرة للماء بها مرشح حجري .
واختير المسئول عن الأسطول مع بين أفضل الملاحين ، ويدعى
كازيلو سانتوس ، وكان فيما سبق قائد كتيبة من رماة
الحرس وله صوت مدو ويضع عصا قرصان على عينه
اليسرى ، وله دراية كبيرة بالقيادة -

وجان مايو. اول الشهور المناسبة لسمن الحومودور
البيرس . ولدن الشهور المناسبة لم تدن افضل الشهور بالنسبة
للزوارق . فالحرارة القاتلة والعواصف الشديدة والنيارات
الغادرة ، وتهديد الوحوش والحيوانات المؤذية اتناء الليل .
كان حل ذلك يبدو انه يتامر ضد راحة المسافرين ، و كانت
نتانة قطع اللحم والسمك المدخن المعلقة خطأ في التسقيفه
الأمامية لزورق الرئيس . عذابا اضافيا لكل شخص معتل
الصحة . وامر الجنرال بنقلها بمجرد ان وقع بصره عليها .
وعندما أدرك الربان سانتوس ان الجنرال لن يستطيع تحمل
رائحة الطعام أمر بنقله الى آخر الأسطول ، في زوق التموين
الذى يحمل الدجاج والخنازير الحية . ومع ذلك ، ومن اول
يوم للرحلة . وبعد أن تناول بشهية كبيرة طبقين متتاليين من
عصيدة الذرة صرح بأنه لن يأكل شيئا آخر طوال بقية الرحلة .
وقال : يبدو أن هذا من صنع الطاهية الكيثونية فرناندا
سبتيما .

وكان هذا حقا فان الطاهية فرناندا باريجا التى يدعوها
فرناندا سبتيما كانت موجودة معهم دون أن يعلم . كانت
هندية هادئة وبدينة ، ذلقة اللسان ، موهبتها الكبيرة لم تكن
فى تنبيلها الطعام وانما فى غريزتها لارضاء شهية الجنرال .
وكان قد قرر أن تبقى فى سانتا فى مع مانويلا ساينز التى
ألحقتها بخدمتها . ولكن الجنرال كارينو استدعاها دون ابطاء
من جوادياس بعد أن أخبره جوزيه بالاسيوس ، مدعورا . بأن
الجنرال لم يتناول ولا وجبة كاملة منذ عشية الرحيل .
ووصلت الى هوندا فى الصباح المبكر وأخفوها فى زورق
الطيور ، فى انتظار فرصة مواتية . ولكنها ظهرت قبل
المتوقع بسبب سرور الجنرال بتناوله عصيدة الذرة . وهو
طبقه المفضل منذ أن أخذت صحته فى التدهور .

كان يمكن لأول يوم من الابهصار أن يكون الأخير ، ففى
الساعة الثانية من بعد الظهر هبط الليل فجأة ، وراحت المياه

تزيد ، واهتزت الارض تحت دوى الرعد ووميض البرق .
وبدا المجدفون عاجزين عن منع الزوارق من ان تتحطم
بالصخور . وراقب الجنرال ، من تحت السقيفة محاوله
الانقاذ التى يديرها الربان سانتوس وهو يطلق الصراخ
والزعيق ، وبدا كأن مقدرته البحرية لا تكفى للسيطرة على
مثل هذه الموارض الجوية ، وراقبه فى بادئ الأمر بفضول ،
وأدرك أن الربان أصدر أمرا خاطئا ، وعندئذ انساق
لغريزته ، وشق طريقه تحت الرياح والمطر وهو على شفا
الهلاك وأصدر أمرا مخالفا لأمر الربان بأن صاح :

— ليس من هذه الناحية . . . بل الى اليمين . . الى
اليمين بحق الله .

أطاع المجدفون الصوت المبحوح والذي كان لا يزال
مفعما بسلطة لا تقهر ، وأخذ القيادة دون أن يظن الى ذلك
حتى ابتعد الخطر . وأسرع جوزيه بالاسيوس فألقى فوق
كتفيه غطاء . وساعده ويلسون وايبارا على الوقوف مكانه .
أما الربان سانتوس فقد ابتعد ، مدركا بأنه أخطأ مرة أخرى
بين اليسار واليمين ، وانتظر فى خزي جندى أن يبحث
الجنرال عنه ، ووجده . وقال له :

— سامحنى أيها الربان .

ولكن الجنرال لم يبق فى سلام مع نفسه ، ففى نفس
الليلة ، وحول النيران التى أشعلوها فوق الشاطئ الذى
هبطوا اليه لقضاء ليلتهم الأولى . روى قصص انقادات بحرية
لا يمكن نسيانها وقال كيف أن أخاه جوان فيسنت ، والد
فرناندو ، مات غرقا عندما غرقت سفينته وهو عائد من
واشنطن ، حيث اشترى شحنة أسلحة وذخيرة من أجل أول
امبراطورية ، وقال انه كان على وشك أن يلقى نفس المصير
عند اجتيازهم نهر آروكا أثناء فيضانه لأن جواده مات بين

ساقيه ، واشتبهت جزمته فى الركاب وسحبته فى دوامه من الماء حتى تمدن دليله من قطعه • وروى حيف انه وهو فى طريق انجو ستورا ، بعد استقلال غرناطة الجديدة بميل ، رأى فاربا ينقلب فى السيل الجارف بنهر أورينوك ، وضابطا مجهولا يسبح نحو الشاطئ • وقيل له انه الجنرال سوكرية فرد ساخطا : ليس هناك أى جنرال باسم سوكرية ، ولأنه كان أنطونيو جوسيه دى سوكرية فى الواقع • وكان قد رفى قبل ذلك بقليل الى رتبة جنرال فى جيش التحرير ، وقد ارتبط معه بعد ذلك بصداقة وثيقة •

قال الجنرال كارينو : سمعت عن هذا اللقاء ، ولكننى لم أعلم بتفاصيل الفرق •

— ربما تكون قد خلطت بينه وبين غرق سوكرية الاول عندما هرب من قرطاجنة وطارده موريللو ، وبقي فى الماء أربعين ساعة تقريبا •

وأردف يقول بعد ذلك ، كيفما اتفق :

— أود لو يفهم الربان سانتوس بطريقة ما وقاحتى معه بعد ظهر اليوم •

وفى الصباح الباكر ، وهم نيام ، اهتزت الغابة كلها على صوت أغنية لا يمكن أن يصدر الا من رجل بالذات • وارتجف الجنرال فى أرجوحته ، وتمتم جوزيه بالاسيوس فى الظلام : انه ايتوربيد • وما كاد ينطق بهاتين الكلمتين حتى قطع الأغنية صوت ضار وأمر •

كان أجوستين دى ايتوربيد ، الابن الأكبر لجنرال مكسيكى فى حرب الاستقلال نادى بنفسه امبراطورا ، ولكنه لم يفلح فى البقاء أكثر من سنة ، وأحس الجنرال نحوه بعودة مختلفة منذ اللحظة التى رآه فيها لأول مرة وهو واقف وقفة

الانتباه ، يرتجف ولا يستطيع التغلب على رعشة يديه لانه وجد نفسه واقفا امام معبود طفولته ، وكان عمره عندئذ سبعة وعشرين عاما - ولم يكن عمره قد تجاوز السابعة عشرة عندما اعدم ابوه رميا بالرصاص فى قرية مغيرة وملتهبة من الريف المكسيكى ، بعد ساعات من عودته من المنفى وهو لا يعلم أنه حوكم غيابيا وحكم عليه بالموت للخيانة العظمى .

ملاته اشياء اترت فى الجنرال منذ الايام الاولى : اولها كان مع اوجستين الساعة الذهبية ذات الأحجار الكريمة التى ارسلها له ابوه وهو واقف امام جدار الاعدام وكان يحملها معلقة فى عنقه حتى يعرف الجميع انها تكرمه كثيرا ، والثانى هو السداجة التى روى بها ان اباه كان يرتدى ثيابا تنم على أنه فقير حتى لا يعرفه حرس الميناء ، وان امره افتضح بسبب الاناقة التى امتطى بها الجواد والثالث هو طريقته فى الغناء .

كانت الحكومة المكسيكية قد وضعت كل العراقيل حتى لا ينضم الى جيش كولومبيا ، معتقدة أن تجهيزه العسكرى جزء من مؤامرة ملكية يسانده فيها الجنرال لتتويجه امبراطورا على المكسيك بحجة الحق المزعوم كولى العهد - وقد جازف الجنرال بوقوع أزمة دبلوماسية خطيرة ، أولا لأنه قبل الشاب اوجستين باللقابه العسكرية ، وثانيا لأنه عينه ملازما له . وكان اوجستين جديرا بهذه الثقة ، رغم أنه لم يعرف الهدوء يوما واحدا ، وسمحت له عادته الوحيدة فى الغناء على مواصلة الحياة فى الشك والتردد . بحيث انه عندما أسكته بعضهم فى غابة مجدالينا ، غادر الجنرال أرجوحته « متدثرا بغطاء » واجتاز المعسكر المضاد بنيران الحراسة « ومضى وانضم اليه ، ووجده جالسا على الشاطئ ، يتأمل النهر ، وقال له : استمر فى الغناء يا كابتن »

وجلس بجواره ، وعندما كان يعزف بعض كلمات الأغنية كان يرددها معه بصوته الواهن . لم يسمع فى حياته أبدا

من يغنى بمثل هذا الحب ، ولم يتذكر أحدا بمثل حزنه مثل كل تلك السعادة حوله . كان انتورييد قد كون مع فرناندو واندريس ، زميلي الدراسات القديمة بمدرسة جورتاون . ثلاثيا أشاع نسمة شبابية فى حاشية الجنرال التى أنهكتها صرامة الثكنات .

استمر أوجستين والجنرال يغنيان حتى أهاجا هدوء حيوانات الغابة وتسببا فى تشتيت التماسيح الهاجمة فوق الساحل فأسرعت الى المياه كما لو أن كارثة أرضية تلاحقها . وبقي الجنرال جالسا على الأرض مذهولا بهول يقظة الطبيعة كلها الى أن ظهر هذب يرتقالى فى الأفق ، وطلع النهار . وعندئذ استند الى كتف ايتورييد لكى يقف ، وقال له :

- شكرا أيها الكابتن . كان بمقدورنا انقاذ العالم بعشرة رجال يغنون مثلك .

تنهد ايتورييد وقال : آه يا جنرال . اننى لآتنازل عن الكثير لكى تسمعك أمدى .

راوا فى يوم ابحارهم الثانى أملاكا نظيفة وجميلة فى مروج زرقاء تجرى فيها خيول أصيلة بكل حرية . ولكنهم لم يلبثوا أن اقتربوا من غابة وعاد كل شىء مباشرا ومماثلا . وقبيل ذلك خلفوا وراءهم أطوافا مصنوعة من جذور الأشجار الضخمة ، يمضى بها الحطابون لبيعها فى قرطاجنة ديزاند . وكانت بطيئة جدا بحيث بدت ساكنة وسط التيار ، وكانت تنقل عائلات بأسرها مع أطفال وحيوانات تحت سقيفات من سعف النخيل لا تكاد تحميهم من لفحات الشمس . وراوا فى بضع بقع من الغابة الأضرار الأولى التى تقتربها بحارة السفن التجارية لتغذية مراحليها . وقال الجنرال :

- يجب أن تتعلم الأسماك السير على الأرض عندما لا تكون هناك مياه بعد .

أصبحت الحرارة لا تطاق أثناء النهار . وكان صخب القروود والطيور يبعث على الجنون . ولكن الليالي كانت جميلة ورطبة . وكانت التماسيح تبقى هادئة طوال ساعات فوق كثبان الرمال ، فاتحة فكيها لالتقاط الفراشات . وكانت ترى بعد النجسوع المقفرة حقول مزروعة بالذرة ، وكلاب معروقة ، تنبح عند مرور الزوارق ، ورغم ان تلك الأراضي المقفرة كان عليها بعض الفخاخ لصيد الحيوانات وشباك صيد تجف تحت الشمس فلم يظهر أى انسان .

وبعد كل هذه السنين من الحروب والحكومات المريعة والغراميات التافهة ، بدت البطالة أشبه بالأم مريم ، وراح الجنرال يفكر وهو فى أرجوحته . فى الحياة القليلة الباقية له والتي يستيقظ أثناءها كل صباح . كانت مراسلاته معدة بالرد العاجل للرئيس كاي سيدو . ولكنه كان يقضى وقته فى املاء رسائل لقضاء وقت الفراغ . قرأ له فرناندو فى الأيام الأولى كتاب « أخبار فضائح ليما » ولم يستطع أن يثير اهتمامه الى أى شىء آخر .

وكان ذلك آخر كتاب قرأه عن آخره . كان قارئاً نهماً جداً أثناء مهادة المعارك ، وكذلك أثناء استراحات الحب ، ولكن دون ترتيب أو نظام . كان يقرأ فى كل ساعة ، مهما كان الجو ، تارة وهو يتمشى تحت الأشجار ، وتارة وهو ممتط جواده ، تحت الشمس الاستوائية ، وأخرى فى ظل العريات المهتزة فوق الطرق الحجرية ، وتارة وهو يهتز فى أرجوحته فى نفس الوقت الذى يملأ فيه إحدى رسائله . وقد دهش أحد أصحاب المكتبات من كثرة واختلاف المؤلفات التى اختارها من كتالوج عام ، بدأت من الفلاسفة اليونان الى مؤلف فى قراءة الكف . قرأ فى حديثه ، تحت تأثير مدرسة سيمون رودريجز الأعمال الرومانسية ، ثم استأنف فى التهامها كما لو كان يقرأ نفسه بالذات ، مدفوعاً بمزاجه الخيالى والمتحمس . كانت قراءات متقدمة وسمته بقية

حياته • وأخيرا قرأ كل ما وقع تحت يديه ، ولم يفضل أى كاتب على اطلاق ، بل كتابا حيرين ، فى عصور مختلفة • كانت رفوف كتبه فى مختلف البيوت التى اقام فيها تزخر بالكتب حتى لتكاد أن تقع من فرط ثقلها ، فى حين كانت الغرف والممرات تتحول الى صفوف من الكتب المترامية ، بعضها فوق بعض ، والى جبال من المستندات والوثائق ، تتكاثر فى طريقه وتلاحقه دون شفقة • لم يستطع قراءتها كلها أبدا • وعندما كان ينتقل الى مدينة أخرى كان يتركها فى عهدة أصدقاء موثوق بهم حتى ولو لم يعد يسمع عنهم أبدا • واضطرت حياته القتالية الى أن يترك خلفه أثرا من أكثر من أربمائة فرسخ من الكتب والأوراق ، بدءا من بوليفيا حتى فنزويلا •

وقبل أن ينخفض بصره كان يطلب من سكرتيريه أن يقرءوا له • وانتهى به الأمر الى أنه لم يعد يقرأ اطلاقا الا بهذه الطريقة لأن النظارة كانت تضايقه • ولكن اهتمامه بما يقرأ انخفض شيئا فشيئا فى نفس الوقت ، ونسب ذلك ، كعادته دائما الى سبب بعيد عن ارادته ، اذ قال :

ـ الواقع أن الكتب الجيدة أصبحت ثقلا شديدا •

كان جوزيه بالاسيوس الوحيد الذى لا يبدى أية اشارة عن سأمه من فتور الرحلة ، ولم تكن الحرارة ولا قلة الرفاهية تؤثر فى سلوكه الطيب ولا فى أناقته • كما أنهما لم ينتقصا من خدمته لسيدة • كان عمره أقل من الجنرال بست سنوات ، وقد ولد عبدا فى بيت الجنرال اثر زلة لأفريقية مع اسبانى ورث عنه شعره بلون الجزر وبقع النمش فى وجهه ، وعينييه الزرقاوين الصافيتين • وبخلاف تحفظه الشديد • كان يملك مجموعة من أجمل الملابس وأغلاها • وقضى كل حياته بجوار الجنرال ، ورافقه فى نفيه المزدوج • وكان فى الصف الأول فى حملاته وكل معاركه وهو مرتد الثياب المدنية ، لأنه لم يعتبر لنفسه الحق أبدا فى ارتداء الملابس العسكرية •

كان الجمود الجبرى أسوأ ما فى الرحلة . ففى أصيل ذات يوم استولى الملل على الجنرال وهو يلف ويدور تحت السقيفة الضيقة بحيث اوقف الزورق لكى يتمشى - وشاهدوا فوق الوحل المتجمد اثار طائر كبير الحجم كالنعامة وثقيل كالبقرة ولكن المجدفين لم يستغربوا ، فطبقا لهم كان هناك ، فى تلك الأنحاء رجال لهم ضخامة شجرة السيبا الأمريكية بأعراف وأرجل الديكة - وقد سخر من هذه الأسطورة ، كما كان يسخر من كل ما يفوق الخيال ، ولكنه أطال نزهته أكثر من المتوقع ، واضطروا أخيرا الى اقامة الخيام على الرغم من رأى الكابتن ومن ملازميه العسكريين الذين رأوا المكان شديد الخطورة وغير صحى - وبقي مستيقظا طوال الليل تضنيه الحرارة وجيوش الناموس التى كانت تخترق الناموسية الخانقة - وبقي مترقبا زئير الأسود الذى جعله فى حالة تأهب طوال الليل - وفى نحو الساعة الثانية صباحا مضى لكى يشرثر مع الجماعات التى تتولى الحراسة حول النيران ، ولم يعدل عن الوهم الذى أبقاه ساهرا الا فى الفجر وهو يتأمل أول أشعة الشمس الذهبية اذ قال :

— حسنا . يجب أن نرحل الآن دون أن نتصرف على أصدقائنا ذوى أرجل الديكة .

وفى اللحظة التى هموا فيها بالابحار قفز الى الزورق كلب أسود هزيل وأجذب واحدى قوائمه متعجزة - وأسرع كلبا الجنرال نحوه ، ولكنه دافع عن نفسه ، رغم عاهته ، بسراسة انتحارية بحيث انه لم يستسلم بعد أن غطاء الدم وتمزق عنقه - وأصدر الجنرال أمره بابقائه ، واهتم جوزيه بالاسيوس به ، كما فعل مرارا مع كلاب الشوارع .

وفى نفس اليوم آووا ألمانيا هجره القوم وتركوه فى جزيرة رملية لأنه ضرب أحد المجدفين بالعصا - وما أن صعد الى سطح الزورق حتى قدم نفسه كفلكى وعالم نباتى ، ولكن

ظهر بوضوح ، من خلال الحديث أنه يجهل كل شيء عن هذين العلمين ، وعلى العكس من ذلك قال انه رأى بعينيه الرجال ذوي أرجل الديكة وأنه مصمم على الإمساك بأحدهم لكي يعرضه في أوروبا في قفص كظاهرة لا يمكن مقارنتها إلا بالمرأة العنكبوت التي ظهرت في أمريكا وأثارت ضجة كبيرة في الموانئ الأندلسية قبل ذلك بقرن ، وقال له الجنرال :

— خذنى أنا ، فأنا على يقين من أنك ستكسب الكثير من المال اذا عرضتني في قفص على أننى أكبر رأس بغل في التاريخ .

تقبله في البداية كمهرج ظريف ، ولكنه غير رأيه عندما بدأ يروى قصصا وقحة عن الشذوذ المعيب للبارون الكسندر فون همبولد ، وقال يخاطب جوزيه بالاسيوس : كان يجب أن نعيده الى جزيرته . وفى المساء التقوا بمركب البريد ، وكانت تسير نحو عالية النهر . ولجأ الجنرال الى كل فنه فى الاغراء لكي يفتح الوكيل حقائب البريد الرسمى ، وأعطاه أخيرا الرسائل المرسلة باسمه . ورجاه الجنرال عندئذ أن يتكرم باصطحاب الألمانى معه حتى ميناء نار ، ووافق الوكيل على الرغم من أن حمولة المركب كانت كبيرة . وفى نفس تلك الليلة تدمر الجنرال بينما كان فرناندو يقرأ له رسائله وقال :

— ان هذا العاجز ليس حتى جديرا بشعرة واحدة من رأس همبولد .

كان قد فكر فى البارون حتى قبل أن يصعد الألمانى الى الزورق ، لأنه لم يستطع أن يتصور كيف يتمكن من أن يعيش فى هذه الطبيعة غير المروضة .

وقد عرف همبولد فى باريس ، عندما كان هذا الأخير عائدا من رحلة فى البلاد الاعتدالية . وأدهشه ذكاؤه

وتقافته وبهاء جماله الذى لم يره أبدا فى أية امرأة .
وكانت دهشته أقل عندما أكد له ان المستعمرات الاسبانية
فى أمريكا ناضجة للاستقلال . قال ذلك دون أية رعشة فى
صوته . فى حين أن الجنرال نفسه لم يكن قد فكر فى ذلك
أبدا ، ولا حتى كوههم من الأوهام .

كان همبولد قد قال له : ولا نفتقر الا لرجل .

وبعد ذلك بسنوات روى الجنرال وهو فى كوزو الواقعة
لجوزيف بالاسيوس ، ربما لأنه رأى نفسه فوق العالم وان
التاريخ يرمي على أنه هو ذلك الرجل . ولم يكرر ذلك لأحد
آخر ، ولكن فى كل مرة يدور الحديث حول البارون ، كان
ينتهز الفرصة لكى يشكره على بعد نظره .

ـ ان همبولد فتح صينى .

كانت هذه رابع مرة يعبر فيها نهر مجدالينا ، ولم
يستطع تجنب الانطباع بأنه يعود بحياته الخاصة الى الماضى ،
فقد عبره أول مرة فى سنة ١٨١٣ ، عندما كان كولونيل
بالمليشيا مهزوما فى بلده بالذات ، ووصل الى قرطاجنة
ديزاند من منفاه فى كوراسا وبحثا عن وسائل لاستئناف
الحرب . كانت غرناطة الجديدة مجزأة الى أقسام مستقلة ،
وقضية الاستقلال تلهث تحت ثقل ردع الاسبانيين الشرس ،
وكان النصر النهائى يبدو غير مؤكد من وقت الى آخر .
وأثناء رحلته الثالثة فى المركب التجارى كما يدعو تمت
عملية التحرير ، ولكن حلمه الجنونى تقريبا ، وهو توحيد
القارة بدأ يتحطم . وأثناء هذا الهبوط النهائى تيدد العلم ،
ولكنه كان لا يزال يعيش مع ذلك فى تلك العبارة التى كان
يرددها باستمرار : سيكون لأعدائنا كل المناقع طالما لا نوجد
حكومة أميركا .

كانت رحلته الأولى هى أكثر رحلاته تأثيرا ، بين الذكريات
التي يشترك فيها هو وجوزيه بالاسيوس ، وذلك عندما قاموا

بحرب تحرير النهر ، ففي عشرين يوما ، وعلى راس ماسى رجل مسلحين بشتى أنواع الاسلحة لم يتركوا فى حوص مجدالينا اسبانيا ملكيا واحدا على قيد الحياة • وادرك جوريه بالاسيوس الى أى حد تغيرت الأمور عندما رأوا فى اليوم الرابع من رحلتهم هذه على سواحل القرى صفوفا من النساء تنتظر مرور الزورق وقال : هؤلاء هن الأرامل • • وانحنى الجنرال ورآهن متشحات بالسواد ، فى صفوف متراصة على الشاطئ كالغريبان المفكرة ، تحت الشمس اللافحة يتمنين ولو تحية مواسية • وكان من عادة الجنرال ديبجو ايبارا ، شقيق اندريس ان يقول ان الجنرال اذا كان لم ينجب طفلا واحدا ، فانه كان على العكس الأب والأم لجميع أرامل الأمة ، فقد كن يتبعنه الى كل مكان ، ويبقيهن على قيد الحياة بكلمات مؤثرة كانت عبارة عن كلمات مواساة حقيقية • ومع ذلك فقد تحولت أفكاره نحو نفسه أكثر منها نحو الأرامل عندما رأى صفوفهن الكثيرة وقال :

— الأرامل الآن هم نحن • • • نحن اليتامى والعجزة ومنبوذو الاستقلال •

ولم يتوقفوا فى أية بلدة قبل مومبوكس ، فيما عدا بويرتو ريال ، حيث يمتد الطريق الذى يربط أوكانا بمجدالينا • وهناك كان فى انتظارهم الجنرال القنزويلي جوزيه لورنسيو سيلفا الذى اضطلع بمهمة اصطحاب الرماة المتمردين حتى الحدود • وأقبل للانضمام الى الحاشية •

بقى الجنرال على سطح الزورق حتى المساء ثم هبط لكى ينام فى معسكر مرتجل ، وفى أثناء ذلك استقبل فى الزورق الأرامل والعجزة وجميع من أصابتهم الحروب بالاختلال والاضطراب ، الذين أرادوا رؤيته • كان يتذكر كل واحد منهم تقريبا ، بوضوح عجيب ، فمن بقى منهم فى القرى كانوا يحتضرون فى البؤس أما الآخرون فقد مضوا بحثا عن حروب

جديدة لكى يبقوا على قيد الحياة ، أو غدوا قطاع طرق . .
عدد كبير من الذين أحالهم جيش التحرير الى التقاعد تشبثوا
فى كل الأراضى الوطنية . وقد أوجز أحدهم فى عبارة
واحدة احساس الجميع بأن قال : « ان لدينا الاستقلال الآن
يا جنرال فقل لنا ماذا نصنع به اليوم » . وفى غمرة
الانتصار عليهم أن يتحدثوا هكذا ويذكروا الحقيقة ، ولكن
الحقيقة غيرت السيد . قال لهم : « ان الاستقلال ما هو
الا قضية لا بد من كسبها ، وان التضحيات الكبيرة يجب أن
تأتى بعد ذلك لكى تجعل من الشعوب وطننا واحدا » . .

ردوا عليه قائلين : ان التضحيات هى الشيء الوحيد
الذى أنجزناه أيها الجنرال .

ظل جامدا ولم يتراجع عن رأيه وقال : لا بد من
التضحيات مرة أخرى ، فالوحدة لا ثمن لها .

وفى تلك الليلة بينما كان يتجول فى الجرن الذى علقوا
فيه أرجوحته لكى ينام رأى امرأة تتحول اليه وهى فى طريقها
لكى تنظر اليه ، ودهش لأن عريه لم يدهشها . بل انه سمع
كلمات الأغنية التى كانت تدندن بها : « قل لى ان الوقت ليس
متأخرا أبدا للموت مع الحب » وكان حارس البيت ساهرا
تحت سقيفة عتبة البيت . وسأله الجنرال :

— هل توجد هنا امرأة ؟

بدا الحارس واثقا من نفسه وهو يقول :

— لا توجد امرأة جديدة بفخامتك .

— وغير جديدة بفخامتى ؟

أجاب الحارس : وغير جديدة أيضا . لا توجد أية امرأة
الا على بعد فرسخ .

كان الجنرال شديد الثقة بأنه رآها بحيث يبحث عنها
فى كل أرجاء البيت بعد ذلك - وأصر على أن يتحقق ملازموه
من ذلك - وأخر رحيله فى صباح اليوم التالى أكثر من ساعة،
ولكنهم لم يجدوا أحدا - ولم يعد الى الحديث عنها ، ولكن
أثناء الاستراحة من الرحلة ، كان يعود فيتحدث عنها مع
جوزيه بالاسيوس - وقد بقى هذا الأخير على قيد الحياة
سنوات عديدة - وما تبقى له من الوقت لكى يتذكر حياته
الماضية مع الجنرال كان من الكفاية لكى يتذكر اتفد التفاصيل
التي مرت به - أما الشيء الوحيد الذى لم يستطع أن يجلوه
فهو هل كانت تلك الرؤيا فى ليلة بربرتورال حلما أو هذيانا
أو شيئا -

ولم يتذكر أحد الكلب الذى التقطوه فى الطريق والذى
راح يتسكع هنا وهناك بينما جراحه تندمل ، حتى أدرك
المراسلة المختص بالحاشية أنه لا اسم له ، فقد نطفوه بحامض
الفنيك ، وعطروه - ولكنهم لم يفلحوا فى تخليصه من منظره
البائس ومن جربه - وكان الجنرال يستنشق الهواء النقي
فى مقدمة الزورق عندما جر جوزيه بالاسيوس الكلب تحوه
وسأله :

- أى اسم نطلق عليه ؟

أجاب الجنرال من غير أن يفكر لحظة :

- بوليفار !

كانت تقف بالميناء سفينة حربية صغيرة ما كادت تعلم
إن أسطولا من الزوارق يقترب حتى انطلقت فى مواجهته -
ورأها جوزيه بالاسيوس من نافذة السقيفة ، وانحنى فوق
الأرجوحة حيث الجنرال ، مطبق العينين وقال :

- نحن فى مومبوكس يا سيدى -

قال الجنرال دون أن يفتح عينيه : أرض الله -

كان النهر ، كلما تقدموا ، يغدو أكثر اتساعا ومهابة
ثمستقع لا شيطان له ، وتغدو الحرارة أكثر كثافة بحيث
كان يمكن لمسها باليدين - وكان الجنرال قد تخلى بدون مرارة
عن التطلع الى شروق الشمس المحظى وغرو بها المتقطع اللذين
كانا يحتجزانه فى الايام الاولى فى مقدمة الزورق ، واستسلم
للأحباط - لم يعد يملأ أية رسائل ولم يعد يقرأ ، ولم يعد
يلقى على مرافقيه أية أسئلة تدل على اهتمامه بالحياة ، وحتى
اثناء ساعات القيلولة الشديدة الحر كان يلتف فى غطائه ،
ويبقى فى أرجوحته ، مطبق العينين - وخشى جسوزيه
بالاسيوس ألا يكون قد سمعه ، فكرر عبارته ، ورد عليه
الجنرال من جديد من غير أن يفتح عينيه :

- مومبوكس لا وجود لها - اننا نحلم بها أحيانا ولكنها

غير موجودة -

قال جوزيه بالاسيوس : يمكننى على الأقل أن أؤكد لك
وجود برج سانتا باربارا . فأننى أراه من مكائى هذا -
فتح الجنرال عينيه المتعبتين ، وجلس فى الأرجوحة ،
ورأى فى ضوء الظهر المتوهج الأسطح الأولى لمدينة مومبوكس

القديمة والمنكودة الحظ التي خربتها الحرب وأفسدتها فوضى
الجمهورية ، واهلك الجدرى الكثير من اهلها - كان النهر قد
بدا فى ذلك الوقت تغيير مجراه بازدياد كبير - كان يجب ان
ينتهى قبل نهاية القرن فى اهمال تام - اما السد الحبرى
الكبير الذى كان اعضاء المجلس المحلى يسارعون بترميمه
فى اصرار عجيب عقب الأضرار التى تحيق به بعد كل فيضان ،
فلم يبق منه الا أنقاض مبعثرة فى شاطئ من الحصباء -

اقتربت السفينة الحربية من الزوارق ، ووجه ضابط
أسود لا يزال يلبس زى اليوليس القديم الخاص بالوفادة
الملكية ، المدفع نحوهم - واستطاع الكابتن كازيلو سانتوس
أن يصيح به :

— لا تكن أحمق -

توقف المجدفون على الفور ، وبقيت الزوارق تحت رحمة
التيار ، وصوب الرماة بنادقهم نحو السفينة فى انتظار
الأوامر - ولكن الضابط ظل رابط الجأش ، وصاح :

— جوازات المرور باسم القانون -

وعندئذ رأى هيكلا يظهر من تحت السقيفة ، ويدار
منهوكة ولكنها زاخرة بسلطة لا ترحم يأمر صاحبها الجنود
بخفض أسلحتهم ثم يقول للضابط بصوت رقيق :

— حتى اذا لم تصدقنى يا كابتن فليس معى جواز سفر -

كان الضابط يجهل من هو - ولكن عندما قال له فرناندو
ذلك أسرع وألقى بنفسه فى الماء بأسلحته ، وما أن بلغ
الشاطئ حتى راح يجرى لكى يطلع المدينة على النبأ السعيد -
ورافقت السفينة الحربية أسطول الزوارق حتى الميناء
وجرسها يدوى بكل قوة - ولم تكن المدينة قد ظهرت كلها -

بعد عند منعطف النهر عندما قرعت أجراس الكنيسة الثمانية
رسمت الأذان .

حانت سانناكروز دي بومبوكس الميناء التجارى بين
الساحل الكاريبى وداخل البلاد فى عهد الاحتلال الاستعمارى .
وكان هذا بداية ثرائها . وعندما بدأت زوبعة الحرية فى
الهبوب كانت تلك الخطوة الارستقراطية اول من نادى بها .
واستردها الاسبان ، ولكن الجنرال بنفسه حررها مرة أخرى .
ولم يكن بها غير ثلاثة شوارع موازية للنهر ، عريضة وممتدة
ومغبرة ، ببيوت متجانسة نوافذها عريضة ازدهر فيها خمسة
من النبلاء الفرنسيين وصمدت فيها صناعة المصوغات على
الرغم من تغيير الجمهورية .

ولكن كان الجنرال هذه المرة قد تخلص من غرور مجده ،
ومها ضد العالم بحيث تملكته الدهشة وهو يرى جمهورا
ينتظره فى الميناء . كان قد ارتدى فى عجالة كبيرة بنطلونا
من القطيفة وجزمة عالية ، وألقى فوق كتفيه غطاء رغم
الحر ، وبدلا من طاقية الليل لبس القبعة ذات الحواف التى
ودع بها القوم فى هوندا .

كانت هناك جنازة فى كنيسة كونسبشيون يحضرها
أولو الأمر المدنيون . وعدد كبير من رجال الكنيسة والطوائف
الدينية والطلبة ورجال مرموقون بالملابس الرسمية ، وتملكهم
الارتباك والاضطراب وهم يسمعون رنين الأجراس ، وحسبوا
أنه اندار حرب ، ولكن المحافظ دخل وهو فريسة اضطراب
كبير وهمس فى أذن العمدة بالخبر ثم صاح لكى يسمعه
الجميع :

— وصل الرئيس الى الميناء —

لأن كثيرين كانوا يجهلون أنه لم يعد رئيسا . كان ساعى
البريد قد مر يوم الاثنين ، وأذاع فى كل قرى النهر الاشاعات

التي تدور فى هوندا ، ولكنه لم يقدم أية اىضاحات ، بحيث جعل الالتباس مصادفة الاستقبال أكثر احتداما . وألغيت الجنازة تقريبا ، وشيعت جماعة من المقرين فحسب التابوت حتى المقبرة وسط عاصفة من الصواريخ ورنين النواقيس .

كان مجرى الماء ما يزال باقا بسبب الامطار الخفيفة بحيث انهم اضطروا الى أن يتسلقوا وهدة مملوءة بالانقاض لكي يبلغوا الميناء . وأبعد الجنرال فى شىء من الاستياء رجلا تقدم لكي يحمله ، وصعد مستندا الى ذراع السكايتن ايبارا وهو يتعثر فى كل خطوة ويظل واقفا بكل مشقة ولكنه تمكن من الصعود محتفظا بوقاره .

وفى الميناء صافح أولى الأمر بقبضة قوية لا دخل فيها بحالة جسده ولا لفضالة يديه ، والذين سبق أن راوه فى زيارته الأخيرة للمدينة داخلهم الشك فى صدق ذاكرتهم فقد بدا مسنا جدا كآبيه . ولكن القليل من النفس المتبقى له كان من الكفاية لكي لا يسمح لأحد بالارتياح فى الأمر . ورفض عربة يوم الجمعة المقدس التى أعدوها له ، ورضى أن يمشى حتى الكنيسة ، واضطر أخيرا أن يركب بغلة العمدة . وكان هذا الأخير قد أعدها عندما رآه يهبط من الزورق وهو فى هذه الحالة من الوهن .

وكان جوزيه بالاسيوس قد لاحظ فى الميناء وجوها كثيرة مبقعة بجمرات الجدري . كان وباء عضالا انتشر فى قرى مجدالينا ، وانتهى الأمر بالأهالى الى الخوف منه أكثر من خوفهم من الاسبان . منذ أن أباد جنود التحرير أثناء حملة النهر . وفيما بعد واذ أصر الجدري على انتشاره ، استطاع الجنرال أن يقنع أحد علماء الطبيعة ، أثناء مروره بالبلدة بالبقاء لكي يحصن الأهالى بتلقيحهم بالمصل الذى يلقحون به البهائم المصابة بالجدري . ولكن المصل تسبب فى موت الكثيرين بحيث رفض الجميع سماع أى شىء عنه .

وفضلت أكثر الأمهات أخطار العدوى لأبنائهن عن أخطار
الوقاية . ومع ذلك فقد كانت التقارير الرسمية التى كان
الجنرال يتلقاها بحيث جعلته يصدق أن الوباء قد استؤصل ،
ولهذا عندما أخبره جوزيه بالاسيوس بعدد الوجوه المجدورة ،
كان رد فعله دهشته أكثر منها تقززا وقال :

— سيكون الأمر هكذا دائما طالما سيستمر المسؤولون فى
الكذب علينا مراعاة لنا .

ولم ينم عن مرارته للذين استقبلوه فى الميناء ، بل ذكر
لهم نبأ وجيزا عن وقائع استقالته وعن حالة الفوضى التى
ترك فيها سائتا فى ، واصدر أمره فى نفس الوقت بمساندة
جماعية للحكومة الجديدة وقال : ليس هناك خيار آخر فاما
الوحدة واما الفوضى ، وأعلن انه راحل دون أى أمل فى
الوحدة . ليس للاستشفاء من آلام جسده العديدة والموجعة
وانما للاستجمام واسترداد هدوئه من الهموم التى سببتها له
آلام غير آلامه . ولكنه لم يحدد متى سيرحل ولا الى أين . وعاد
فكره . دون أى داع لذلك ، بأنه لم يتلق بعد جواز الحكومة
لمغادرة البلاد ، وشكرهم من أجل العشرين سنة من المجد التى
منحتها له مومبوكس ، وطلب منهم ألا يميزه بأى لقب غير
لقب المواطن العادى .

وكانت الكنيسة المزينة بقماش الحداد الرقيق والتى
يفوح منها أريج الزهور وتتألق بالشموع المأتمية قد اجتاحتها
ال جماهير لتسبيحة شكر مرتجل . وأدرك جوزيه بالاسيوس ،
وكان يجلس مع الحاشية . أن الجنرال غير مستريح فى
مقعده . وعلى العكس كان العمدة ، وهو خلاص عتيد ، له
رأس اسد مهيب ، جالسا بجواره بكل ارتياح . وأعادت
فرناندا ، أرملة بنجوميا ، التى تسببت بجمالها الكريولى فى
كثير من الأضرار فى بلاط مدريد . مروحتها المصنوعة من
خشب الصندل للجنرال ، فى معاونة منها للتغلب على فتور

الحفل ، فراح يحركها دون أمل ، كما لو لئكى يواسى نفسه
يتأثيرها الى أن بدأت الحرارة تضايق تنفسه ، وهمس عندئذ
فى اذن العمدة :

— صدقنى اننى لا أستحق هذا العذاب •

قال العمدة : لحب الشعب ثمنه يا صاحب النخامة •

— ليس هذا حبا للأسف وانما هو فضول •

وبعد الانتهاء من تسبيحة الشكر أعاد المروحة لارملة
بنجوميا وهو ينحنى فى احترام ، وأرادت أن تهديها اليه
قائلة :

— شرفنى بالاحتفاظ بها ، ذكرى من شخص يحبك •

أجاب • وا أسفاه يا سيدتى ، فلم يبق لى كثير من الوقت
للبذكريات •

آراد الكاهن أن يحميه من الحر تحت قبة الكنيسة اثناء
انتقاله منها الى كلية سان يدرو أبوستول ، وهى مبنى من
طابقين برواق رهبانى مزخرف بالسرخس والقرنفل ، وخلفه
أرض منيرة مزروعة بأشجار مثمرة • وفى ذلك الفصل ،
وحتى أثناء الليل ، لم يكن من المحتمل العيش فى بواكى
الممرات بسبب هواء النهر غير الصحى ، ولكن الغرف المجاورة
للصالة الكبيرة كانت مصونة بجدران سميكة من الأسمنت
تبقىها فى عتمة خريفية •

سبقه جوزيه بالاسيوس لتجهيز كل شئ • كانت الغرفة
ذات الجدران الخشنة والتى طليت حديثا بالجير غير مضاءة
جيذا بسبب النافذة الوحيدة ذات المصراعين الخضراوين التى
تطل على البستان • وغير جوزيه بالاسيوس من وضع النراش
حتى تكون النافذة التى تطل على الحديقة عند قدميه لا عند

راسه ولكنى يتمكن الجنرال من رؤية أشجار الجوافة الصفراء
ويستنشق رائحتها .

وصل الجنرال ، مستندا الى ذراع فرناندو ، ومعهما
كاهن الكنيسة ، وهو فى نفس الوقت رئيس الكلية . وما
كاد يجتاز الباب حتى استند يظهره الى الجدار وقد جذبت
راصة الجوافة المعروضة فى اناء فوق حافة النافذة والتي تملأ
رائحتها جو الغرفة . وبقي هكذا ، مطبق العينين يشم تلك
الرائحة التى أعادت اليه ذكريات قديمة مزقت قلبه حتى لم
يعد يستطيع التنفس . وعندئذ فحص الغرفة بكل اهتمام ،
كما لو ان كل شيء فيها يكشف له ذكريات قديمة . فضلا
عن السرير ذى القبة ، كان هناك صوان من خشب الاكاجو ،
ومنضدة صغيرة بجوار الفراش من نفس نوع الخشب فوقها
قرص من الرخام وكرسى كبير منجد بالمخمل الأحمر ، وعلى
الحائط ، بجوار النافذة ساعة مثمثة الأضلاع بأرقام
رومانية متوقفة على الساعة الواحدة وسبع دقائق . وقال
الجنرال :

— أخيرا شيء لم يتغير .

دهش الكاهن وقال : معذرة يا صاحب الفخامة ، ولكننى
لا أذكر أنك سبق أن أتيت هنا على الاطلاق .

بدت الدهشة على جوزيه بالاسيوس هو الآخر ، لأنهما لم
يأتيا الى هذا البيت من قبل ، ولكن الجنرال أيد ذكرياته
بإيضاحات مؤكدة بحيث بدت الحيرة على وجوه الجميع ،
ولكنه ، مع ذلك ، حاول أن يطمئنهم بسخريته العادية فقال :

— لعل ذلك تجسيد سابق . ومهما يكن فكل شيء محتمل
فى مدينة رأينا فيها رجلا محروما يمشى تحت قبة .

وبعد قليل انقض على المدينة وابل من المطر صحبه رعد
أغرق المدينة . وانتهر الجنرال الفرصة لكى يستريح من

حملة الاستقبال واستمتع باريج الجوافة . فى حين نطاهر وهو بكامل تيباه بانه ينام على ظهره فى عتمة العرفه - بم نام فعلا فى الصمت الشافى . بعد الطوفان . وعرف جوزيه بالاسيوس ذلك لأنه سمعه يتكلم بالأسلوب السليم واللهجه الواضحة المميزة لشبابه اللذين لن يجدهما بعد الا فى الحلم . تكلم عن كراكاس ، مدينة انقاض لم تعد مدينته بجدرانها التى تنطليها الاعلانات المهينة له . وشوارعها التى تفيض بسين البراز الأدمى - وسهر جوزيه بالاسيوس فى ركن من الغرفة وهو يحرص على ألا يراه أحد لكى يتأكد من أن أحدا من غير الحاشية يمكن أن يسمع تلك الاعترافات التى يقر بها الجنرال فى منامه - وأرسل من الباب الموارب اشارة لدكولونل ويلسون ، فأبعد هذا الأخير الحارس الذى يذرع الحديقة -

قال الجنرال : لا أحد هنا يحبنا ، ولا أحد يطيعنا سوى كراكاس ، وقد تعادلنا .

واستطرد بمسحة من التحسرات المريرة . خلاصة مجد منكك حملته ريح الموت مهلهلا - وبعد ساعة من الهذيان استيقظ على صيحة جماعة فى الرواق وصوت معدنى متعاضم . وأطلق غطيطا فظا وقال دون أن يفتح عينيه ، وفى صوت كان بسبب اليقظة :

... ماذا يحدث بحق الله ؟

كان الصوت صادرا من الجنرال لورنزو تاركامو . المحارب القديم فى حروب التحرير والمعروف بطبعه الحاد وبشجاعته التى تكاد تتسم بالجنون ، يحاول الدخول عنوة فى الغرفة قبل الموعد المحدد للمقابلات - تحدى الكولونيل ويلسون بعد أن ضرب أحد ملازمى الرماة بالسيف . ولم يستسلم الا لسلطة الكاهن الدائمة الذى قاده برقة الى المكتب المجاور - وصاح الجنرال محنقا بعد أن أخبره ويلسون بالأمر :

— قل لكاركامو اننى مت .. هكذا .. اننى مت .

ذهب الكولونل ويلسون لمواجهة العسكرى الراعد الذى كان قد ارتدى لهذه المناسبة زيه الاحتفالى المزين بمجموعة من الأوسمة الحربية . ولكن كبريائه كانت قد هبطت خمسة أمتار تحت الأرض . وفاضت عيناه بالدموع ، وقال :

— كلا يا ويلسون .. لا تخبرنى بالرسالة .. اننى سمعت كل شيء .

وعندما فتح الجنرال عينيه ، رأى أن الساعة مازالت تشير الى الواحدة وسبع دقائق . وملأها جوزيه بالاسيوس ، وضبطها مصادفة وتأكد على الفور انها قد انتظمت مع الوقت الصحيح فعلا بأن تحقق من ذلك من ساعتى جيبه . وبعد ذلك يقليل دخلت فرناندا باريجا وقدمت للجنرال طبقا من اليخننى ، ولكنه رفض أن يتناوله رغم انه لم يذق شيئا منذ الأمس ، غير أنه أمر أن يوضع الطبق فوق المكتب ليأكل منه أثناء المقابلات . واستسلم مع ذلك لاغراء الجوافة واختار منها واحدة من السلة . وانتشى لحظة برائحتهما ، ثم التهمها شيئا قشيشا فى شراهة وهو يتنهد ، ثم جلس فى الأرجوحة وسلة الجوافة بين ساقيه . وأكلها كلها واحدة اثر الأخرى . حتى دون أن يتيح لنفسه الوقت لكى يتنفس . وفاجأه جوزيه بالاسيوس وهو يتلذذ بآخر ثمرة ، وقال له :

— اننا سنموت .

أجابه الجنرال بطيبة خاطر : اننا متنا فعلا .

وفى الساعة الثالثة والنصف بالتدقيق ، كما هو متوقع ، أمر بإدخال الزائرين الى المكتب ، كل اثنين معا لأنه يستطيع بهذه الطريقة أن يصرف أحدهما بأن يجعله يفهم انه متعجل لسماع الآخر . ووجده الدكتور نيكازيو دل فال الذى دخل

بين الأوائل مواسيا ظهره الى نافذة مضيئة تشرف على كل الضيعة وعلى المستنقعات التى يتصاعد منها الدخان على مبعدة منها ، وكان يحمل فى يده طبق اليخنى الذى أحضرتة فرناندا باريجا والذى لم يلمسه لأن عسر الهضم يسبب الجواقة بدأ يسرى مفعوله - وأوجزالدكتور دل قال فيما بعد ، انطباعه عن تلك المقابلة بعبارة عنيفة : « ان هذا الرجل مشرف على الموت » واتفق جميع من مثل اليه على ذلك ، كل بطريقته - ومع ذلك ، وحتى أكثر المتأثرين بسوء حالته ، ألحوا عليه لكي يزور القرى المجاورة لمباركة أطفالهم ، وافتتاح جمعيات خيرية أو للتحقق من حالة الاهمال التى اغرقتها فيها الحكومة -

وبعد ساعة ، أصبح الغثيان والاسهال بسبب الجواقة امرا لا يطاق - واضطر الى ايقاف المقابلات رغم رغبته فى استقبال جميع الذين ينتظرونه منذ الصباح - ولم يعد هناك مكان فى الحديقة لوضع العجول والماعز والدجاج وجميع الحيوانات المختلفة التى أتوه بها كهدايا ، واضطر الرماة من جنود الحراسة الى التدخل حتى لا يكون هناك طفق ، ولكن الهدوء عاد بعد هبوط الليل ، بفضل سيل جادت به العناية الالهية ، فصفا الجو وساد السكون -

ورغم رفض الجنرال الصريح ، أعدوا غداء شرف فى الساعة الرابعة بعد الظهر فى بيت مجاور ، ولكنهم احتفلوا بالغداء بدونه ، لأن الاسهال الذى تسببت فيه الجواقة جعله فى حالة استعجال حتى الساعة الحادية عشرة مساء - وبقي فى أرجوحته خائرا فريسة مغص واسترواحات واحساس بأن روحه تتلوى فى مياه متحركة - وجاءه الكاهن بدواء أعد ، صيدلى البيت ، ولكن الجنرال أقصاه قائلا : « اذا كنت قد فقدت السلطة بسبب مقيىء فان مقيئا آخر سيودى بى » - واستسلم لمصيره وهو يرتعش من تأثير العرق البارد فى عظامه

دون أى عزاء آخر الا الألحان الموسيقية التى تنبعث من الحفلة
التى لم يحضرها - وشيئا فشيئا هدأت عاصفة بطنه وزال
الآلم ، وتوقفت الموسيقى ، وبقي جامدا ، طافيا فى العدم .
أوشك مروره السابق بمومبوكس ان يكون الأخير .
كان قد عاد من كاراكاس بعد أن حصل بسحر شخصيته على
مصالحة عاجلة مع الجنرال جوزيه انطونيوباييز ، الذى كان
على الرغم من ذلك بعيدا عن التخلي عن حلمه الانفصالي .
وكانت كراهيته لسانتندر معروفة للامة الى حد أنه رفض
الاستمرار فى تلقي رسائله لانه لم يعد يثق لا فى
أخلاقه ولا فى قلبه - وقد كتب له « وفر على نفسك عناء
الادعاء بأنك صديقى » والسبب المباشر لكراهيته لسانتندر
هو أن هذا الأخير وجه خطايا الى أهالى كاراكاس قال فيه ،
دون أى تفكير ان كل أعماله كانت موجهة الى تحرير ومجد
كاراكاس ، وعند عودته الى قرطاجنة الجديدة حاول اصلاح
زلة لسانه بعبارة وجهها الى قرطاجنة ومومبوكس قال فيها :
اذا كانت كاراكاس قد منحتنى الحياة ، فأنت قد منحتنى
المجد - ولكن العبارة كانت تنم عن خبث لتصحيح خطابى
ولم تكن من الكفاية لوضع حد نهائى لديماجوجية
السانتندريين .

وعاد الجنرال الى سانتا فى مع فرقة من الجيش لمنع
كارثة نهائية . وانتظر حتى ينضم اليه آخرون ليبدل مرة
أخرى كل جهده لعملية التوحيد . وقال عندئذ ان تلك
اللحظة حاسمة . تماما كما فعل عندما مضى لتفادى انفصال
فنزويلا ، وأتاح له شيء من التفكير أنه منذ ما يقرب من
عشرين سنة لم يكن أى عمل فى حياته شيئا آخر غير حاسم ،
وقد كتب فيما بعد وهو يتذكر تلك الأيام : « ان الكنيسة
جمعاء والناس جميعا والغالبية العظمى من أمتى فى جانبى »
.. ولكن رغم كل هذه الأوراق الرابعة ثبت مرارا كثيرة أنه
عندما يبتعد عن الجنوب لكى يمضى الى الشمال والعكس

بالعكس ، فان البلد الذى يغادره ينهار رغما عنه ، وان حروبا جديدة تدمره • كان هذا قدره •

لم تضع الصحافة السانتاندرية اية فرصة لكى تنسب الهزائم العسكرية الى فجوره الليلي ، وبين العديد من الأكاذيب التى نشرتها تلك الجرائد فى سانتا فى لتلطيخ مجده أنه ليس هو الذى قاد معركة بويكاكا التى بمقتضاها ثم ختم الاستقلال فى الساعة السابعة من صباح اليوم السابع من أغسطس سنة ١٨١٩ وانما هو الجنرال سانتاندر ، لأنه كان فى تونجا يرفقة سيدة سيئة السمعة تنتمى الى شركة وقادة الحكم الاسبانى •

وعلى كل حال لم تكن الصحافة السانتاندرية الوحيدة التى تتصدى لموضوع لياليه المجونية لافقاده الاعتبار ، فقد زعموا ، قبل النصر وأثناء حروب الاستقلال أن ثلاث معارك على الأقل قد خسرت لأنه لم يكن موجودا حيث يجب أن يكون ، وانما فى فراش امرأة • وأثناء زيارة أخرى لمومبوكس، مرت قافلة من النساء من مختلف الأعمار والألوان بالشارع الكبير ، شبعن الهواء بعطر مهين وهن يمتطين الجياد كالأمازونات ويمسكن فوق رؤوسهن بمظلات من القماش المطبوع ، ويرتدين ثيابا من الحرير الرقيق لم تشهد المدينة مثله أبدا • ولم يكذب أحد الاشاعة التى جرت بأنهن محظيات الجنرال وانهن سبقته الى القدوم • وكانت اشاعة كاذبة ككثير غيرها ظلت تلاحقه حتى بعد موته •

لم يكن من المستغرب استخدام مثل هذه المعلومات الكاذبة ، وقد استخدم الجنرال نفسه هذه الأساليب أثناء الحرب ضد اسبانيا ، عندما أصدر أمره لسانتاندر بطبع أنباء كاذبة لخداع القادة الاسبان ، بحيث انه بعد اقامة الجمهورية عتب على سانتاندر استخدام السوء لصحافته ، فرد عليه هذا الأخير فى سخرية رقيقة :

ـ لقد كنا فى مدرسة طيبة يا صاحب الفخامة .

أجابه الجنرال ، بل فى مدرسة فاجرة لأنه لابد أن تعرف ان المعلومات التى اختلقناها قد انقلبت علينا .

كان الى هذا الحد حساسا نحو كل ما يقال عنه ، سواء كان حقيقة أم كذبا ، بحيث لم يسلم أبدا من اية فرية ، وكافح حتى اخر يوم من حياته لتكذيبها . ومع ذلك فلم يتق شرها فى مناسبات أخرى ، فأثناء مروره ذات مرة بمومبوكس جازف بمجده فى سبيل امرأة .

كانت تدعى جوزينا سجراريو ، من طبقة أعيان مومبوكس ، شقت طريقا ، مارة بمراكز الحراسة السبعة متنكرة فى زى الرهبان واستخدمت كلمة السر ، وكان جوزيه بالاسيوس قد أعطاها لها وهى « أرض الله » . وكانت ناصعة البياض بحيث ان بهاء جسدها كان يظهرها فى الظلام . ومع ذلك فان فخامة زينتها فى تلك الليلة تجاوزت جمالها لأنها لبست فوق ثوبها درعا مرصعا بمصاغ محلى عجيب . بحيث انه عندما أراد أن يحملها الى أرجوحته لم يسمح له ثقل الذهب حملها الا بمشقة كبيرة . وفى الصباح المبكر ، وبعد ليلة جامحة راعها سرعة مرور الوقت وتوسلت اليه أن يبقئها ليلة أخرى .

كان ذلك مجازفة كبيرة ، لأنه طبقا لمخابرات الجنرال كان سانتاندر قد دبر مؤامرة للاستيلاء على السلطة وتقسيم كولومبيا . ومع ذلك فقد بقيت عشر ليال لا ليلة واحدة ، وكانا سعيدين بحيث انهما اعتقدا أنهما متحابان حقا أكثر من أى أحد آخر فى الدنيا .

تركت له ذهبها وهى تقول له : من أجل حروبك . ولكنه لم يستخدمه لارتياحه فى أنه ثروة مكتسبة فى الفراش عن طريق غير شريف ، وعهد به الى صديق ، ونسيه بعد

ذلك . وعند زيارته الاخيرة لموبوكس ، يمد عسر الهضم الذى أصابه بسبب الجوافة فتح الصندوق ليجد ما فيه ، وعاد الى ذهنه عندئذ الاسم والتاريخ .

كان منظرا عجيبا ، فقد كان درع جوزينا سجراريو الذهبى مرصعا بكل الانواع المبتكرة فى فن الصيانة ويزن ثلاثين رطلا . وكان هناك ايضا طاقم مكون من ثلاث وعشرين شوكة وأربع وعشرين سكينه وأربع وعشرين ملعقة ، وثلاث وعشرين ملعقة صغيرة وملاقط صغيرة للسكر . كلها من الذهب الخالص ، وادوات أخرى نفيسة تركها هنا وهناك . عهدة مع بعض الناس ، ونسيها بعد ذلك . وفى فوضى الممتلكات الخيالية للجنرال لم يفاجأ أحد باكتشاف هذه الأشياء فى أماكن غير متوقعة على الإطلاق . ووضع تعليماته بوضع الطاقم فى أمتعته وأن يعاد صندوق الذهب الى صاحبه . ولكن ما كان أشد دهشته عندما علم من بين شفتى المدير الدينى لدير سان بدروا أبوستول أن جوزيفا سجراريو تعيش منفية فى ايطاليا لتأمرها على أمن الدولة ، فقال :

— من الواضح أنها أكاذيب سانتاندر .

قال الراهب : كلا يا سيدى الجنرال . . . انت نفسك التى نفيتها مع غيرها دون أن تدرك ذلك بسبب اضطرابات سنة ١٨٢٨ .

ترك صندوق الذهب حيث كان بينما اتضحت الامور فى ذهنه ، ولم يهتم بالمنفية بعد ذلك ، لأنه كان واثقا ، كما قال لجوزيه بالاسيوس من انها ستعود مع أعدائه المنفيين . بمجرد أن يبتعد عن سواحل قرطاجة . وقال :

— لا ريب ان كاساندر يعد الآن أمتعته .

والواقع أن الكثيرين من المنفيين عادوا بمجرد أن عرفوا أنه انطلق فى طريقه الى أوروبا ، ولكن الجنرال سانتاندر .

وهو رجل معروف بتردده الشديد وبنواياه التي لا يمكن سبرها ، كان من اواخر الذين عادوا ، فقد وضعه نبا استقالة الجنرال في حالة ترهب ، بيد انه لم يبد أية اشارة للعودة ولم يعجل رحلاته المتعطشة للدراسة التي بداها في مختلف بلاد اوروبا منذ ان هبط هامبورج في اكتوبر من العام الماضي . وفي الثاني من مارس قرا في « جورنال دى كومرس » أن الجنرال مات ، ومع ذلك فلم يبدأ رحلة العودة الطويلة الا بعد ستة شهور ، عندما أعادت له حكومة جديدة رتبته وامجاده العسكرية ، وانتخبه الكونجرس في غيابه رئيسا للجمهورية .

قبل أن يغادر الجنرال بومبوكس قام بزيارة ودية للرونزو كاركامو ، زميله القديم في الحرب ، وعرف عندئذ فحسب بأنه مصاب بداء خطير وانه نهض بالأمس لا شئ الا لكي يسلم عليه . ورغم ما يعانيه من مرضه ، كان كاركامو يحاول أن يسيطر على قواه ، وراح يتكلم في صوت مدو بينما كان يجفف بوسادته الدموع التي تنهمر من عينيه دون أن تكون لها أية علاقة بحالته الذهنية .

شكا كل منهما للآخر الألامه ، وتفاهة الشعوب وجحود النصر ، وصب كل منهما غضبه على سانتاندر الذي كان دائما موضوع حديث اضطرارى بينهما . لم يكن الجنرال صريحا هكذا غير مرات قليلة ، ففي خلال حملة ١٨١٣ شهد كاركامو مشادة عنيفة بين الجنرال وسانتاندر ، عندما رفض هذا الأخير اطاعة الأمر باجتياز الحدود لتحرير فنزويلا مرة ثانية . وظل الجنرال كاركامو يفكر في هذا الأمر الذي كان سبب البغضاء الخفية التي لم تستطع مسيرة التاريخ الا مغالاتها .

وكان الجنرال يظن أن هذه ليست نهاية صداقة كبيرة ، وانما على العكس بدايتها ، ولم يكن صحيحا أيضا أن أصل الخلاف هو الامتيازات الممنوحة للجنرال بايز . ولا الدستور

البوليفي التمس ، ولا التقليد الامبراطوري الذي فيه
الجنرال في بيرو ، ولا الرئاسة ولا مجلس الشيوخ اللذان حلم
بهما مدى الحياة من أجل كولومبيا ، ولا السلطات المطلقة
التي اضطلع بها بعد اتفاقية اوكانا - كلا . لم تكن تلك هي
الأسباب التي تسببت على مر السنين حتى مؤامرة الاغتيال في
الخامس والعشرين من سبتمبر ، في البغضاء المروعة .
فالسبب الحقيقي ، كما ذكره الجنرال هو أن سانتاندر لم
يقبل أبدا فكرة أن تتحد هذه القارة وأن تغدو بلدا واحدا .
فان وحدة أمريكا كبيرة جدا بالنسبة له . وألقى نظرة الى
لورنزو كاركامو الراقد في فراشه كما لو كان راقدا في
آخر ميدان حرب خاسرة الى الأبد، ووضع حدا للزيارة قائلا :
- وطبعاً لم يعد كل هذا يساوي شيئاً مادام الموت
ينتظرنا .

رآه لورنزو كاركامو ينهض حزينا ومكتئبا . وأدرك
أن الذكريات بالنسبة لهما معا أثقل من السنين - وعندما
احتجز يده بين يديه رأى أن كل منهما محموم وتسأل من
منهما سيزوره الموت أولا ويمنعهما من أن يرى أحدهما
الآخر ، وقال :

- ما أغرب هذه الدنيا يا عزيزي سيمون !

قال الجنرال : لقد سفهوها لنا ، والشئ الوحيد الذي
يبقى لنا هو أن يعود كل شئ ويبدأ من جديد .

قال لورنزو كاركامو : وسوف نفعل ذلك .

قال الجنرال : أما أنا فلا ، فلم أعد أصلح الا لصندوق
القمامة .

أعطاه لورنزو ، كتدكار ، مسدسين في جراب جميل من
الجوخ القرمزي . كان يعرف أن الجنرال لا يحب الأسلحة
النارية ، وأنه اختار في المناسبات النادرة الشخصية السيف .

ولكن هذين المسدسين كانت لهما قيمة معنوية لأنهما استخدما
فى مبارزة غرامية كانت نتيجتها سعيدة ، وقبلها الجنرال
متأثرا . وبعد ذلك ببضعة أيام ، عرف ، وهو فى تورباكو
أن الجنرال كاركامو قد وافته المنية .

استؤنفت الرحلة فى مساء الأحد ٢٣ مايو تحت فال
حسن . وقد راحت الزوارق تنساق مع المياه أكثر من انقيدها
للمجدفين مختلفة وراءها جروفا من الطباشير وسراب الكتبان
الرملية ، وبدت العوامات المصنوعة من جذوع الأشجار ،
هذه المرة أكثر وأسرع . وعلى العكس من تلك التى رآوها
فى الأيام الأولى ، أقيمت فوق تلك العوامات أكواخ صغيرة
بأحواض للزهور ، وثياب تجف على النوافذ ، وحملت بدجاج
مسيح وأبقار حلوب وأطفال معوقين يلوحون بأيديهم تحية
للزوارق حتى بعد مرورها بهم . وفى الفجر رأوا قرية
زامبرانو ، متألقة تحت أشعة الشمس الأولى .

كان ينتظرهم ، تحت الشجرة الضخمة بالميناء دون
كاستولو كامبيللو المكنى بالنينى . وكان قد أعد فى بيته
طاجنا من اليخنى باللحم تشريفا للجنرال ، وجاءت الدعوة
ردا على الأسطورة القائلة بأنه فى زيارته الأولى لزامبرانو ،
تناول الغداء فى نزل غير مشهور بشاطئ الميناء ، وصرح
وقتئذ من أنه لابد أن يعود مرة أخرى لتناول طاجن اللحم
الذى اشتهرت به المدينة . وقد انضمت صاحبة النزل بأهمية
صيفها فطلبت من آل كامبيللو ، وهى أسرة كريمة ، أن
تعيدها الأطباق ومقارن السفرة . ولم يتذكر الجنرال أبدا
تفاصيل تلك الزيارة الأولى ، ولم يتأكد لا هو ولا جوزيه
بالاسيوس من أن اليخنى هو نفس يخنى فنزويلا باللحم
السمين . ومع ذلك فقد اعتقد الجنرال كارينو أنه مطابق ،
وانهم سبق أن تناولوه فعلا على الشاطئ ، ولكن ليس أثناء
حملة النهر وانما قبل ذلك بثلاثة شهور ، عندما ركبوا

السفينة البخارية ، ووافقه الجنرال على شهادته في مواضع .
فقد كانت ذاكرته تضعف شيئاً فشيئاً وتثير قلقه .

اقيم غداء الرماة في الحديقة ، تحت اشجار اللور
الضخم ، وقدم فوق موائد مفروشة باوراق اللوز ، بييم
اعدت في الشرفة الداخنية للجنرال وضباطه وبعض المدعوين
مائدة فخمة طبقاً للمعادن الانجليزية الدقيقة . وودرت
صاحبة البيت ان اخبار مومبوكس فاجأتهم في الساعة
الرايمة صباحا ، وقد اسعفهم الوقت في آخر لحظة للتضحية
بأفضل بقرة من مواشيهم . وكانت فوق المائدة مقطعة في
قطع لذينة مسلوقة على نار حامية وفي ماء وفي ممزوج بكل
فواكه البستان .

وعندما علم الجنرال انهم اعدوا وليمة دون اختاره نيرم
واضطر جوزيه بالاسيوس الى ان يبذل كل جهده لكي يقنعه
بالتزول من الزورق . وقوبل بحفاوة اعدت اليه بشاشته ،
وأطرى بحق الذوق الجميل للبيت . ورقة فتيات الاسرة
الخبولات والظريفات اللاتي قمن بخدمة المائدة في يسر
ودعة . وأطرى على الخصوص نقاء الأوعية ورقة أدوات
المائدة الفضية المحفورة بشعار البيت الذي افلسته تصاريف
العهد الجديد ، ولكنه استخدم أدواته الخاصة لكي يأكل .

تسبب في استيائه الوحيد فرنسي يعيش في حمى آل
كامبيللو ، وحضر الغداء وهو يحرض كل الحرص على اطلاق
مثل هؤلاء الضيوف المرموقين على معلوماته حول الغاز هذه
الحياة والحياة الأخرى . فقد كل شيء في حادث غرق ،
واحتل البيت منذ ما يقرب من سنة هو وحاشيته من المساعدين
والخدم ، في انتظار نجدة غير أكيدة يجب أن تأتيه من
أورليانز الجديدة . وعرف جوزيه بالاسيوس ان اسمه
ديوكليس أطلانطيك ، ولكنه لم يستطع أن يعرف درجة
علمه ولا نوع المهمة التي يقوم بها في غرنادة الجديدة .

ولو انه كان عاريا وممسكا في يده شوكة ثلاثية لكان أشبه
بالملاك نبتون ، وكان مشهورا في الغربية بأنه رجل جلف
ولا يعنى بمظهره . ولكن الغداء مع الجنرال أثار انفعاله الى
حد أنه حضر المأدبة بعد أن اغتسل ونظف أظافره وارتدى
رغم حر شهر مايو زى الصالونات الشتوية في باريس :
السترة الزرقاء ذات الأزرار الزاهية والبنطلون المخطط
طبقا للموضة التي كانت شائعة في حكومة المديرين .

الذى منذ اللحظة الأولى في اذهان الجميع معرفة موسوعية
بلغت قشتالية سليمة . وقال ان أحد زملائه في المدرسة
الأولية بجرينوبل فك رموز الحروف الهيروغليفية المصرية
بعد أربع عشرة سنة من الارق ، وان الذرة لا تنتمي أصلا الى
المكسيك وانما الى منطقة بالعراق حيث عثروا على متخلفات
حجرية سابقة كولومبس الى جزر الانتيل ، وأن الأشوريين
حصلوا على أدلة اختبارية فيما يتعلق بتأثير النجوم على
الأمراض ، وان اليونانيين لم يعرفوا القطط الا في سنة
٤٠٠ قبل الميلاد ، على عكس ما تقول إحدى الموسوعات
الحديثة . وراح ينتهز الفرصة وينتقل من موضوع الى آخر ،
ولم يتوقف الا لكى يتدمر من العيوب الثقافية لفن الطهى
الكريولى .

وكان الجنرال جالسا أمامه ، ولم يمره أكثر من اهتمام
مهذب ، متظاهرا بأنه يأكل دون أن يرفع عينيه عن طبقه .
حاول الفرنسي منذ البداية أن يحدثه بلغته وراح الجنرال
يرد عليه بنفس اللغة بركة ، ولكنه كان يعود على الفور الى
اللغة الاسبانية . ودهش جوزيه بالاسيوس في ذلك اليوم
لتجمله بالصبر ، وهو يعرف الى أى حد يثير الاستبداد
الأوروبى سخطة .

كان الفرنسى يوجه الحديث بصوت عال الى المدعوين
المختلفين حتى البعيدين جدا . ولكن كان من الواضح أن

اهتمام الجنرال هو وحده الذى يستأثره ، وسأله فجأة فى صوت متهافت كيف سيكون فى النهاية نظام الحكومة بالنسبة للجمهوريات الجديدة ، وسأله الجنرال بدوره من غير ان يرفع عينيه عن طبقه :

ـ وأنت ، ما رأيك ؟

أجاب الفرنسى : أظن أن نظام بونايرت مناسب لنا وللعالم أجمع .

قال الجنرال بذون أن يخفى سخريته : لا أشك لحظة واحدة فى اعتقادك هذا ، فالأوروبيون يفكرون أن ماتبتكره أوروبا فحسب خير للدنيا كلها ، وكل ما هو مخالف ممقوت .

قال الفرنسى : كنت أظن ان فخامتك المحرض للنظام الملكى .

رفع الجنرال عينيه للمرة الأولى وقال : أنت لا تعرف شيئاً على الاطلاق اذن . لن يدنس جيبينى تاج أبدا .

وأشار بأصبعه الى ملازميه واستطرد : وايتوريبيد هنا لكى يذكرنى بذلك .

قال الفرنسى : وبهذه المناسبة ، فان التصريح الذى أدليت به عندما أعدموا الامبراطور بالرصاص قد أحيا أملا كبيرا عند الملكيين الأوروبيين .

قال الجنرال : لن أغير كلمة واحدة مما قلت فى تلك المناسبة . اننى أشعر بكل اعجاب لاقدام ايتوريبيد على مثل هذه الأشياء الخارقة ، ولكن لينقذنى الله من مصيره كما حفظنى من تصرفاته ، رغم أننى أعلم أنه لن يخلصنى أبدا من نفس الجمود .

وحاول أن يخفف من مرارته وقال ان مبادرة اقامة نظام ملكى فى الجمهورية قد طرحها الجنرال جوزيه أنطونيو بايز .

ثم تضاعفت مدفوعة بكل أنواع المصالح الخاطئة ، وأنه مو نفسه قد انتهى به الأمر الى التفكير فيها ولكن مستترة تحت قناع رئاسة طوال الحياة كصيغة يائسة للحصول على وحدة أميركا والحفاظ عليها بكل ثمن . ولكنه لم يلبث أن تحقق من عدم منطقية ذلك . واختتم حديثه قائلا :

— والأمر على النقيض مع النظام الاتحادى، فيخيل لي أنه ممتاز جدا لبلادنا لأنه يمتضى مزايا ومواهب ارفع بكثير لمواطنينا .

قال الفرنسى : ليست الأنظمة على كل حال هى التى تجرد التاريخ من انسانيته وانما الافراط فيها .

قال الجنرال : اننا نعرف هذا الكلام عن ظهر قلب، وهو فى الواقع نفس حماقة بنجامان كونستان، اكبر رجال أوروبا طليشا ، فقد كان ضد الثورة التى قاومت نابليون . ثم غدا بعد ذلك واحدا من أنصاره ، ينال فى أغلب الأحيان جمهوريا . ويستيقظ ملكيا أو العكس بالعكس . ثم جعل من نفسه أمينا . مطلقا لحقيقتنا بفضل سلطة أوروبا المطلقة .

قال الفرنسى : ان حجج كونستان ضد الاستبداد واضحة جدا .

— ان مسيو كونستان ، مثل كل الفرنسيين ، متعصب للمصالح المطلقة . والشئ الوحيد الواضح فى هذه المجادلة ذكره الراهب براد ، فهو يقول ان السياسة تخضع للمكان وللحظة التى تقع فيها ، فأثناء الحرب الطاحنة أصدرت أنا نفسى أمرا باعدام ثمانمائة أسير اسبانى فى يوم واحد ، بما فى ذلك مرضى مستشفى لاجويارا . واليوم ، وفى ظروف مماثلة ، لن يرتعش صوتى لكى أصدر هذا الأمر من جديد ، ولن تكون للأوروبيين أية سلطة معنوية لكى يلومونى على ذلك ، لأنه لو كان هناك تاريخ غارق فى الدم والظلم فهو تاريخ أوروبا بالذات .

كان كلما يتعمق فى التحليل يؤجج غضبه بالذات فى الصمت المطبق الذى كان يبدو أنه ينتشر فى القرية كلها - وحاول الفرنسى المدهول أن يقاطعه ولكن الجنرال اوقفه بحركة من يده ، وذكره بالمذابح الفظيعة فى التاريخ الأوروبى ، وليلة سان بارتليمى التى بلغ فيها عدد الموتى ألفين فى ساعتين ، وفى بهاء عصر النهضة قام اثنا عشر ألفا من الجنود المرتزقة الذين يعملون لحساب الجيوش الامبراطورية بنهب وسلب روما ، وذبحوا ثمانية آلاف من مواطنيها ، وايفان العظيم قيصر كل الروسين والمعروف باسم الرهيب أهلك جميع أهالى المدن الواقعة بين موسكو ونوفجورود ، وفى تلك المدينة الأخيرة قتل فى هجوم واحد أهاليها العشرين ألفا لأنه شك فى أنهم يتآمرون ضده .

واختتم الجنرال حديثه بأن قال :

— بحيث اننى أرجوك ألا تملى علينا ما يجب أن نعمل ، ولا تحاول أن تعلمنا كيف يجب أن نكون ، ولا تحاول أن تجعل منا أندادا لكم ، ولا تطالبنا بأن نحسن ما أفسدتموه أنتم فى ألفى سنة .

وعقد الشوكة والسكين فوق طبقه ، وحدق فى الفرنسى لأول مرة بعينيه الفاضبتين وقال :

لا تتدخل فيما لا يعنيك يا سيدى ، ودعنا نفعل
بالعصر المتوسط ما نرى أنه الأفضل .

ضاقت أنفاسه واعترتة نوبة جديدة من السعال ، ولكن عندما استطاع التغلب عليها كان غضبه قد تبخر ، وتحول الى نينى كابللو ، وكافأه بأحسن ابتساماته وقال له :

— سامحنى يا صديقى العزيز ، فمثل هذه الأقوال غير
جديرة بمثل هذه المأدبة المشهودة .

روى الكولونل ويلسون هذا الحادث لأحد مؤرخى ذلك الوقت . ولكن المؤرخ لم يحاول أن يسجله وقال : ان الجنرال المسكين رجل ضائع - والواقع أن جميع من رأوه فى هذه الرحلة الأخيرة كانوا مقتنعين من ذلك ، ولا ريب أن هذا هو السبب فى أن ما من أحد ترك شهادة مكتوبة ، بل ان بعض حاشيته بلغ بهم الأمر الى أنهم ذكروا ان الجنرال لن يدخل التاريخ .

كانت الغاية أكثر كثافة بعد زامبرانو . وغدت الفرى أكثر مرحا وأزهى لونا ، وفى بعض منها صدحت الموسيقى دون سبب ظاهر . واستلقى الجنرال فى أرجوحته محاولا هضم وقاحات الفرنسى بفضل قيلولة مهدئة . ولكن لم يكن ذلك يسيرا عليه فلم يستطع أن يقصيه عن ذهنه . واشتكى لجوزيه بالاسيوس بأنه لم يجد فى الوقت المناسب العبارات الصائبة والحجج النهائية التى وأتته الآن . فى وحدة أرجوحته ، وقد أصبح غريمه بعيدا عنه ، ومع ذلك ، فقد أحس بأنه على ما يرام فى المساء ، وأصدر تعليماته للجنرال كارينو لكى تحاول الحكومة تخفيف مصير الفرنسى المغضوب عليه .

أطلق أغلب الضباط العنان لمرحهم وسرورهم بسبب وجودهم على مقربة من البحر . وقد شجعهم على ذلك أدراكهم بتقلبات الطبيعة . فراحوا يمدون يد العون للمجدفين ، ويصطادون التماسيح بحرا بهم ويعقدون أسهل المهمات باستخدام طاقاتهم المخزونة فى الأعمال الشاقة . وعلى العكس راح جوزيه لورنسيو سيلقا ينام بالنهار ويشغل بالليل كلما أمكنه ذلك وهو فريسة لخوف قديم من أن يغدو ضريرا بسبب اصابة عينه بالماء الأزرق كما حدث لأغلب أعضاء أسرته من ناحية أمه . كان يقوم فى الليل لكى يتعلم كيف يعمل اذا ما أصبح ضريرا . وقد سمعه الجنرال كثيرا ، أثناء أرقه ، فى المعسكرات يقوم بأعماله اليدوية ، فينشر خشب الأشجار

ويصقله بالفارة ويضم قطعه مخففا صوت المطارق حتى لا يقلق أحلام الآخرين - وفى صباح اليوم التالى ، فى وضع النهار كان من الصعب أن يصدق أحد أن مثل تلك الأعمال قد تمت فى الظلام ، وفى بورتوريال ، أثناء الليل ، أسعف الوقت جوزيه لورنسيو سيلفا بأن ينطق بكلمة السر للحارس الذى أوشك أن يطلق عليه النار معتقدا أنه يحاول أن يتسلل فى الليل الى أرجوحة الجنرال -

أصبح الإبحار أكثر سرعة وسهولة ، والطارىء الوحيد تسببت فيه سفينة بخارية للكومودور البرس مرت فى الاتجاه المضاد وهى تصفر ، وعرضت دوامتها الزوارق للخطر - ونظر الجنرال إليها فى تفكير حتى ابتعد الخطر واختفت السفينة بمن بصره وتمتم « المحرر » ثم قال كأنه يقرب صفحة من كتاب : « والعجيب أنه أنا » -

وظل ساهرا فى أرجوحته طوال الليل ، فى حين راح المجدفون يتسللون بالتحقق من أصوات الغاية : القروود الكبوشية والبيغاوات والأفاعى - وفجأة روى أحدهم أن آل كامبيللو دفنوا فى الحديقة أنية المطبخ الانجليزية والأقداح الكريستال والمفارش الهولندية ، مخافة من أن يكون السل معديا -

كانت هذه أول مرة يسمع فيها الجنرال بذلك التشخيص العامى رغم أنه كان معروفا بطول النهر ، ولن يلبث أن يعرفه جميع من فى الساحل ، وأدرك جوزيه بالاسيوس أن ذلك التشخيص قد أزعج الجنرال لأنه كف عن التراجع فى أرجوحته ، وبعد تفكير طويل قال :

- اننى استخدمت أدواتى الخاصة فى تناول طعامى -

وفى صباح اليوم التالى رست الزوارق فى مرفأ تينيريف لتعويض المؤن التى غرقت فى البحر - وبقي الجنرال فى

زورقه متخفيا ولكنه أرسل ويلسون للبحث عن تاجر فرنسى يدعى لينوا أو لينوار ، له ابنة تدعى أنيتا ، فى الثلاثين من عمرها . واذ لم يسفر البحث فى تينيريف عن شىء أصدر امره بمتابعة التحرى فى القرى القريبة من جاتيانو وسالامينا «البنيور حتى اضطر ان يسلم بالواقع ، بأن الأسطورة لا تستند على أى أساس من الصحة » .

كان اهتمامه مفهوما لأنه طوال سنوات ، من كاركاس حتى ليما لاحقته اشاعة خادعة بأنه وقع بينه وبين أنيتا لينوا حب محرم وجنونى أثناء مروره بتينيريف فى ذروة حملة النهر . وازعجته تلك الاشاعة رغم أنه لم يستطع أن يفعل شيئا لتكذيبها ، أولا لأن أباه «الكولونل جوان فيسنت بوليفار كان هو الآخر ضحية ملاحقات كثيرة وقضايا أمام اسقف قرية سان ماتيو بسبب اغتصابات مزعومة لبنات قاصرات وحتى لفتيات ناضجات ، وبسبب صداقاته المنحرفة مع نساء آخر كثيرات فى الممارسة الملتهبة لحقه فى التفخيز ، وثانيا لأنه أثناء حملة النهر لم يبق فى تينيريف غير يومين . وهى مدة غير كافية لمثل هذا الحب العنيف . ومع ذلك فان الأسطورة تدعمت بحيث انه كان فى مقبرة تينيريف قبر فوقه شاهد محفور باسم آن لينوار ، كان حتى آخر القرن مزارا للعشاق .

كانت الآلام التى يحس بها جوزيه مارفا كارينو ، من حاشية الجنرال ، بسبب ذراعه المبتورة ذريعة لتهمات ودية . كان يحس بحركات يده ويتأثر بملامسة أصابعه وبالألم الذى تسبب له فى الجو السيئ عظامه غير الموجودة . ولكنه كان يحتفظ بما يكفى من المجون لكى يضحك من نفسه ، وفى المقابل ، كانت تقلقه عادته فى الرد على الأسئلة وهو نائم . كان يتحرر من غير أن يمنعه أى شىء فيكشف عن أمور وأشياء ما كان الا ليحتفظ بها لنفسه لو أنه فى حالة اليقظة . بل انهم اتهموه ذات مرة ، دون أية أدلة . بأنه أفشى سرا

عسكريا . وفى الليلة الأخيرة من الایجار ، بينما كان يسهر على مقربة من أرجوحة الجنرال ، سمعه جبوزيه بالاسيوس يقول وهو فى مقدمة الزورق :

— سبع آلاف وثمانمائة واثنان وثمانين .

سأله جوزيه بالاسيوس : عم تتكلم ؟

أجابه كارينو : عن النجوم .

فتح الجنرال عينيه مقتنعا بأن كارينو يتكلم وهو نائم ، واعتدل فى أرجوحته لكى يرى السماء من خلال النافذة . كانت ليلة ليلاء ومتألقة ، والنجوم ظاهرة ، ليس بين كل منها فراغ فى السماء . وقال :

— لا ريب أن هناك أكثر مما تقول بعشر مرات .

قال كارينو : بل كما قلت ، بالإضافة الى نيزكين سرا بينما كنت أحصيتها .

هبط الجنرال عندئذ من أرجوحته ، ورآه راقدا على ظهره ، فى مقدمة الزورق وعلى صدره العارى ندوب متشابكة . وهو مستيقظ تماما ، ويعد النجوم بذراعه المبتورة . هكذا وجدوه بعد معركة سيرتيوس بلانكو بالفنزويلا ، غارقا فى دمه ، ونصف ذراعه مقطوع ، وتركوه طريحا فى الوحل معتقدين بأنه مات . كان به أربعة عشر جرحا أصابته بها السيوف ، وكان أكثرها السبب فى فقدان ذراعه . وفيما بعد أصيب بجروح أخرى فى معارك مختلفة ، ولكن معنويته بقيت سليمة ، وتعلم أن يكون حاذقا كل الحذق بيده اليسرى بحيث اشتهر بضراوته فى استخدام الأسلحة وفى الكتابة بخط جميل أيضا .

قال كارينو : حتى النجوم لا تفلت من انعدام الحياة ، فهناك منها اليوم أقل مما كانت عليه منذ ثمانى عشرة سنة .

قال الجنرال : أنت مجنون .

قال كارينو : كلا . اننى عجوز ولكننى أرفض التسليم بذلك .

قال الجنرال : اننى أكبر منك بثمانية أعوام .

قال كارينو : ان كلا من جروحي يساوى سنتين . ولهذا فأنا أكبر منك سنا .

قال الجنرال : فى هذه الحالة فإن جوزيه لورنسيو يجب أن يكون الأكبر سنا ، فقد أصيب بستة جروح من الرصاص وسبعة بالحرايب واثنين بالسهام .

اغتاظ كارينو وأجاب بغضب خفى :

— وأنت أصغرنا سنا . فأنت لم تصب بأى جرح .

لم تكن هذه أول مرة يسمع فيها الجنرال هذه الحقيقة كأنها عتاب ، ولكنه لم يشعر بأى استياء وهو يسمعها من بين شفتى كارينو لأن صداقتهما اجتازت أشد المحن قسوة . وجلس بجواره لكى يساعده على تأمل نجوم النهر . وعندهما تكلم كارينو من جديد ، بعد وقفة طويلة ، كان قد غرق فى هوة الحلم .

— اننى أرفض التسليم بأن الحياة تنتهى مع هذه الرحلة .

قال الجنرال : لا تنتهى الحياة الا بالموت ، ومع ذلك فإنها تنتهى بطرق أخرى ، وبعضها أكثر وقارا .

رفض كارينو قبول ذلك وقال : يجب أن نفعل شيئا ولو لكى نأخذ حماما جيدا بنبات الكاريمايتو البنفسجى ، ولا أعنى نحن وحدنا وانما جيش التحرير كله .

لم يكن الجنرال قد سمع أثناء رحلته الثانية الى باريس شيئا عن الحمامات الكاريمايتية البنفسجية ، تلك الزهرة

الملتوية المعروفة فى بلدها لخصائصها ضد النحس والمصير السيئ . كان الدكتور ايميه بومبلاند ، معاون همبولد قد حدثه بكل اهتمام عن مزايا تلك الزهور وفى نفس الوقت تعرف بقاض فرنسى جليل قضى شبابه فى كاراكاس ، وكان يتردد كثيرا فى الصالونات الأدبية بباريس بشعره الرائع ولحيته الوقورة المصبوغة باللون البنفسجى بسبب الحمامات المظهرة .

كان يسخر من كل ما يمت الى الخرافة او الخدع الخارقة ، وكل بدعة مخالفة لعقلانية مدرسه سيمون رودريجز . كان قد بلغ العشرين من عمره وترمل بعد ذلك بقليل ، وكان ثريا . وأذهله تتويج نابليون بونابرت وأصبح ماسونيا ، ويستظهر عن ظهر قلب ، وبصوت مرتفع صفحاته المفضلة من كتابى . « اميل » و « هيلواز الجديدة » لروسو . وهما الكتابان اللذان يحتفظ بهما على رأس سريره . وقد سافر على قدميه فى أوروبا كلها ويده فى يد مدرسه ، ومزودته فوق ظهره . على أحد تلال روما ، وهو يرى المدينة تحت قدميه ، أطلق سيمون رودريجز أحد تنبؤاته عن مصير البلاد الأمريكية . وكان هو أكثر وضوحا اذ قال :

— ما يجب أن نفعل هو أن نطرد من فنزويلا هؤلاء الاسبان المنحوسين وأن نركلهم بالأقدام . وأقسم باننى سوف أفعل ذلك .

وعندما بلغ سن الرشد استطاع التصرف فى ميراثه ، وانطلق نحو نوع الحياة التى يتطلبها جنون العصر وحماس طبعه ، وأنفق خمسين ألف فرنك فى ثلاثة شهور . ونزل فى أغلى الغرف بأغلى فندق فى باريس ، وألحق بخدمته خادمين بثياب رسمية ، وراح ينتقل فى عربة تجرها خيول بيضاء وسائق تركى ، ويتخذ عشيقة مختلفة طبعا للمكان . تارة على مائدته المفضلة بملهى بروكوب ، وتارة فى الحفلات الراقصة

بمونمارتر ، وأخرى فى مقصورته الخاصة بمسرح الأوبرا .
وكان يذكر لمن يريد أن يصدقه أنه خسر ثلاثة آلاف بيزوس
فى لعبة الروليت فى ليلة نحس .

وعندما عاد الى كاراكاس ، بقى أقرب لروسو من قلبه
هو بالذات ، واستمر يقرأ بحب مخجل نسخة من هيلويز
الجديدة كانت تتمزق بين يديه - ومع ذلك وقبل محاولة
الاغتيال فى الخامس والعشرين من سبتمبر بعد أن بر بقسمه
الرومانى ، قاطع مانويلا ساينز أثناء قراءتها « اميل » للمرة
العاشرة ، فقد خيل اليه أنه كتاب بغيض وقال لها : لم أشعر
بالضجر فى أى مكان الا فى باريس ، فى السنة الرابعة -
ومع ذلك فقد خيل اليه هناك أنه سعيد ، بل أسعد من فى
الأرض قاطبة دون أن يصبغ مصيره بالمياه الكاريايتيكية
المتندرة .

بعد ذلك بأربع وعشرين سنة ، وهو مستغرق فى سحر
النهر ، محتضر ومهزوم ، لعله تساءل ان كان سيجد الشجاعة
لكى يتخلص من أوراق الصعتر والمريميه والبرتقال المر التى
يضعها جوزيه بالاسيوس فى مياه البانيو لكى يستحم بها
بناء على نصيحة من كارينو ، ويفرق فيها مع جيوشه من
المتسولين وأمجاده العديمة الجدوى وأخطائه التى لا تنسى
والوطن كله حتى أعماق محيط منقذ من المياه الكاريايتيكية
البتفسجية .

كانت ليلة صمتها مطبق كما فى مصبات الأنهار الضخمة
فى السهول التى يتيح فيها الصدى سماع أحاديث خاصة حتى
على بعد فراسخ عديدة - عاش كريستوف كولومب لحظة
كهنده. وكتب فى يومياته : « أحسست طوال الليل بالطيور وهى
تمر » لأنه بعد تسعة وستين يوما من الابحار كانت الأرض
قريبة - وقد أحس الجنرال بها هو الآخر - بدأت الطيور
تمر فى نحو الساعة الثامنة بينما كان كارينو راقدا - وبعد

ذلك بساعه . كان فوق راسه الكثير منها ، وكانت أجنحتها تهتز بقوة أكثر من اهتزاز الرياح . وبعد قليل بدأت تتسرب تحت الزوارق أسماك ضخمة تائهة بين نجيوم الأعماق . وزكمت الأنوف طلائع عفونة ونتاجة الشمال الشرقي . ولم يكن من الضروري رؤية ذلك الاحساس النادر بالحرية للتعرف على تلك القوة القاسية التي تصل الى القلوب ، وتنهى الجنرال قائلا :

— أي رب الفقراء . . . اننا نصل .

وكان هذا صحيحا ، فقد كان البحر هناك ، وفي الجانب الآخر منه ، الدنيا .

حيث انة نان من جديد فى تورباكو . فى نفس البيت
ذى الغرف القليلة الضوء والأزوقة الكبيرة القمرية والنوافذ
المظلة على الساحة المغطاة بالعصباء ، والحديقة الرهبانية .
حيث راح شبح دون أنطونيو كابالليزو ايجونجورا ، أسقف
ونائب ملك غرناطة الجديدة . يتخفف ، فى ليالى القمر ، من
أخطائه وديونه التى لا تحصى وهو يتمشى بين أشجار البرتقال ،
وفى حين كان الجو العام للساحل مضطربا ورطبا فان
جو تورباكو كان جميلا وصحيا ، لأن المكان كان يقع فوق
مستوى البحر . والأنهار تحفها أشجار الغار الضخمة ذات
الجذور المتلامسة التى يستلقى الجنود فى ظلها للقيولة .

كانوا قد وصلوا أمس الأول الى بارانكا نوفا ، وهى
النهاية التى طالما توقعوها للرحلة النهارية . وامضوا ليله
سيئة فى كوخ كبير غير صحى ، بين أكوام من اكياس الارز
المكدسة بعضها فوق بعض ، والجلود الخام لأنه لم يحجز لهم
فندق ، ولأنهم طلبوا البغال فى آخر لحظة ، ولم تكن قد
جهزت بعد . بحيث ان الجنرال وصل الى تورباكو مبتلا
ومتألما ويتمجل النوم الذى أبى الا أن يجافيه .

ولم يكونوا قد فرغوا من انزال حمولتهم عندما انتشر
نبا وصولهم الى قرطاجنة ديزاند ، وتقع على بعد ستة فراسخ
حيث أعد الجنرال بونتيللا ، المدير العام والحاكم العسكرى
للاقليم احتفالا شعبيا لأجل الغد ، ولكن لم يكن للجنرال أية
رغبة فى الاحتفالات المتيسرة ، وحيا الذين ينتظرونه على
الطريق العام ، تحت المطر المنهمر . يتدفق الذى يلتقى
بقدامى الأصدقاء ، ولكنه رجاهم بنفس الصراحة أن يتركوه
وحده .

والواقع أن حالته كانت أسوأ مما ينم عنه مزاجه العكر ،
رغم أنه كان يحاول إخفاءه . وكانت حاشيته تترى ، يوما بعد
يوم ، اضمحلال صحته . ولم تكن روحه تستطيع تحمل المزيد .
وتحول لون بشرته من اللون الأخضر الباهت الى اللون الاصفر
المميت . كان محموما ، وبلغ صدادعه الزبى . وافترح
الكاهن الاستعانة بطبيب ولكنه اعترض على ذلك قائلا : « لو
أنتى أصغيت الى أطبائى فقد كان يمكن أن توارونى الثرى
منذ وقت طويل » . أقبل وفي نيته متابعة الرحلة الى
قرطاجنة فى اليوم التالى ، ولكنه عرف فى الصباح أنه
لا توجد أية سفينة منطلقة الى أوروبا ، ثم ان جواز السفر
لم يصل مع البريد الأخير ، وقرر عندئذ أن يستجم ثلاثة
أيام ، وابتهج ضباطه لهذا الخير لأنه سيريح جسده . ولأن
المعلومات الأولى التى جاءتهم سرا من فنزويلا لم تكن ملائمة
لروحه .

ومع ذلك ، فلم يسعه أن يمنع اطلاق الصواريخ حتى
انتهاء البارود . ولا أن يقيموا على مقربة فرقة من عازفى
الجيتار ظلت تعزف حتى وقت متأخر من الليل . وأحضروا
أيضا من الملاحات المتاخمة لماريا لاباجا فرقة من الرجال
والنساء السود الذين يرتدون زى ممالقى القرن السادس
عشر ، راحوا يقلدون ، ساخرين ، الرقص الاسبانى على
الطريقة الأفريقية ، وقدموها اليه لأنها كانت قد أعجبت
كثيرا فى زيارته السابقة ، وطلبها قبل ذلك مرات عديدة .
ولكنه فى هذه المرة لم يحفل بها وقال :
— أبعدوا هذه الضوضاء من هنا .

بنى نائب الملك ، كابليرو ايجونجورا البيت وأقام فيه
ثلاث سنوات ، وكانوا ينسبون صدى الخرف الشبى الى
تيهان روحه المسحورة ، ولم يشأ الجنرال العودة الى الغرقة
التي أقام فيها فى المرة السابقة وهو يقول عنها انها غرفة

كوايبس ، لأنه رأى فيها فى المنام كل ليلة امرأة ذات شمر
مشتعل ، تربط حول عنقه شريطا أحمر حتى يستيقظ .
وهكذا دواليك مرات عديدة حتى يبرز الفجر . بحيث أنه
أصدر أمره بأن يعلقوا أرجوحته فى القاعة ، ونام فيها
لحظة من غير أن يحلم . وكان المطر ينهمر مبرارا ، ووقفت
جماعة من الأطفال أمام النافذة ، فى الخارج تنظر اليه وهو
نائم . وأيقظه أحدهم بصوت خافت «بوليفار . . بوليفار» .
وبحث عنه خلال ضباب من الحمى . وسأله الطفل قائلا :
« هل تعبني » .

رد عليه الجنرال بالايجاب بابتسامة مرتعشة . ثم أصدر
أمره بطرد الدجاج الذى يتسكع فى البيت فى كل وقت ،
وابعاد الأطفال من النوافذ ، وعاد الى النوم . وعندما
استيقظ كان المطر ما يزال ينهمر ، وجوزيه بالاسيوس يبعد
الناموسية لتعليقها فوق الأرجوحة . فقال له :

— حلمت بطفل خلف النافذة ألقى على أسئلة غريبة .

ورضى أن يتناول شرابا ، وهو أول شيء يتناوله منذ
أربع وعشرين ساعة . ولكنه لم يستطع احتساءه كله . وعاود
النوم فى أرجوحته وهو خائر القوى ، وبقي مدة طويلة
غارقا فى تفكير غسقى ، متأملا صيفا من الخفافيش المتعلقة
فى أعمدة السقف ، وتنهد أخيرا وقال :

— أصبحنا لا نصلح الا للدفن فى مقابر الفقراء .

كان سخيا جدا مع الضباط القدماء والجنود البسطاء
بجيش التحرير ، الذين ظلوا طوال رحلتهم بالنهر ، حتى
تورباكو ، يروون له مصائبهم حتى لم يتبق لديه غير ربع
المال انخاص بالرحلة ، وكان لابد من التحقق مما اذا كانت
الحكومة الاقليمية ماتزال تملك فى خزائنها من الأموال
ما يمكنها من سداد أمر الدفع أو اذا كان يمكنها ، على الأقل ،

بيعه الى أحد المضاربين بالبورصة - أما ينصوس اهاما -
العاجله فى اوروبا فقد كان يعتمد على امتنان انجلترا السى
قدم لها الكثير من الخدمات ، وكان من عادته أن يقول : « ان
الانجليز يحبوننى » ولكى يعيش بما يليق بكرامته مع حنينه
وخدمه وعدد محدود من حاشيته كان يأمل أن يبيع مناجم
أروا - ومع ذلك ، واذا أراد أن يرحل حقا فان ثمن النذاكر
ونفقات رحلته هو وحاشيته تمثل ضرورة عاجلة ، وما تبقى
معه لا يسمح له حتى بذلك ، ولم يكن ينقصه الا المدول عن
مقدرته الأبدية فى التوهم فى اللحظة التى يحتاج فيها الى
ذلك أكثر من أى وقت آخر - ولكنه لم يفعل شيئا من ذلك .
ورغم أنه كان يتوهم أنه يرى بعض العشرات التى لا وجود
لها ، بسبب الحمى أو الصداغ ، فقد تغلب على النعاس الذى
جمد معنوياته ، وأمل ثلاث رسائل على فرناندو .

كانت الأولى ردا من قلب مفتوح على وداع المارشال
سوكريه ، ولم يعلق فيه على مرضه رغم أن من عادته أن يفعل
ذلك فى حالات مثل الحالة التى تعرض لها بعد ظهر اليوم .
حيث كان بحاجة قصوى الى الشفقة - وكانت الرسالة الثانية
الى جوان دى ديوس أمادور - حاكم قرطاجنة يلتمس فيها من
الخزانة العامة دفع ثمانية آلاف بيزوس ذهباً ، وقال : « اننى
رجل فقير - وأنا بحاجة الى هذا المبلغ للرحيل » - وقد لقى
الالتماس قبولا على الفور - ومضى فرناندو الى قرطاجنة
لاستلام المبلغ - أما الرسالة الثالثة فموجهة الى الوزير
الكولومبى فى لندن - وهو الشاعر جوزيه فرنانديز مدريد ،
يلتمس فيها سداد خطايبى اعتماد كان الجنرال قد أرسلهما ،
الأول لأمر سير روبرت ويلسون والثانى لأمر الأستاذ الانجليزى
جوزيه لانكاستر الذى يدينون له بعشرين ألف بيزوس لأنه
أقام فى كراكاس نظامه الجديد فى التعليم المشترك ، وقال
فيها « ان شرفى فى الميزان » لأنه كان يعتقد أن قضيته
القديمة سوف تحل وان المناجم ستباع - وكانت الرسالة

عديمة الجدوى، فعندما وصلت الى لندن كان الوزير فرناندو
مدريد قد مات -

كان الضباط يلعبون الورق ويتجادلون بأصوات عالية
في الرواق الداخلي ، تحت نافذة الجنرال ، فأشار جوزيه
بالاسيوس اليهم لكي يصمتوا ، ولكنهم ظلوا يتجادلون في
صوت خافت حتى دقت ساعة الكنيسة المجاورة . معلنة
الحادية عشرة ، وبعد ذلك بقليل سكنت القيثارات والطبول،
وجرفت نسمة البحر البعيدة السحب الكبيرة السوداء التي
تجمعت من جديد بعد سيل الأصيل ، وارتفع القمر بدرًا فوق
أشجار البرتقال بالحديقة .

لم يكف جوزيف بالاسيوس لحظة واحدة عن الاهتمام
بالجنرال الذي كان يهذى من الحمى في أرجوحته منذ بداية
الليل . وأعد له المشروب المعتاد وعالجه بحقنة شرجية
بالسنا ، في انتظار أن يجروا أحد له سلطة أكبر من سلطته
ويقترح استدعاء طبيب ، ولكن لم يجروا أحد على ذلك - ولم
ينم الجنرال أكثر من ساعة عند الفجر .

تلقى في ذلك اليوم زيارة الجنرال ماريانو مونتيللا ،
الذي أقبل برفقة جماعة مختارة من أصدقائه القدامى
بقرطاجنة ، ومنهم جوان جارسيا دلريو ، وجوان دي
فرانسيסקو مارتين . وجوان دي ديوس أمادور ، المعروفين
بالثلاثي جوان . من الحزب البوليفاري . وريع الثلاثين وهم
يرون الجسد المتلاشي الذي حاول النهوض في أرجوحته والذي
لم يجد القوة لكي يعانقهم جميعا . كانوا قد رأوه في
الكونجرس العظيم الذي اشتركوا فيه ، ولم يصدقوا أنه
اضمحل بهذه الصورة في مثل هذا الوقت القصير . كانوا
يرون عظامه من خلال بشرته . ولم يستطع أن يثبت بصره ،
ولا بد أنه كان مدركا من ثنانة وسخونة أنفاسه لأنه حرص
على أن يكلمهم عن بعد ومن غير أن يواجههم الا بجانب من

وجهه - ولكن الشيء الذى أثر فيهم أكثر من غيره هو أنه تضاعف الى حد أن الجنرال مونتيلا أحس وهو يعانقه أنه لا يكاد يصل الى مستوى صدره هو بالذات -

كان وزنه ثمانية وثمانين رطلا ، ولا ريب أنه نقص عشرة أرطال فى عشية موته - وكان طول قامته الرسمية مترا وخمسة وستين سنتيمترا ، رغم أن بطاقاته الطبية لم تكن لتتطابق دائما أبدا مع بطاقاته العسكرية - وقد نقصت قامته فوق طاولة التشريح أربعة سنتيمترات - وبالنسبة لجسده ، كانت قدماه قد تضاعفتا كيديه ، ولاحظ جوزيه بالاسيوس أن سراويله ترتفع حتى صدره ، وأنه لا بد من تشمير أكمام قمصانه - وأدرك الجنرال دهشة زائريه ، واعترف بأن جزمته قد اتسعت على قدميه منذ شهر يناير - ووضع الجنرال مونتيلا ، المشهور بدعاباته فى أقل المواقف ملاءمة ، حدا لتأثره بأن قال :

— المهم ألا تتضاعف فخامتك من الداخل -

وصاحب دعابته ، كماداته ، بقهقهة عالية بدت أشبه بطلقات من الرصاص ، ورد عليه الجنرال بابتسامة متواطئة وغير الموضوع - كان الوقت مناسبا وأفضل للحديث ، ولكنه فضل أن يستقبل زائريه وهو فى أرجوحته - فى نفس الغرفة التى رقد فيها -

كان الموضوع الرئيسى هو حالة الأمة ، فقد رفض بوليفاريو قرطاجنة الاعتراف بالدستور الجديد وبالنواب بحجة أن الطلبة السانتاندرين مارسوا ضغوطا ممنوعة على الكونجرس ، فى حينبقى العسكريون الأوفياء على الحياد ، انصياعا لأمر الجنرال - ولم يجد رجال الدين الذين يؤيدونه الفرصة لادلاء أصواتهم - وكان الجنرال فرانسيسكو كارمونا ، قائد إحدى حاميات قرطاجنة ونصير قضيته على

وشك القيام بتمرد وكان بذلك قائما دائما . ولكن الجنرال طلب من مونتيلا أن يرسله اليه ليحاول تهدئته ، ثم خاطب الجميع ، ولكن من غير أن ينظر الى أحد منهم بالذات ، وأوضح لهم الطريقة الفظة للحكومة الجديدة قائلا :

— ان موسكيرا جبان وكايسيدو مهرج ، وكلاهما قد وقع فى قبضة مدعى سان پارتولوميو .

كان معنى قوله أن الرئيس ضعيف وأن نائبه انتهازى قمين بأن يغير الحزب طبقا لهبوب الرياح ، وأوضح بمرارة ميزت أسوأ سنيه أنه ليس من المستغرب أن يكون كل منهما اخا لقسيس . وفى المقابل بدا له الدستور الجديد أفضل مما كان يأمل فى هذه اللحظة التاريخية حيث لم يكن الخطر هزيمة انتخابية وانما حرب أهلية يدبرها سانتاندر بواسطة رسائله التى يبعث بها من باريس . وقد أرسل الرئيس المنتخب الى بوبايان مختلف النداءات لتطبيق النظام والوحدة ، ولكنه لم يقل بعد انه يقبل الرئاسة . وقال الجنرال : « انه ينتظر حتى يقوم كايسيدو بالعمل القدر » .

قال مونتيلا : « لابد أن موسكيرا فى سانتا فى الآن ، فقد رحل من بوبايان يوم الاثنين » .

لم يكن الجنرال يعلم ذلك . ولكنه لم يندعش وقال : « سترى أنه سيرجع عن غلوائه حين يجد نفسه مضطرا الى العمل ، ولن يصلح حتى لكى يكون حاجبا للحكومة » وفكر برهة طويلة ثم قال وقد غلبه الحزن :

— وا أسفاه ! كان سوكرية هو الرجل المناسب .

ابتسم فرانسيسكو وقال : وهو أكثر الجنرالات جدارة .

كانت تلك العبارة قد انتشرت فى كل البلاد ، رغم جهود الجنرال لمنع انتشارها ، وقال مونتيلا مداعبا :

- انها عبارة مبتكرة من أوردانيتا -

تجاهل الجنرال المقاطعة ، وتأهب لمعرفة خفايا السياسة المحلية ، هازلا أكثر منه جادا ، ولكن مونتيللا فرض الوتار الذى حطمه هو بنفسه قائلا : « معذرة يا صاحب القفصاة . أنت تعرف خيرا من أى أحد الاخلاص الذى أكنه للمارشال الكبير ، ولكنه ليس هو الرجل » -

وآردق يقول فى تشدق مسرحى : انما أنت الرجل -

أوقفه الجنرال على الفور قائلا : أنا لم أعد موجودا -

ثم استأنف جبل الحديث فقال : كيف إن الجنرال سوكرية صد كل توسلاته لتولى رئاسة كولومبيا واستعزذ : « انه يملك كل شئ لانقاذنا من الفوضى ، ولكنه استسلم لشدو جنيات البعر » وكان جارسيا دلريو يرى أن السبب الحقيقى هو أن سوكرية يفتقر تماما الى موهبة السلطة . ورأى الجنرال أن ذلك لا يشنكل عقبة منيعة وقال : « ثبت تماما فى تاريخ الانسانية ، فى بعض الأحيان ، أن الموهبة هى الابنة الشرعية للضرورة » وعلى كل حال فتلك ميول متأخرة ، لأنه كان يعرف خيرا من أى أحد أن أكثر الجنرالات جدارة فى الامبراطورية ينتمى الى جيوش أخرى أقل زوالا من جيوشه وقال :

- ان السلطة العظمى تكمن فى قوة الحب -

ثم أكمل دعايته الخبيثة قائلا : وهذه العبارة لسوكرية -

وبينما كان يتحدث فى تورباكو عن المارشال سوكرية . كان هذا الأخير يتجه من سانتا فى الى كيتو ، وحده ، مع أوهامه الضائعة ، ولكنه كان فى عنفوان العمر والصحة ويتمتع بكامل مجده - كان مسعاه الأخير فى عيشة رحيله هو المضى

سرا لدى عرافة مشهورة يالحي المصري . كانت قد نصحته
فى العديد من مشروعاته الحربية ، وقرأت له فى ذلك اليوم
فى الورق أن أكثر الطرقات ملائمة بالنسبة له هى طرقات
البحر . ورأى مارشال زياكوشو العظيم أن تلك الطرقات
البحليئة جدا لضروراته الفرامية ، واستسلم لمصادفات
الأرض الثابتة بدلا من الورق المحزر . واختتم الجنرال
حديثه قائلا :

— حيث انه ليس هناك ما نفعله ، فنحن منهكون كما
أن حكومتنا أسوأ الحكومات .

كان يعرف أنصاره الحكوميين . كانوا قد اشتهروا
ونالوا عددا من الألقاب أثناء حركة التحرير ، بيد انهم ليسوا
فى مضممار السياسة الا دسائين طماعين . وتجارا صفارا
للوخطائف . بلغ بهم الأمر حتى الى عقد مخالفات مع مونتيلا
ضده . وكما مع كثيرين غيرهم لم يستمهلهم الا بعد أن تمكن
من اغوائهم بحيث طلب منهم مساعدة الحكومة ولو على حساب
مصالحهم الخاصة . وكانت لأسبابه ، كالعادة ، نفس
تنبؤى . فندا ، عندما لا يكون هنا ، فان الحكومة التى تطلب
معاونتهم اليوم ، ستستدعى سانتاندر الذى ما أن يعود متوجا
بالمجد حتى يصفى أنقاض أحلامه . والوطن الكبير الذى
أنشأه فى سنين عديدة من الحروب والتضحيات سيقطع الى
أجزاء ، وستنهش الأحزاب بعضها البعض . ويحفر اسمه
ويشوش عمله فى ذاكرة قرون قادمة . ولكن لا شئ من كل
هذا يهمه فى هذه اللحظة اذا تمكن ، على الأقل ، من تجنب
حمام آخر من الدم ، وقال : « ان الثورات كأمواج البحر التى
تتتابع الواحدة بعد الأخرى . ولهذا لم أحبها أبدا » واختتم
يقول مثيرا دهشة زائريه :

— بل اننى أندم كل الندم على الثورات التى قمنا بها
ضد الاسبان .

أحس الجنرال مونتيلا وأصدقائه أن تلك كانت النهاية . وقبل أن يودعوه تلقوا من يده ميدالية من الذهب منقوشا عليها صورته ، ولم يسمعهم تجنب الاحساس بأنهم يتلقون هدية من ميت . وبينما كانوا يتجهون نحو الباب . قال جارسيا دلريو فى صوت خافت :

— ان وجهه اليوم انما هو وجه رجل قد مات .

ظلت العبارة التى ضغمتها وكررها الصدى تلاحق الجنرال طوال الليل ، ومع ذلك فقد دهش الجنرال فرانسيسكو كارمونا عندما رآه فى صباح اليوم التالى بشوش الوجه . وجده فى الحديقة التى تعبق بشذا زهور البرتقال فى أرجوحة مطرزه باسمه بخيوط من الحرير نسجت لها القرية المجاورة لسان جاسنتو ، وعلقها جوزيه بالاسيوس بين شجرتين . كان قد اغتسل وأكسبه شعره الذى صففه الى الخلف وسعرتته التى لبسها بدون قميص هالة من البراءة . وأمل على فرناندو وهو يتأرجح فى بطء رسالة ساخطة الى الرئيس كاي سيدو ، ولم يجده الجنرال كارمونا مشرفا على الموت كما قيل له . ربما لأنه كان فريسة ثمالة من احدى غضباته الأسطورية .

كان كارمونا ظاهرا جدا بحيث لا يمكن أن يمر دون أن يراه أحد ، ولكن الجنرال نظر اليه دون أن يراه بينما كان يملئ عبارة ضد غدر مقتابيه . وتحول أخيرا نحو العملاق الذى وقف بكل حب أمام الأرجوحة ، ونظر اليه دون أن تطرف عيناه وسأله حتى مع غير أن يحييه :

— أتظن أنت الآخر أننى معرض للثورات ؟

واذ استشعر الجنرال كارمونا استقبالا معاديا سال فى شيء من الكبرياء :

... وما الذى يحملك على هذا الظن يا عزيزى الجنرال ؟
أجاب : لأن آخرين يظنون ذلك .

وناوله بضع مقالات مقتطعة من الجرائد تلقاها فى
البريد الذى جاء من سانتا فى وفيها يتهمونه مرة أخرى بأنه
دير سرا تمرد الرماة حتى يستولى على السلطة رغم قرار
المجلس ، وقال : فظاظات تافهة ، ففى حين اننى أضيع وقتى
فى الدعوة الى الاتحاد يتهمنى هؤلاء الأوغاد بالتآمر .

وتسببت قراءة قصاصات الجرائد فى أحباط الجنرال
كارمونا ، وقال :

— لا يسرنى أن أصدق هذا . ولكننى كنت سعيدا جدا
بأن الأمر كان كذلك .

قال الجنرال : أتصور ذلك .

ولم يبد أى استياء ، ولكنه طلب منه أن ينتظره ريثما
يملى الخطاب الذى يلتمس فيه مرة أخرى الاذن الرسمى
بمغادرة البلاد . وعندما فرغ من ذلك كان قد استرد هدوءه
بنفس السهولة السريعة التى فقدته فيها وهو يقرأ الجرائد .
ونفض من غير مساعدة ، وأخذ الجنرال كارمونا من ذراعه
لكى يمشى بضع خطوات حول البئر .

بعد ثلاث أيام من المطر كان الضوء غبارا ذهبيا يتسرب
خلال أوراق شجر البرتقال وزهورها ويشير هياج الطيور .
ونظر الجنرال اليها لحظة وتأثر حتى سويده روحه وتنهد
تقريبا وقال : « انه لأمر سعيد اذ لا يزالون يغردون » ثم
أعطى الجنرال كارمونا تفسيراً متبحرا عن السبب الذى يحدو
طيور جزر الانثيل على التغريد فى أبريل أفضل مما تفعل فى
يونيه ، ثم عاد فجأة الى الموضوع الذى يشغله وبعد عشر
دقائق فحسب استطاع أن يقنعه بمساندة الحكومة الجديدة ،

وشيعه بعد ذلك حتى الباب • وعاد الى الغرفة أخيرا لكي يكتب بخط يده لمانويلا ساينز التي لا تزال تشكو وتتذمر من العراقيل التي تضعها الحكومة للاعتراض على رسائلها •

ولم يتناول غير طبق صغير من عصيدة الذرة ، اتته به فرناندا باريجا الى غرفته بينما كان يكتب • وفى ساعة القيلولة طلب من فرناندو أن يواصل قراءة كتاب فى علم النبات الصبغى ، كانا قد بدءا قراءته بالأمس • ودخل جوزيه بالاسيوس الغرفة بعد قليل ، فوجد فرناندو نائما فى مقعده والكتاب مفتوح فوق ركبتيه • وكان الجنرال ، فى أرجوحته ، مستيقظا ، ووضع سيابته على شفتيه يهيب به أن يلزم الصمت • ولأول مرة منذ أسبوعين زالت عنه الحمى •

وهكذا قضى تسعة وعشرين يوما فى تورباكو وهو ينتظر البريد كل يوم ، وكان قد جاء اليها قبل ذلك مرتين ، ولكنه لم يقدر مزاياها الطيبة فى الواقع الا فى زيارته الثانية وهو عائد من كاراكاس الى سانتا فى لكي يحبط خطط الانفصال التى يدبرها سانتاندر ، وقد أصابه مناخ المقاطعة بخير كبير بحيث بقى فيها عشرة أيام بدلا من الليلتين المتوقعتين ، وكانت أيام أعياد مستمرة • وأخيرا حضر حفلة لمصارعة الثيران ، وتغلب على كراهيته لسباق الثيران وصارع بقرة انتزعت الوشاح من يديه وجعلت الجمهور يصرخ من فرط الارتياح • ولكن فى هذه الزيارة الثالثة كان مصيره قد تحقق ، وأكد مرور الأيام ذلك كل التأكيد ، وازدادت الأمطار حدة واقتصرت الحياة على انتظار أنباء التقلبات الجديدة ، وفى ذات مساء ، سمعه جوزيه بالاسيوس وهو فى شدة اليقظة فى أرجوحته ويقول :

— الله وحده يعلم أين سوكريه الآن •

كان الجنرال موتيللا قد عاد مرتين ووجده أحسن بكثير من اليوم الأول ، بل أكثر من ذلك ، خيل اليه أنه استعاد

حماسه السابق شيئاً ما ، وعلى الخصوص بسبب اصراره على معاتبته بأن غرناطة لم تصوت بعد على الدستور الجديد ، ولم تعترف كذلك بالحكومة الجديدة ، رغم الاتفاق على ذلك في الزيارة السابقة . وارتجل الجنرال مونتيلا عذراً مبرراً بأنهم ينتظرون أن يعرفوا أولاً ان كان جواكين موسكيرا سيقبل الرئاسة .

قال الجنرال : سيتخلصون من هذه الورطة بالذات اذا تخللوا .

وفي خلال الزيارة التالية عاتبه بقوة أكثر لأنه كان يعرفه منذ ان كان ويعرف ان المقاومة التي سينسبها الى الآخرين لا يمكن الا ان تأتي منه هو . كانا مرتبطين بصداقة طبقية ومهنية ، ولكن كانت لهما على الخصوص حياة مشتركة ، وجاء وقت فترت فيه علاقتهما الى حد أن أيا منهما لم يخاطب الآخر . لأن مونتيلا ترك الجنرال في مومبوكس في أشد اوقات الحرب ، دون أية مساعدة عسكرية ، واتهمه الجنرال بأنه يخالفه في الرأي وأنه سبب كل المصائب . وكان رد فعل مونتيلا انفعاليا بحيث تحدى للمبارزة ، ولكنه بقي في خدمة الاستقلال ، وتغاضى عن أحقاد الشخصية .

كان قد درس الرياضيات والفلسفة في الأكاديمية العسكرية بمدريد ، وخدم كحارس خاص لدون فرناندو السابع حتى اليوم الذي جاءته فيه الأنباء الأولى بتحريض فنزويلا . وكان خير متأمر في المكسيك وخير مهرب للأسلحة في كوراساو منذ اليوم الذي تلقى فيه وهو في السابعة عشرة من عمره جرحه الأول . وكان خير جندي في كل مكان . وفي سنة ١٨٢١ قضى على الاسبان في الساحل بدءاً من ريوهاشا حتى «بنما» ، واستولى على قرطاجنة بجيش أقل عدة وعدداً من جيش العدو ، وقام بحركة جميلة لكي يتصالح مع الجنرال بأن قدم له المفاتيح الذهبية للمدينة ، فأعادها الجنرال اليه

ورفعه الى رتبة جنرال وأصدر أمره بأن يتولى حكومة الساحل - ولم يكن حاكما محبوبا على الرغم من أنه اعتاد أن يخفف من اقراطاته بشيء من الدعاية - وكان بيته أحسن قصور المدينة ، وأملأه في أجواس فيفاس من أحسن الأملاك في المقاطعة كلها - ويسأله الشعب بالكتابة على الجدران من أين جاء بالماس لشراء كل ذلك - وبعد ثمانية أعوام من ممارسة شاقة ومنفردة للحكم ، كان لا يزال في منصبه بعد أن تحول الى سياسي داهية من الصعب معارضته -

وكان مونتيلا يرد على كل عتاب بحجة مختلفة ، ومع ذلك فقد انتهى بأن قال له الحقيقة دون مواراة ، فقد صمم القرطاجينيون على عدم حلف اليمين على دستور مشبوه ، وكذلك على عدم الاعتراف بحكومة ضعيفة لا تستند على أي اتفاق وانما على الخلاف الجماعي - وكان لهذا معناه السياسي المحلي حيث كانت الاختلافات سبب النكبات الكبرى التاريخية - وقال مونتيلا : « ولا تنقصهم المبررات ما دمت يا صاحب الفخامة ، وأنت أكثر ليبرالية من الجميع ، تتركهم تحت رحمة الذين انتحلوا لقب الليبراليين لكي يصفوا ما أنجزته الليبرالية » - والحل الوحيد هو أن يبقى الجنرال في البلاد لتفادي التفكك -

أجاب الجنرال بسخريته التي تميزه : حسنا - اذا كان الأمر كذلك فقل لكارمونا أن يأتي من جديد ، وسوف نقنعه بأن يتمرد ، فسيكون ذلك أقل سفكا للدماء عن الحرب الأهلية التي سيثيرها القرطاجينيون بسفاهتهم -

ولكنه استعاد رباطة جأشه قبل انصراف مونتيلا . وطلب منه أن يعود الى تورباكو مع أهم أنصاره لوضع حد لهذا الشقاق - وكان ما يزال ينتظرهم عندما أقبل الجنرال كارمونا وأطلعه على الاشاعة القائلة بأن موسكيرا تولى الرئاسة ، فضرب بيده على جبينه وقال :

— سبحان الله ! .. اننى لن أستطيع أن أصدق ذلك ،
حتى ولو كان أمامى .

واقبل الجنرال مونتيلا بعد ظهر اليوم ليؤكد له ذلك ،
تحت سيل المطر ، مصحوبا بعاصفة هوجاء انتزعت الاشجار
من جذورها - وهدمت نصف المقاطعة ، وحظمت سياج البيت
واغرقت الحيوانات . ولكنها خففت من وقع الخبر السيئ .
وساعد الحرس الرسمى الذى يكاد يموت من السأم من تخفيف
حدة المأساة . وارتدى مونتيلا معطفا واقيا من المطر وادار
عملية الانقاذ . أما الجنرال فقد جلس على كرسى هزاز أمام
النافذة ، بعد أن تدثر بالغطاء الذى استخدمه فى النوم ،
يفكر ويتنفس بهدوء ويتأمل سيل الوحل الذى يجرف أنقاض
الكارثة . كانت هذه التقلبات الكارثية مألوفة له منذ
العقولة . ومع ذلك ، وبينما كان الجنود يعيدون ترتيب
البيت قال لجوزيه بالاسيوس انه لا يتذكر أنه رأى شيئا كهذا
من قبل . وعندما عاد الهدوء أخيرا ، دخل مونتيلا والماء
يقطر منه حتى ركبتيه ، فكان الجنرال لا يزال جامدا مكانه ،
قريسة فكرته ، وقال :

— حسنا يا مونتيلا .. موسكيرا هو الرئيس الآن ، ولم
تعترف قرطاجنة به بعد .

قال مونتيلا الذى لم تعد العاصفة تشغله : لو أن
فخامتك فى قرطاجنة لكان الأمر أكثر سهولة .

— ولكنهم سيؤولون وجودنا عندئذ بأنه تدخل من ناحيتى
ولا أريد أن أكون المعرض على أى شئ ، بل الأكثر من هذا ،
طالما لم تسو هذه المسألة فلن أتحرك من هنا .

كتب خطاب صليح للجنرال موسكيرا فى تلك الليلة
بالذات قال له فيه : علمت دون أية دهشة أنك قبلت رئاسة

الأمة . ويسرنى ذلك من أجل البلاد ومن أجلى ، ولكننى اسف على ذلك وسأظل أسفا دائما من أجلك .. وانهى خطابه بعاشية قال فيها : « لم أرحل لأن جواز السفر لم يصلنى بعد ، ولكننى سأرحل بالتأكيد بمجرد أن ألتقاه » .

وصل الجنرال دانييل فلورنسيو أوليرى يوم الأحد . وهو عضو بارز فى الجمعية البريطانية . وخدم طويلا كملازم وسكرتير يجيد لغتين للجنرال . أقبل من تورباكو لى ينضم الى العاشية ، وقد رافقه مونتيلا من قرطاجنة وهو رائق المزاج كما لم يكنه أبدا ، وأمضيا مع الجنرال يوما جميلا فى ظل أشجار البرتقال . وبعد حديث طويل مع أوليرى عن مهمته العسكرية أطلق الجنرال سؤاله المعهود :

— ماذا يقال هناك ؟

أجاب أوليرى : أنك لن ترحل حقا .

قال الجنرال : آه .. آه .. ولماذا ؟

— لأن مانيوليتا بقيت .

أجاب الجنرال بصراحة مهدئة : ولكنها بقيت دائما .

كان أوليرى بصفته صديقا حميما يعرف أن الجنرال على حق . كانت تبقى دائما حقا ، ليس بارادتها بالذات ولكن لأن الجنرال يتركها متذرعا بأية حجة . وبجهد شديد لى يفلت من عبودية الغراميات المألوفة ، وقال ذات يوم لجوزيه بالاسيوس ، وهو الوحيد الذى يبيع لنفسه اطلاعه على مثل هذا النوع من الاعتراف : « لن أقع فى الحب بعد ذلك أبدا » . فانه يخيل لى أن لى روحين فى نفس الوقت ، كانت مانيولا قد فرضت نفسها عليه بتصميم لا يقهر دون أن تهتم بكرامتها . ولكنها كانت كلما حاولت اخضاع الجنرال بدا هذا الأخير متلهفا على التخلص من أغلالها . وكان حبا متهربا دائما . فبعد الأسابيع الأولى المضطربة اضطر أن يمضى

الى جواياكيل للالتقاء بالجنرال سان مارتين ، محرر ريو دى
لابلاتا ، وتساءلت مانويلا اى نسوع من العشاق ذلك الرجل
الذى يقوم عن المائدة وسط العشاء - وعدها أن يكتب لها كل
يوم فى اى مكان يكون فيه ليقسم لها من سويداء قلبه أنه
يحبها أكثر من أية امرأة أخرى فى الدنيا - وقد كتب لها
فعلا ، ويخط يده أحيانا ، ولكنه لم يبعث اليها بالرسائل لأنه
كان فى نفس الوقت قد وجد العزاء فى حب برىء متعبد
لخمسة نساء فى وقت واحد ، فى بيت جارياكو ، دون أن
يعرف بكل اليقين أى منهن يختار - بين الجدة ذات الست
والخمسين سنة والابنة التى فى الثامنة والثلاثين من عمرها
وبين ثلاث الفتيات الأخريات اللواتى فى عمر الزهور - واذ
انتهت مهمته فى جواياكيل تخلص منهن وهو يقسم لكل
واحدة ، على حدة ، أنه أحبها حبا خالدا ، وعاد الى كيتو
ليفرق فى الرمال المتحركة لمانويلا ساينز .

ففى بداية السنة التالية ، رحل مرة أخرى بدونها لنكى
ينهى تحرير بيرو ، وهو الجهد الأخير لحلمه - وانتظرت
مانويلا اربعة شهور ثم أبعرت الى ليما بمجرد أن تلقت
خطاباته التى يكتبها عادة جوان جوزيه سانتانا ، سكرتير
الجنرال الخاص ، معبرة عن أفكاره وأحاسيسه بالذات .
ووجدته فى قصر الملذات بمجدالينا ، وقد قلده الكونجرس
السلطة الدكتاتورية ، تحيط به النساء الفاتنات والماجنات
بالبلاط الجديد - وكانت الفوضى فى بيت الرئاسة شديدة
بحيث أن كولونيلا بفرقة الرماة غادره فى عز الليل لأن
لهثات الحب فى المضاجع منعه من النوم - ولكن مانويلا
وجدت نفسها فى ميدان تعرفه كل المعرفة - فقد ولدت فى
كيتو ، ابنة غير شرعية لامرأة ثرية كريولية ورجل متزوج -
وفى الثامنة عشرة من عمرها وثبت من نافذة الدير الذى
تدرس فيه لكى تهرب مع ضابط من ضباط الملك ، ولكنها
بعد سنتين من ذلك تزوجت فى ليما على أنها عذراء من

الدكتور جيمس تورن ، طبيب متفاض له ضعف عمرها ، بحيث أنها عندما عادت الى بيرو ، مطاردة حب حياتها لم تكن فى حاجة الى أن تتعلم من أحد لكى تقضى حياتها فى خضم الفضائح .

كان اوليرى افضل معاونيها فى جروب ذلك الحب ، ولم تكن تعيش فى قصر مجدالينا بصفة دائمة ، ولكنها كانت تدخله عندما تشاء من الباب العمومى ، ويستقبلونها بكل حفاوة وترحاب . كانت ماهرة وملتزمة ، ذات دلال لا يقاوم واحساس بالسلطة وتصميم على تجربة كل شئ . كانت تتكلم انجليزية سليمة بسبب زوجها ، وفرنسية ركيكة ولكنها مفهومة . وتمزق البيانو بطريقة المبتدئات المتعصبات ، وخطها معقد وتخطىء فى قواعد النحو ، وكانت تتلوى من الضحك أمام ما تدعوه هى بالذات فظاعات خطها . عينها الجنرال حارسة لأرشيفه لكى تكون بجواره ، وكان هذا يتيح لهما ممارسة الحب وسط ضجيج الوحوش الأمازونية التى تروضها مانويلا بمفاتنها .

ومع ذلك ، عندما أراد الجنرال غزو أراضى بيرو الوعرة التى كانت لا تزال بين أيدي الاسبان ، لم تفلح مانويلا فى الانضمام الى هيئة أركانها ، فتبعته بدون اذنه بحقائبها كسيدة أولى وصناديقها المحتوية على المستندات وحاشيتها من الاماء ، وفرقة فى المؤخرة من الحرس الكولومبى الذين يعبدونها بسبب لغتها العسكرية . وقطعت ثلاثمائة فرسخ على ظهر بغلة فى منحدرات الأنديز الباعثة للدوار ، وطوال أربعة أشهر لم تستطع أن تقضى مع الجنرال غير ليلتين ، أحدهما لأنها أثارت خوفه بأن هددته بأنها ستنتحر ، ومضى بعض الوقت قبل أن تكتشف أنها حين لا تستطيع الانضمام اليه . كان يستمتع بغراميات أخرى عابرة أثناء مروره . ومن بينهن مانويليتا مادرونو ، وهى خلاسية لعوب فى الثامنة عشرة من عمرها خلصته من أرقه .

وما أن عادت مانويلا الى كيتو حتى صممت أن تنفصل عن زوجها الذى وصفته بأنه انجليزى تافه ، يمارس معها الحب دون أى استمتاع ، ويتحدث فى فتور ، ويمشى ببطء ويحيى الناس وهو ينحنى بكل احترام ، ويجلس ويقوم فى حرص ، ولا يضحك حتى من نواذره هو بالذات . ولكن الجنرال أقنعها بأن تحتفظ بكل امتيازات حياتها المدنية ، وخضعت لارادته .

وبعد شهر من احراز النصر فى اياكوشو ، رحل الجنرال وهو سيد نصف العالم الى أعالي بيرو التى ستغدو فيما بعد جمهورية بوليفيا . ورحل بدون مانويلا ، وقبل رحيله زعم لها أن أمرا مهما يقتضى انفصالا نهائيا ، وكتب لها يقول : « أرى أن لا شىء يمكن أن يربطنا تحت رعاية البراءة والشرف . ستكونين وحدك فى المستقبل ، رغم وجودك مع زوجك ، وسأكون أنا وحدى وسط الدنيا ، سيكون غراؤنا الوحيد هو مجدنا بأننا انتصرنا على أنفسنا » . وقبل أن تمر ثلاثة شهور تلقى منها رسالة تقول فيها انها راحلة الى لندن مع زوجها . وفاجأه الخبر وهو فى الفراش مع فرانثيسكا زوبياجا من جامارا : امرأة باسلة ، زوجة مارشال أصبح فيما بعد رئيسا للجمهورية . ولم ينتظر الحراس لكى يمارس الحب للمرة الثانية فى تلك الليلة وكتب لتوه لمانويلا ردا عاجلا بدا أشبه بأمر عسكري : « قولى لى الحقيقة ولا تذهبي لأى مكان ، اننى أحبك بكل تأكيد » ووضع بيده تحت العبارة الأخيرة . وأطاعته متهلة .

بدأ حلم الجنرال ينهار فى نفس اليوم الذى تحقق فيه ، فما أن أسس جمهورية بوليفيا وأعاد تنظيم مؤسسة بيرو حتى اضطر الى العودة بكل سرعة الى سانتا فى ، تستحثه على ذلك محاولات الانفصال الأولى التى يقوم بها الجنرال فى فنزويلا ومؤامرات سانتاندر السياسية فى غرناطة الجديدة . واحتاجت مانويلا هذه المرة الى وقت أكثر لكى يسمح لها بأن

تتبعه ، وعندما خضع أخيرا انتقلت كما لو كانت من النور بحقائقها التي تحملها لها اثنتا عشرة بغلة ، والامام الخالدة واحدى عشرة قطة وستة كلاب وثلاثة قرود مدربة على فن خلاعة القصور ودب يعرف كيف يشبك الخيط فى سم الابرّة وتسعة أقفاص من الببغاوات، ذكورا واناثا ، تنمت سانتاندر بالسباب والشتائم بثلاث لغات •

وصلت الى سانتا فى الوقت المناسب لانقاذ الجنرال مما تبقى له من القليل من الحياة فى ذلك اليوم المنعوس : الخامس والعشرين من سبتمبر - كانا قد تعارفا منذ خمس سنوات ؛ ولكنه كان منهوكا ومرتابا كما لو أنهما قد التنّيا قبل ذلك بخمسين سنة - وأحست بأنه يتحسس طريقه دون هدف فى ضبابات العزلة - كان يجب أن يعود الى الجنوب . بعد ذلك بقليل لكى يكبح أطماع بيرو الاستعمارية نحو كيتو وجواياكيل ، ولكن أى جهد لم تكن له أية جدوى - وبقيت مانويلا فى سانتا فى عندئذ دون أية رغبة فى أن تتبعه . لأنها كانت تعرف ان هاربها الأبدى لم يعد له مكان واحد لكى يهرب اليه •

كتب أولرى فى مذكراته ان الجنرال لم يكن تلقائيا أبدا فى تذكر غرامياته الخفية كما كان فى أصيل ذلك اليوم فى تورباكو ، وكتب بعد ذلك بسنوات فى رسالة خاصة بأن ذلك كان دليلا واضحا على الشيخوخة • واندفع مونتيلا بحماسة وطبعه لتبادل الأسرار الى تحدى الجنرال وسأله فى مودة :

— أو كانت مانويل الوحيدة التى تبقى ؟ •

أجاب الجنرال بلهجة الجد : كن يبقين جميعهن ، ولكن مانويلا أكثر من الأخريات •

غمز مونتيللا بعينه لأوليرى وقال : اعترف يا جنرال .
كم كان عدهن ؟

أجاب الجنرال : أقل بكثير مما تعتقد .

وفى المساء . بينما كان يأخذ حمامه الدافئ ، أراد
جوزيه بالاسيوس أن يقطع الشك باليقين وقال : « طبقا
لحساباتى ، انهن خمس وثلاثون ، وذلك من غير أن أحصى
اللاتى بقين ليلة واحدة » وكان الرقم مطابقا لحسابات
الجنرال ، ولكنه لم يشأ الاعتراف بذلك أثناء الزيارة وقال :
- ان أوليرى رجل عظيم وجندى عظيم وصديق مخلص ،
ولكنه يسجل كل شيء . وليس هناك ما هو أشد خطرا من
الذاكرة المكتوبة .

وفى اليوم التالى . وبعد حديث طويل وخاص لكى يعرف
الحالة على الحدود طلب من أوليرى المضى الى قرطاجنة فى مهمة
ظاهرها التحقق من حركات السفن المنطلقة الى أوروبا ،
وحقيقتها هى الوقوف على التفاصيل الخفية للسياسة المحلية .
وما كاد أوليرى يصل يوم السبت الثانى عشر من يونية حتى
أدى مجلس قرطاجنة اليمين على الدستور الجديد واعترف
بالحكام المنتخبين . وأرسل مونتيللا النبأ للجنرال مع الرسالة
المحتومة : اننا ننتظرك .

وكان مايزال ينتظر عندما جعلته اشاعة موت الجنرال
يثب من فراشه ، ومضى الى تورباكو بأقصى سرعة دون أن
يتسنى له الوقت للتحقق من الاشاعة . ووجد الجنرال فى
حالة خيرا مما كان عليها فى أى وقت . يتناول الغذاء مع
الكونت دى ريجكور ، فرنسى أقبل لكى يدعو للرحيل معه
الى أوروبا فى سفينة انجليزية . يجب أن تصل الى قرطاجنة
فى الأسبوع المقبل . وكان ذلك ذروة يوم صحة جيدة . وكان
الجنرال قد صمم على مواجهة مرضه بمقاومة معنوية ، ولم

يكن هناك من يمكنه أن يقول انه لم يفلح في ذلك ، فقد نهض في وقت مبكر ، وتجول في المكان ساعة حلب الأبقار ، وزار ثكنة الجنود، وعرف من شفاهم في أية ظروف يعيشون، وأصدر أوامر حاسمة لتحسينها . وعند عودته توقف في إحدى العانات وتناول القهوة وأخذ الفئجان معه ليتفادى اهانة تحطيمها . وكان يمضي نحو البيت عندما نصب الأطفال الذين خرجوا من المدرسة فجا ، في أحد الشوارع وهم يصفقون بأيديهم ويغنون « يحيا المحرر » - « يحيا المحرر » وفوجيء ، ولم يدر ما يفعل لو لم يفسح له الأطفال الطريق -

ووجد في البيت الكونت دي ريكور ، وكان قد أقبل دون أن يعلن عن قدومه ، ترافقه امرأة لم يسبق له أن رأى من هي أكثر جمالا وأناقة وترفعا مثلها . كانت ترتدى ثياب الركوب رغم أنها أقبلت في عربة يجرها حمار . وعن شخصيتها لم تكشف له الا عن اسمها ، كاميل ، وان مسقط رأسها هي المارتيفيك . ولم يضيف الكونت أى توضيح رغم أنه بدا أثناء اليوم أنه مدله بحبها .

أعاد مجرد وجود كاميل الجنرال الى بشاشته وحبوره السابقين ، وأصدر أمره بأعداد مائدة غداء على الفور ، ورغم أن الكونت تكلم بأسبانية سليمة فقد دار الحديث بالفرنسية ، لغة كاميل . وعندما قالت انها ولدت في « ثروا ايليت » تحمس الجنرال وومضت عيناه الذابلتان بوميض خاطف وقال :

— آه ... حيث ولدت جوزفين .

ضعكت وقالت : اذا سمحت يا صاحب الفخامة ، كنت أتوقع منك ملاحظة أكثر ذكاء من تلك التي أسمعها من الجميع .

أحس بأنه أهين ، ودافع عن نفسه بأن أنشد نشيدا عن السكر ببلاجريه . مسقط رأس ماري جوزفين ، امبراطورة

فرنسا ، والموجود على بعد عدة فراسخ ، خلال الحقول
الشاسعة لقصب السكر ورطانة الببغاوات ورائحة آلات
التقطير الساخنة • ودهشت وهى ترى الجنرال يعرف المكان
هكذا جيدا ، قال :

— الواقع أننى لا أعرفه ، ولم أذهب الى المارتينيك أبدا -

قالت : واذن ؟

قال الجنرال : اننى عاهدت نفسى منذ سنوات أن أعرف
ذلك عن ظهر قلب ، لأننى كنت أعلم أننى سأكون ذات يوم
بحاجة الى ارضاء أجمل نساء تلك الجزر •

كان يتكلم من غير توقف وبصوت خافت منغم • وكان
يرتدى بنطلونا من القطن المطبوع ، وسترة من الجوخ وخفا
أحمر • وأثارت رائحة ماء الكولونيا التى تعبق بها غرفة
الطعام اهتمام كاميل واعترف لها أن تلك هى نقطة ضعفه
الى حد أن أعداءه يتهمونه بأنه أنفق ثمانمائة ألف بيزو من
الأموال العامة على ماء الكولونيل • كان شاحبا كما كان
بالأمس ، ولكن قسوة علته لم تكن تلاحظ الا فى الأضرار
التي أصيب بها جسده •

كان الجنرال • عندما يجد نفسه بين الرجال قمينا
بالتحدث كالمسوقة ، ولكن كان يكفى وجود امرأة لكى تكون
تصرفاته وكلماته مهذبة الى حد التكلف •

ونزع بنفسه زجاجة نبيذ من أجود أصناف أنبذة
بورجونيا ، وصفها الكونت دون خجل عندما تذوقها بأن لها
ملازمة المخمل • وكانوا يحتسون القهوة عندما همس الملازم
ايتوربيد بضع كلمات فى أذن الجنرال • وأصغى اليه هذا
الآخر فى اهتمام ثم اضطجع فى مقعده الى الخلف وهو يضحك
عن طيب خاطر ، وقال :

— اسمعوا هذا أرجوكم • • جامنا هنا وفد من قرطاجنة

لتشييع جنازتى •

وآدخل الوفد ، ولم يجد مونتيللا واصدقاؤه حلا اخر
غير متابعة اللعبة ، واستدعى الملازمون عازفي الموسيقى من
سان جاسنتو ، وكانوا ينتظرون منذ الأمس ، ورقص بمض
الرجال والنساء من متوسطى العمر رقصة مشهورة ومعروفة
باسم الكومبيا ، احتفالا بالمدعوين - ودهشت كاميل من أناقة
تلك الرقصة الشعبية الافريقية المنشأ وأرادت أن تتعلمها -
وكان للجنرال سمعة كبيرة كراقص - وتذكر بعض الموجودين
أنه رقص الكومبيا أثناء زيارته السابقة ، كما لو كان أستاذا
فى الرقص - ولكن عندما دعتة كاميل لمشاركتها رفض الشرف
الذى أولته به وقال وهو يبتسم : « لقد مر على ذلك ثلاث
سنوات ، وهى مدة طويلة » - وفجأة توقفت الموسيقى لحظة
وارتفعت هتافات وسلسلة من الانفجارات ، فريعت كاميل -
وقال الكونت بلهجة الجد :

- رباه ! .. ولكن هذه ثورة !

قال الجنرال وهو يضحك : لا يمكن أن تتصور الى أى
حد نحن بحاجة اليها ، ولكن مما يؤسف له أنها ليست غير
مصارعة بعض الديكة -

وفرع من إجتساء قهوته دون أن يفكر ، ودعا بحركة من
يده المدعوين الى مشاهدة صراع الديكة وقال :

- تعال معى يا مونتيللا لكى ترى الى أى حد أنا ميت -

وهكذا ، مضى فى الساعة الثانية من الظهر الى المكان
الذى تتصارع فيه الديكة ، ترافقه مجموعة من الرجال
المهيمنين ، على رأسهم الكونت دى ريجكور - ولكن فى هذه
المجموعة من الرجال فحسب لم يبد أحد الاهتمام به وانما
انصب كل اهتمامهم على كاميل - لم يصدق أحد أن تلك المرأة
الباهرة الجمال لم تكن من عشيقات الجنرال ، والأكثر من
هذا فى مكان كان دخول السيدات فيه ممنوعا ، ولا سيما

عندما رأوا الكونت يرافقها ، لأنه كان من عادته أن يحمل رجالا غيره على مرافقة عشيقاته الخفيات لتعقيد الآثار .

كانت المصارعة التالية بشعة ، فقد فقا ديك أحمر عين غريمه بأظافره بذكاء . ولكن الديك الأعمى لم يستسلم ، انصب على الآخر حتى انتزع رأسه وأكلها بمنقاره . وقالت كاميل :

— ما كنت لأتصور أبدا حفلة دموية كهذه . ولكنها راقت لي .

قال لها الجنرال : « انها لتكون أكثر دموية حين يحرضون الديكة بصرخات بذيئة وطلقات نارية في الهواء ، ولكن أصحاب الديكة ارتدعوا بعد ظهر اليوم وقد أزعجهم وجود امرأة جميلة جدا مثلك » : ونظر اليها دون أى دلال وأردف : « والذنب ذنبك أنت » فضحك وقد أطربها قوله وقالت :

— بل هو ذنبك أنت يا صاحب الفخامة لأنك حكمت هذا البلد طوال كل تلك السنوات ولم تصدر قانونا يرغم الرجال على أن يتصرفوا على طباعهم عندما تكون هناك نساء ، وعندما يخلو المكان منهن .

بدأ يفقد هدوءه وقال : « أرجوك لا تنادينى بصاحب الفخامة . يكفينى أن أكون عادلا .

وفى تلك الليلة ، بينما كان يعوم فى مياه البانيو العديمة الفائدة قال له جوزيه بالاسيوس : « انها أجمل امرأة رأيناها » . ولم يفتح الجنرال عينيه وقال : « انها فظيعة » .

كان ظهوره فى ميدان مصارعة الديكة ، طبقا لرأى الجميع عملا متعمدا لتكذيب مختلف الروايات عن مرضه ، وهى روايات كانت مقلقة جدا فى الأيام الأخيرة بحيث لم يشك أحد فى اشاعة موته . وكان لذلك العمل تأثيره لأن

سعاة البريد الذين غادروا قرطاجنة أشاعوا فى كل مكان تقريبا نبأ صحته الجيدة . وأقام أنصاره ، عن تحد أكثر منه عن فرح وغبطة مهرجات عامة للاحتفال بذلك .

أفلح الجنرال فى أن يخدع حتى جسده بالذات لانه استمر على يشاشته ومرحه فى الايام التالية . وبلغ به الامر الى أن يجلس الى مائدة اللعب مع ملازميه الذين يتعجبون على ضجرهم بلعب الورق طوال الوقت . وكتب اندريه ايبارا . أصغر الملازمين وأكثرهم مرحا والذى كان لا يزال يحتفظ باحساس رومانسى عن الحرب . الى صديقة له فى كيتو يقول : « اننى أفضل الموت بين ذراعيك عن هذا السلام بدونك » كانوا يلعبون نهارا وليلا وهم مستغرقون طورا فى أحاجى الورق ويتجادلون طورا آخر بأصوات مرتفعة ، يلاحقهم الناموس دائما فى تلك الأيام المطيرة ويهاجمهم فى وضح النهار رغم نيران جلة الاسطبلات التى يشعلها الحراس بصفة دائمة . ولم يكن قد لعب الورق منذ ليلة جواردياس المنكودة لأن تصرف ويلسون الغامض ترك فيه نوعا من المرارة أراد أن يمحوها من قلبه . ولكنه كان يسمع صراخهم وهو فى أرجوحته . وحنينهم الى القتال وهم غارقون فى جمود سلام خفى . وبينما كان يتجول ذات ليلة فى البيت ، لم يقاوم الاغراء وتوقف فى الرواق . وأشار الى من أمامه بالتزام الصمت . واقترب من اندريس ايبارا . وكان يوليه ظهره . وألقى يديه فوق كتفيه . كما لو كانتا مخلبى طائر كاسر وقال :

— قل لى شيئا يا ابن عمى . . . أترى أنت أيضا أننى أبدو كميت ؟

وكان ايبارا معتادا على تلك التصرفات . فلم يتحول اليه وأجاب :

— كلها أيها الجنرال .

قال الجنرال : حسنا ، أما أن تكون أعمى وأما أنك تكذب -

قال ايبارا : وأما أنني أوليك ظهري -

وأبدى الجنرال اهتمامه باللعب ، وجلس - وانتهى به الأمر الى الاشتراك معهم ، وكانت تلك الليلة والليالي التي تلتها كعودة الى الحياة العادية - وقال الجنرال : « حتى يأتينا جواز السفر » - وقال له جوزيه بالاسيوس انه رغم طقوس اللعب ، ورغم اهتمامه الشخصي ، ورغم أنه هو بالذات فان ضباط الحاشية قد سئموا هذه الجيئات والروحات التي لا تفضى الى شيء -

لم يكن هناك من يهتم مثله بمصير ضباطه وبتفاصيل حياتهم اليومية وبأفق أقدارهم - ولكن عندما كانت المشاكل تبدو متعذرة ، كان يحلها وهو يكذب على نفسه ، وغالبا ما كان ينسى آلامه هو بالذات بعد حادثة ويلسون وأثناء رحلة النهر لكي يهتم بهم - وكان تصرف ويلسون غير معقول ، وما كان ليدفعه الى مثل هذا العمل الأحمق الا كبت خطير جدا ، وقد قال الجنرال عنه عندما رآه يقاتل في معركة جونين : « انه عسكري جيد كأييه » وأردف عندما رفض رتبة الكولونيل التي منحه اياها الجنرال سوكرية وأجبره هو على قبولها « وأكثر تواضعا » -

كان النظام الذي يفرضه على الجميع في وقت السلم كما في وقت الحرب نظاما بطوليا ونظام اخلاص في نفس الوقت ، يتطلب حاسة الاستبصار تقريبا - كانوا رجال حرب وليسوا رجال ثكنات لأنهم قضوا كل وقتهم في القتال بحيث لم يجدوا الوقت للسكنى في المعسكرات - كانوا من جميع الأنواع ، ولكن نواة الذين حققوا الاستقلال مع الجنرال - كانوا زهرة كريولية أرستقراطية رائعة - تلقوا دروسهم في مدارس

الامراء وابضوا حياتهم في القتال من ناحية الى اخرى .
بعيدا عن بيوتهم وزوجاتهم وأولادهم ، بعيدا عن كل شيء
وجعلت منهم الضرورة رجال سياسة وحكومة - كانوا جميعا
فريديين ، فيما عدا ايتورييد والملازمين الاوربيين .
وجميعهم اقارب للجنرال تقريبا ، سواء عن طريق الدم او
المصاهرة : فرناندو وجوزيه لورنسيو والاخوان ايبارا
وبريسنيو منديز ، كانت روابط الدم والعشيرة تحقق داتينهم
وتجمعهم .

واحد منهم فحسب كان مختلفا وهو جوزيه لورنسيوسيلفا .
ابن قابلة اقليم التيناكو بالسهول وصياد النهر . كانت له
بشرة آبيه وأمه الداكنة وينتمى للطبقة الدنيا للقوم ذوى
البشرة السمراء ولكن الجنرال زوجه باحدى بنات أخواته
وتدعى فيلسيا . وبدأ حياته في السادسة عشرة من عمره
كمتطوع في جيش التحرير وأصبح قائدا عاما في الثامنة
والخمسين وأصيب بأكثر من خمسة عشر جرحا خطيرا وكثير
غيرها أقل خطرا تسببت فيها مختلف الأسلحة في اثنتين
وخمسين معركة في كل حملات الاستقلال تقريبا . وكانت
المضايقة الوحيدة التى تسبب فيها مولده النخاسى أن أقصته
احدى سيدات الارستقراطية المحلية أثناء حفلة راقصة .
وطلب الجنرال عندئذ إعادة الرقصة ورقصها معه .

وكان الجنرال أولرى على النقيض منه ، فقد كان أشقر
وطويل القامة ، ذا وقار مقداما يفخمه زيه الفلورنسى ، أقبل
الى فنزويلا وهو في الثامنة عشرة من عمره كحامل علم
الفرسان الحمر ، وقضى كل حياته تقريبا في كل معارك
الاستقلال . وقد زالت حظوته ، ككثيرين غيره عندما ساند
سانتاندر في نزاعه مع جوزيه أنطونيو بايز ، فى احدى
المهمات التى كلفه بها الجنرال للبحث عن صيغة للمصالحة .
وكف الجنرال عن مصافحته ، وتركه لمصيره أربعة عشر شهرا
حتى فترت حدة غضبه .

لم يكن هناك جدال فى جدارة كل منهما - ولكن الجنرال لم يدرك ابدا أنه أقام أمامهما عائقا منيعا لتولى السلطة ، وكان هو نفسه يعتقد أنها من حقهم ، ومع ذلك ففى الليلة التى أطلعه فيها جوزيه بالاسيوس على معنوياتهم لعب معهم ندا لند وهو يخسر شيئا فشيئا حتى تملكهم التعب والارهاق .

كان من الواضح أن كل احباطاتهم القديمة قد اختفت ، لا يهمهم احساس هزيمة تصيبهم بعد احرازهم النصر فى حرب ، ولا يهمهم البطء الذى فرضه عليهم ازاء حصولهم على الترقيةات للحيلولة لاعتقادهم باحقيتهم فى تلك الامتيازات ، ولا يهمهم كذلك حياة التشرد أو مصائدات الغراميات العرضية - وقد خفضت مرتباتهم العسكرية الى الثلث بسبب قلة الضرائب بالبلاد ، بل كانت لا تسدد لهم الا متأخرة ثلاثة شهور ، وبسندات حكومية من العسير استبدالها ، فكانوا يبيعونها بالخسارة للمضاربين فى البورصة - كان كل ذلك لا يهمهم الا قليلا ، كما لم يكن يهمهم ان يرحل الجنرال وهو يصفق الباب فيدوى صوته فى العالم أجمع ، أو أن يتركهم تحت رحمة أعدائهم فالمجد ملك للآخرين ، ولكن الأمر الذى لم يمكنهم احتماله هو الشك الذى يوحى اليهم شيئا فشيئا منذ أن اتخذ القرار بالتخلي عن السلطة وعدم استطاعتهم احتماله هو بالذات طالما استمرت هذه الرحلة اللانهائية نحو لا مكان .

احس الجنرال فى تلك الليلة بأنه مسرور جدا بحيث قال وهو يستحم لجوزيه بالاسيوس انه ليس هناك بينه وبين ضباطه أى سوء تفاهم - ومع ذلك فقد بقى الضباط على انطباعهم بأنهم لم يفلحوا فى بث احساس الامتنان أو الذنب للجنرال وانما فى بذر شيء من الشك .

وعلى الأخص جوزيه ماريا كارينو ، فمنذ ليلة الحديث فى الزورق كان يبدى فظاظة ويغذى دون أن يدري الشائعة

التي تقول انه كان على اتصال بالانفصاليين الفنزويليين -
وكان الجنرال قد أقصاه عن قلبه ذلك بأربع سنوات، كما فعل
مع أوليرى ومونتيل وبريسينو منديز وسانتانا وكثيرين
غيرهم لأنه كان يشك في أنه يريد أن يشتهر على حساب
الجيش ، وأمر بمراقبته الآن وراح يتنسم أخباره ويصنى
الى كل الشائعات التي تدور حوله ويبذل جهده لكي يرى
بريقا في ظلمات شكوكه بالذات .

وسمعه ذات يوم يقول في الغرفة المجاورة ، دون أن
يدري إن كان صاحبا أو نائما ، انه في سبيل سلامة الوطن
يمكن للمرء أن يفعل أى شيء حتى ولو يخون ، وعندئذ أخذه
من ذراعه واصططحبه الى الحديقة وأخضعه الى سحر اغرائه
الذى لا يقاوم وهو يحدثه بدون كلفة محسوبة لا يلجأ اليها
الا في المناسبات القصوى واعترف كارينو له بالحقيقة ،
وهي أنه يشعر بالمرارة لأن الجنرال يترك عمله يسير على
غير هدى ويتركهم كما لو كانوا يتامى - ولكن خططه هو
بالذات للارتداد كانت مخلصه - فقد أرهقه البحث عن بريق
أمل في هذه الرحلة الحمقاء ، وعجز عن الاستمرار في
المعيشة بدون روح وصمم أن يهرب الى فنزويلا لكي يقود
حركة مسلحة في صالح سلامة الأراضى وعدم تقسيمها .
وقال :

— لم أجد ما هو خير من ذلك -

سأله الجنرال : ماذا تظن ؟ - هل ستجد معاملة أفضل
في فنزويلا ؟

لم يجرو كارينو على أن يؤكد ذلك وقال :

— حسنا - ولكن الوطن هناك على الأقل .

قال الجنرال : لا تكن أبله - إن الوطن بالنسبة لنا
جميعا هو أميركا ، وكل مكان فيها هو الوطن ، ولا جدال
في ذلك -

ولم يدعه يقول المزيد ، وراح يحدثه طويلا وهو يريه
في كل كلمة ما يحس هو به في سويداء قلبه ، رغم أن ما من
أى كارينى أو أى أحد آخر عرف أبدا ما يكنه قلبه في
الواقع - وأخيرا ربت بيده على ظهره وتركه في دياجيره
وهو يقول :

— كفى تخريفا يا كارينو ، فكل هذا قد جرفه الشيطان -

عرف فى يوم الاربعاء ، السادس عشر من يونية ان الحكومة صدقت على المعاش الذى منحه له الكونجرس مدى الحياة ، وأطلع الرئيس موسكيرا على علمه بذلك برسالة بروتوكولية تشويها السخرية - وبعد أن أملاها قال لفرناندو بصيغة الجمع التى اعتاد جوزيه بالاسيوس عليها : « نحن آثرياء » وفى يوم الثلاثاء الثانى والعشرين تلقى الجواز الذى يتيح له مغادرة البلاد ، فراح يلوح به فى الهواء ويقول « نحن أحرار » وبعد يومين ، وهو مستيقظ فى أرجوحته بعد ساعة من النوم المضطرب فتح عينيه وقال « نحن حزينون » وعندئذ قرر أن يمضى الى قرطاجنة دون تأخير ، منتهزا الجو المضرب والبارد - وكان الأمر الوحيد المحدد الذى أصدره هو أن يمضى الضباط اليها بملابسهم المدنية ، وعزل من الأسلحة - ولم يقدم أى تفسير أو يبدى أية حركة تسمح لهم بتخمين أسبابه ، وكذلك لم يفكر فى توديع أحد - وما أن استعد حرسه الخاص حتى انطلقوا وتركوا لباقي الحاشية الاهتمام بالأمته الى ما بعد -

اعتاد الجنرال خلال هذه الرحلات على التوقف كيفما يتفق للاستعلام عن مشاكل الذين يلتقى بهم فى طريقه - كان يستفهم منهم عن كل شيء - عن أعمار أولادهم وطبيعة أمراضهم ، وأحوالهم ، ورأيهم فى هذا أو ذاك ، ولكنه هذه المرة لم ينطق بكلمة واحدة ولم يغير مسيرة خطاه ، ولم يسعل ولم يبد ما يدل على أى تعب - ولم يتناول طوال النهار غير كأس من النبيذ - وفى نحو الساعة الرابعة من بعد الظهر ، ظهر فى الأفق الدير العتيق فوق تلة بوبا - وكان ذلك وقت الغفران - وكان يرى فى الطريق العام صف من الحجاج

يرتقون المنحدر الوعر كسرب من النمل المجتهد - وبعد ذلك
بقليل راوا عن بعد السرب الأزلى للطيور الكاسرة وهي تتلق
فوق السور ومياه المديح - واذا رأى الجنرال الاسوار أشار
الى الجنرال جوزيه ماريا كارينو ، فانضم اليه هذا الأخير
وقدم له طرف دراعه المبتورة ليعينه على الصعود - وقال له
الجنرال فى صوت خافت جدا : « لدى مهمة خاصة لك -
حاول أن تعرف أين يوجد سوكريه عندما نصل » - ورثت
بيده على ظهره كمادته حين يعنى أن هذا كل شيء ، وأردف :
« فيما بيننا بالطبع » -

كان ينتظرهم وقد كبير على رأسه مونتيلا . فى الطريق
العام - ورأى الجنرال نفسه مضطرا الى انهاء رحلته فى
العربة القديمة للحاكم الاسباني ، تجرها بعض البغال
النشطة - ورغم أن الشمس بدأت فى المغيب فإن أغصان
أشجار المانجو بدت كأنها تغلى فى لهب المستنقعات الميتة التى
تحيط بالمدينة ، والتى كانت رائحتها النتنة أقل احتمالا من
روائح الخليج التى تعفنت منذ قرن بدماء ومخلفات المديح -
وعندما مروا من بوابة « ديمى لون » طارت مجموعة من
الطيور الكاسرة مذعورة من السوق الى الفضاء ، وكانت
ما تزال هناك آثار دعر تسبب فيها كلب مسعور عضى فى
الصباح بضعة أشخاص مختلفى الأعمار ، منهم امرأة قشتالية
من جنس أبيض كانت تتجول هناك حيث لم يكن لها أن توجد -
وعض أيضا أطفالا بحى العبيد ، وأفلح هؤلاء الآخرون فى
قتله بالعجالة ، وكانت جثته تتدلى أمام باب المدرسة -
وأحرقها الجنرال لأسباب صحية أولا ، ولكى يمنع الأهالى على
الخصوص من محاولة التفريغ والاضرار بها بالسحر
الأفريقى -

وفى داخل الأسوار ، هبط السكان الى الشارع ، بناء
على قرار عاجل - وكانت الأمسيات قد غدت أطول وأكثر
شفافية مع قدوم شهر يولية - وبدت أكاليل من الزهور فى

الشرفات ، ونساء يرتدين ثيابا غريبة على طريقة مدريد الشعبية - ودوت أجراس المدينة وصخب الفرق وطلقات المدفعية حتى البحر ، ومع ذلك فلم يستطع أى شئ من هذا تخفيف اليأس الذى أرادوا اخفائه ، وكان الجنرال يلوح بقبضته من العربة المخلعة ، ولم يستطع الا أن يرى نفسه فى هذه الهالة من الشفقة وهو يقارن بين هذا الاستقبال المعسر ودخوله الظافر الى كاراكاس فى أغسطس سنة ١٨١٣ ، حيث توج بأكاليل الغار فى عربة تجرها ست من أجمل فتيات المدينة ، أمام شعب دافع منعه الخلود بأن أطلق عليه لقبه المجيد « المحرر » وكانت كاراكاس عندئذ قرية نائية بالمقاطعة الاستعمارية ، كريمة وحزينة وباهتة ، ولكن أمسيات جبل أفيلا كانت تثير الحنين -

لم تكن هاتان الذاكرتان تمتان الى نفس الحياة لان مدينة قرطاجنة ديزاند النبيلة والباسلة وعاصمة الرداقة الملكية مرارا عديدة التى أشادوا الف مرة بانها واحدة من اجمل مدن الدنيا لم تعد حتى شبح ماضيها ، فقد عانت تسعة حصارات عسكرية ، برا وبحرا ، وتعرضت للسلب والنهب مرارا عديدة من القراصنة ومن الجنرالات ومع ذلك فلم يدمرها شئ كما دمرتها حروب الاستقلال وحروب المتأمرين بعد ذلك - وهربت العائلات التى أثرت وقت الذهب، وتشتت العبيد القدماء خلف حرب لا طائل منها ، وقصور النبلاء احتلها الأوياش ، وراحت تصب فى الشوارع التى أصبحت كالمزابل فئراناً كبيرة كالقطط - وأصبح من المتعذر - بين الأشواك والعوسج ، رؤية حزام الأسوار الخفية التى أراد فيليب ، ملك أسبانيا رؤيتها بالمتظار المكبر من أبراج قصره ، وغدت التجارة التى ازدهرت بتهريب الرقيق فى القرن السابع عشر مقتصرة على بضعة متاجر خربة - ولم يكن المجد ليتفق مع نتانة المجارى المفتوحة - وتنهد الجنرال وهمس فى أذن مونتيلا :

— بئس هذه الحرية التى كلفتنا الكثير ! —

جمع مونتيلا فى تلك الليلة جميع ما فى المدينة من الرجال المشهورين والمرموقين فى قصره المنيف بشارع فاكتوريا حيث قضى فيه المريكز فالديهيوس حياة بائسة فى حين أثرت زوجته المريكزة بفضل تهريب الرقيق والاتجار بالزنوج - وفى القصور أضيئت شموع عيد القيامة ، ولدى الجنرال لم ينخدع بها لأنه كان يعرف أن أية قضية فى جزر الكاريبى مهما يكن نوعها ، حتى ولو مات شخص مرموق يمكن أن تكون سببا لأعياد شعبية - وكانت تلك حفلة زائفة فى الواقع ، فمنذ بضعة أيام كانت الجرائد تتكلم عنه بكل سوء ، وحرص الحزب المعارض أنصاره من الأشقياء على تحطيم التوافد بالحجارة ومواجهة رجال البوليس بالهراوات - وقال مونتيلا بسخريته العادية ، فى وعيه بأن غضب الشعب انما موجه اليه هو أكثر مما هو موجه الى الجنرال « من حسن الحظ أنه لم يبق هناك لوح زجاج واحد سليما » وعزز حرس الرماة بفرق من الجنود المحلية ، وحاصر المنطقة وحظر اطلاع ضيفه على حالة الفوضى التى تتدلع فى الشارع .

وأقبل الكونت دى ريجكور تلك الليلة بالذات لينبئ بأن الباخرة الانجليزية على مرمى البصر من قصور بوكاشيكا ، ولكنه لن يبحر بها متذرعا بالحجة الرسمية بأنه لا يريد أن يشترك فى عبور المحيط الكبير مع مجموعة من النساء يتكومن فوق بعض فى مقصورة واحدة ، ولكن الحقيقة انه « رغم النداء الاجتماعى بتورباكو » ومغامرة صراع الديكة ، وكل ما قام به الجنرال للتغلب على وعكاته الصحية ، رأى الكونت انه لم يكن فى حالة تمكنه من القيام بالرحيل - رأى أن معنوياته قد تتحمل العبور ، أما جسده فلا ، ورفض أن يسدى خدمة للموت - ومع ذلك فلم تستطع هذه الأسباب ولا العديد من غيرها من الأسباب زعزعة عزم الجنرال .

لم يقر مونتيلا بالهزيمة - استأذن مدعويه فى الانصراف مبكرا حتى يستطيع المريض أن يستجم ، ومع ذلك فقد احتجزه فترة طويلة فى الشرفة الداخلية ، فى حين راحت مراهقة فاترة ترتدى قميصا من الموسلين الشفاف تعزف سبع أغنيات غرامية على قيثارة - وكانت أغنيات جميلة جدا ، وأجادت عزفها برقة بحيث أن الجنرالين لم يطاوعهما قلباهما على الكلام قبل أن تنتهى نسمة البحر من اكتساح الرماد الأخير للموسيقى - وبقي الجنرال نعان فى المقعد الهزاز ، محلقا فى نغمات القيثارة - وفجأة غلبه التأثر فراح يشدو فى صوت فاتر وواضح جلى بالكلمات الكاملة للأغنية الأخيرة . وأخيرا تحول الى العازفة وتمتم لها بكلمات شكر نابغة من سويداء قلبه ، ولكنه لم ير الا القيثارة واكليلا من الفار الذابل ، وتذكر عندئذ وقال :

- فى هوندا سجين لاقتراه جريمة قتل لها ما يبررها -

قهقه مونتيلا ثم أطلق دعابته قائلا :

- وما لون قرنيه ؟

تظاهر الجنرال بأنه لم يسمع وعرض عليه المسألة بالتفصيل فيما عدا ملحقته الشخصية مع ميراندا لندساي فى جمايكا - ورأى مونتيلا أن حل القضية ميسور وقال :

- فليطلب نقله الى قرطاجنة لأسباب صحية - وما أن يأتى هنا حتى تتكفل بإطلاق سراحه -

سأله الجنرال : هل هذا ممكن حقا ؟

أجاب مونتيلا : ليس ممكنا ، ولكننا سنعمل على أن يحدث -

أطبق الجنرال عينيه متجاهلا نباح الكلاب الذى دوى فجأة ، وخطر لمونتيلا أنه قد نام - وبعد تفكير عميق فتح عينيه من جديد وحفظ القضية قائلا :

— موافق • لكننى لا أعرف شيئاً •

تبين عندئذ النباح الذى أخذ يتسع فى موجات متراكزة •
بدءاً من الأسوار حتى أبعد المستنقعات ، حيث كانت الكلاب
مدربة على عدم النباح حتى لا تنم عن أصحابها ، وقال له
الجنرال مونتيلا أنهم يسممون الكلاب الضالة لمنع انتشار
داء الكلب ، وأنهم لم يقلحوا الا فى امساك طفلين عقرهما
الكلب فى حى العبيد ، فقد أخفى الأهالى الأطفال الآخرين
كعادتهم لكى يموتوا فى حماية ألتهم أو يؤوهم فى مخايب
العبيد الآخرين فى مستنقعات ماريا لاباجا حيث لا تستطيع
الحكومة دخولها • فى محاولة لانقاذهم بحيل السحرة •

لم يحاول الجنرال أبدا ايقاف هذه الشعائر المصرية •
ولكن بدا له تسميم الكلاب أمراً غير انساني • كان يحبها كما
يحب الجياد والزهور ، وأول مرة أبحر فيها الى أوروبا
اصطحب معه كلبين حتى فيراكروز • وكان لديه منها أكثر
من عشرة على رأس أربعمئة فلاح يرتدون الأسمال • واجتاز
الانديز ، بدءاً من سهول فنزويلا لتحرير غرناطة الجديدة
وتأسيس جمهورية كولومبيا ، وقد أخذهم دائماً الى الحرب •
وقد هزم نيفادو • وهو أشهر كلابه ورفيق حملاته الأولى •
زمرة من عشرين كلباً من كلاب الحراسة بالجيش الاسبانى
قبل أن يلقي حتفه بضربة من رمح فى معركة كارامبوبو
الأولى • وفى ليما كان لدى مانويلا ساينز من الكلاب أكثر
مما تستطيع الاهتمام بهم فضلاً عن الحيوانات العديدة من
كل صنف التى تربىها فى قصر مجدالينا • وقد قال أحدهم
للجنرال ان الكلب عندما يموت يجب استبداله على الفور
بكلب آخر ينسب له نفس الاسم حتى يعتقد أنه نفس الكلب •
ولم يوافق الجنرال • فقد أرادها دائماً مختلفة لكى يتذكر
كلامها على حدة باضطرام عينيه وقلق أنفاسه • ولكى يتألم
لموتهم • وفى ليلة الخامس والعشرين من سبتمبر المشؤمة
سجل اسمى الكلبين اللذين ذبحهما المتآمرون بين ضحايا

الهجوم . وكان معه فى هذه الرحلة الأخيرة الكلبان الياقيين . وكذلك الكلب الأجرب الذى أووه وهم فى النهر : عندما أخبره مونتيلا أنهم سمموا فى اليوم الأول أكثر من خمسين كلبا ، أفسد الخبر الحالة الذهنية التى أغرقه فيها عزف القيثارة .

ندم مونتيلا بصدق وأقسم له أنه لن يكون هناك المزيد من الكلاب المسمومة فى الشوارع ، وهذا الوعد الجنرال ، لا لأنه صدق أنه سيبر به . ولكن لأن النوايا الطيبة لضباطه كانت تريح أعصابه . وقام صفو الليلة بالباقي . وارتفع من صحن الدار المضاء شذا أزهار الياسمين ، وبدأ الهواء كالناس ، والنجوم فى السماء كانت أكثر منها فى أى وقت مضى . كالأندلس فى أبريل . كان قد قال ذلك فى أوقات أخرى وهو يتذكر كولومبس . وريح متضادة كنست الشوارع والروائح ولم يبق غير صخب الأمواج وهى ترتطم بالصخور .

توسل مونتيلا قائلاً : لا ترحل يا جنرال .

أجاب : ان الباخرة بالميناء .

قال مونتيلا : ستأتى بواخر أخرى .

أجاب : الأمر سيان ، فكل واحدة منها ستكون الأخيرة .

ظل على رأيه . وبعد توسلات عديدة بدون طائل لم يسع مونتيلا أخيراً إلا أن يكشف له السر الذى أقسم على الاحتفاظ به حتى عشية الأحداث ، وذلك أن الجنرال رافائيل أوردانيتا يعد ، على رأس بعض الضباط البوليفاريين انقلاباً فى سانتا فى فى أوائل سبتمبر . وخلافاً لما كان مونتيلا يتوقع لم يبد الجنرال أية دهشة وقال :

— لم أكن أعرف شيئاً عن هذا ، ولكن من السهل تصوره .

كشفت له مونتيلا عندئذ تفاصيل المؤامرة العسكـرية التي تدور بالفعل في جميع الحاميات المخلصة بالاتفاق مع بعض ضباط فنزويلا • وغرق الجنرال في تفكير عميق ثم قال : ليس لهذا أى معنى • اذا كان أوردانيتا يريد اصلاح الدنيا حقاً فليتفاهم مع بايز ويستعد تاريخ الخمسة عشر عاما الأخيرة ، من كاراكاس حتى ليما ، ولن يكون الأمر بعد ذلك أكثر من نزعة وطنية حتى باتاجونيا ، غير أنه ترك المسألة معلقة قبل أن يمضى للنوم وقال :

— هل سوكرية على علم ؟

أجاب مونتيلا : انه غير موافق •

قال الجنرال : بسبب خلافه مع أوردانيتا بالتأكيد •

قال مونتيلا : كلا • بل لأنه ضد كل ما يحول بينه وبين الذهاب الى كيتو •

قال الجنرال : مهما يكن فيجب التحدث اليه • أما معى انا فانك تضيع وقتك •

بدا أن هذه كلمته الاخيرة الى حد أنه أصدر فى وقت مبكر من صباح اليوم التالى أمره الى جوزيه بالاسيوس بنقل أمتعته الى الباخرة الواقعة فى الخليج • وطلب من الربان ان يلقى المرساة بعد الظهر أمام حصن سانتو دومينجو لكي يتاح له أن يراها من شرفة البيت • وكانت الاستعدادات دقيقة جداً ، وحيث انه لم يقل من من ضباطه سيرحل معه فقد ظنوا أنه لن يصطحب معه أحدا منهم • وقام ويلسون • بما استقر عليه الرأى منذ شهر يناير ونقل أمتعته دون أن يستشير أحدا •

وحتى الذين كانوا أقل اقتناعا برحيله ذهبوا لتوديعه عندما رأوا العربات الست بحمولتها تمر فى طريقها الى

الميناء - وكان الكونت دى ريجكور ضيف الشرف المدعو هذه المرة على الغداء هو وكاميل - كانت تبدو أصغر سناً ، يكسب شعرها المعقوص فى حلقات وبلوزتها الخضراء وخف من نفس اللون ، عينيها وميضاً أقل قسوة ، وأخفى الجنرال استياءه وهو يراها بأن قال لها مجاملاً بالاسبانية :

— لا بد أن السيدة شديدة الثقة بجمالها بحيث ترى أن اللون الأخضر يناسبها -

ترجم الكونت العبارة فوراً فانفجرت كاميل ضاحكة مسرورة وملأت ضحكاتها جوف البيت برائحة عرق السوس وقالت : « دعنا لا نبدأ من جديدة يا دون سيمون » - كان شئ فيهما قد تغير لأن كل منهما لم يجرؤ على العودة الى المباراة البلاغية للقائهما الأول مخافة أن يجرح شعور الآخر - ونسيته كاميل وهى تتمايل كما يحلو لها وسط جمع من الناس تربوا بالذات لكى يتكلموا بالفرنسية فى مثل هذه المناسبات - ومضى الجنرال لتبادل بضع كلمات مع الراهب سبستيان دى سيجونيزا الذى يتمتع باعتبار يستحقه لأنه عالج همبولد من جدرى أصيب به فى المدينة خلال السنة الأولى من القرن - وكان الراهب هو الوحيد الذى لم يعر الأمر أهمية اذ قال : « ان الله شاء أن يموت بعض الناس بالجدرى وأن لا يموت البعض الآخر به والبارون همبولد من هؤلاء الآخرين » - وقد طلب الجنرال أن يتعرف به أثناء رحلته السابقة عندما عرف أنه يعالج ثلاثمائة من الأمراض المختلفة بمقاير أساسها الصبر -

عندما عاد جوزيه بالاسيوس من الميناء ومعه نبأ رسمى بأن الباخرة ستكون أمام البيت بعد الغداء أصدر مونتيلا أمره بالاعداد لحفلة الوداع العسكرية ، وبسبب الشمس فى تلك الساعة من منتصف شهر يونية أمر بإقامة مظلات فوق الزوارق التى يجب أن تنقل الجنرال وحاشيته من حصن

سانتو دومينجو : وفى الساعة الحادية عشرة احتشد البيت بالمدوعين والزوار التلقائيين الذين يكادون يختنقون من الحر ، وقدمت على المائدة الكبيرة كل الأنواع الغريبة والشهية من المأكولات المحلية . ولم تستطع كاميل أن تفهم سبب الانفعال الشديد الذى يرج قاعة الطعام عندما سمعت الصوت المصدوع يهمس فى أذنها : « بعدك يا سيدتى » وساعدها الجنرال على تناول القليل من كل شيء وهو يذكر لها اسم ووصفة وأصل كل نوع من الطعام ، ثم أعد لنفسه طبقا مشكلا مثيرا بذلك دهشة طاهيته ، وكان قد رفض أن يتناول منها منذ ساعات طبقا من المشهيات ، ثم شق طريقها بين الجماعات التى تبحث عن مكان للجلوس ، واصطحبها حتى آوانى الأزهار الكبيرة الاستوائية ووجه اليها الحديث ، فقال دون مقدمات :

— سيروق لى أن ألتقى بك فى كنجستون .

أجابت دون أية دهشة : لن يسرنى شيء أكثر من ذلك ، فاننى أحب الجبال الزرقاء .
— وحدك ؟

أجابت : مهما يكن الشخص الذى يرافقنى فساكون دائما وحيدة .

وأردفت تقول فى شيء من الخبث : يا صاحب الفخامة .
ابتسم وقال : سأوصى هيسلوب بأن يبحث عنك .

وكان هذا كل شيء . واصطحبها ثانية عبر الصالة الى المكان الذى وجدها فيه ثم استأذن منها وحياتها مجاملا وانصرف . وترك طبقه سليما على حافة احدى النوافذ ، وعاد الى مكانه ، ولم يعرف أحد فى أية لحظة قرر البقاء ، ولا السبب فى قراره . وضايقه السياسيون وهم يحدثونه

عن الانشقاكات المحلية « وتحول فجأة نحو ريجكور وقال دون مناسبة لكي يسمعه الجميع :

— أنت على حق يا سيدى الكونت « فماذا أفعل بكل هذه النساء وأنا فى هذه الحالة المحزنة ؟

قال الكونت وهو يتنهد : هذا رأى بالذات «

ثم استطرد مسرعا : وعوض عن ذلك فستأتى فى الأسبوع المقبل الفرقاطة شانون الانجليزية ، وبها مقصورة جيدة وطبيب ممتاز «

قال الجنرال : هذا أسوأ من مائة امرأ «

وعلى كل حال فلم يكن هذا التوضيح الا ذريعة لأن أحد الضباط كان على استعداد لأن يتنازل له عن مقصورته حتى جاميكا « وكان جوزيه بالاسيوس هو الوحيد الذى كشف السبب الحقيقى وهو ينطق بعبارته الأكيدة : «ان ما يدور فى رأس سيدى لا يعرفه غير سيدى» « وما كان الجنرال ليستطيع الابحار على كل حال لأن الباخرة جنحت وأصبحت بأضرار جسيمة بينما كانت تتهاى لكى تمضى لاستقباله فى سانتو دومينجو «

بحيثبقى مع شرط وحيد وهو ألا يقيم فى بيت مونتيللا « كان الجنرال يعتبر ذلك البيت من أجمل بيوت المدينة ، ولكنه كان يجده باردا جدا لعظامه لقربه من البحر ، خصوصا فى الشتاء ، عندما يستيقظ فى أغطيته المبتلة « كانت صعته تستوجب هواء أقل برودة ، من هواء الأماكن المغلقة « وفسر مونتيللا ذلك كاعلان اقامة طويلة ، وسارع بارضائه «

كانت هناك ضاحية فى مفارق طرق هضبة لابوبا .
أحرقها الغرناطيون فى سنة ١٨١٥ بأيديهم حتى لا تستطيع
الجنود الملكية استرداد المدينة وتعسكر فيها . وكانت تضحية
لا طائل منها لأن الاسبان استولوا على أسوار المدينة بعد ما
وسنة عشر يوما اضطر المحاصرون أثناءها الى أكل حتى نعال
أحذيتهم . وهلك أكثر من ستة آلاف شخص من الجوع .
وبعد خمسة عشر عاما كان السهل لا يزال متفحما ويتعرض
للحرارة اللافحة لشمس الساعة الثانية من بعد الظهر . وأحد
البيوت القليلة التى بنيت فى تلك الفترة هو بيت تاجر
انجليزى يدعى جوداه كنجسلر ، وكان مسافرا فى الوقت
الحالى ، وقد جذب انتباه الجنرال عند مجيئه الى تورباكو
بسبب سطحه النظيف المبنى من سعف النخيل وجدران الزاهية
الألوان ، ولأنه يكاد يكون مدفونا فى قلب غابة من الأشجار
المثمرة .

ورأى الجنرال مونتيلا أنه بيت متواضع بالنسبة لمكانة
ضيفه ، ولكن هذا الأخير ذكره بأنه سبق أن وجد راحته فى
فراش دوقه كما وجدها فى زريبة خنازير ، وهو متدثر فى
حرمله ، بحيث انه اكترى البيت لفترة غير معلومة وبأجر
اضافى للفراش والبطست وكراسى الصالة الستة وجهاز
التقطير الذى كان مستر كنجسلر يستخدمه لصنع شرابه
الكحول . وأتى الجنرال مونتيلا من قصر الحكومة بأريكة
منجدة بالقטיפه وبنى كوخا كبيرا من الخيزران لاقامة جنود
الحرس . وكان الجو لطيفا فى الساعات المشمسة وأقل برودة
فى الأوقات الأخرى من بيت المركيز فالديهيوس ، ويحتوى
على أربع غرف مفتوحة على كل الرياح حيث تنتشر السحالى
الأمريكية . وكان الأرق فيه أقل حدة عندما تسمع فى
الصباح الانفجارات الخاطفة لثمار القشدة وهى تتساقط من
أشجارها . وفى الأصيل . وخصوصا فى الأوقات الشديدة

المطر ، كانت ترى مواكب الفقراء الذين يحملون غرقاهم
للسهر عليهم داخل الدير .

وبعد أن انتقل الجنرال الى بيت بيبه دى لابويا لم يعد
الى البيت القديم الا ثلاث مرات ، لا لشيء الا لكى يأخذ وضعه
كنموذج أمام الرسام أنطونيو موكى ، وهو رسام ايطالى كان
يمر بقرطاجنة ، وأحس بأنه ضعيف جدا بحيث اضطر الى
الجلوس فى الشرفة الداخلية لبيت المريكز ، وسط الزهور
البرية ولجب العصافير . ولم يكن يستطيع أن يبقى بلا حراك
أكثر من ساعة . وراقت له الصورة . رغم أن الفنان يبدو أنه
أشفق عليه كثيرا وهو يرسمه .

كان الرسام الغرناطى جوزيه مارياسبينوزا قد رسمه
فى قصر الرئاسة بسانتافى قبل محاولة الاغتيال فى سبتمبر ،
وبدت له صورته مختلفة جدا عن الصورة التى يعرفها عن
نفسه ، بحيث لم يستطع مقاومة الاغراء بالشكوى للجنرال
سانتانا . سكرتيره فى ذلك الوقت ، وقال له :

— هل تعرف لمن تشبه هذه الصورة ؟ .. انها تشبه
العجوز أولايا .. عجوز لاميزا ..

وعندما عرفت مانويلا ساينز ذلك استنكرت لأنها كانت
تعرف عجوز لاميزا وقالت : يبدو لى أنك لا تحب نفسك
كثيرا ، فقد كان أولايا فى الثمانين من عمره عندما رأيناه
آخر مرة . ولم يكن يستطيع الوقوف .

كانت أقدم صورة له منمنمة رسمها له رسام مجهول فى
مدريد ، عندما كان فى السادسة عشرة من عمره . وعندما
بلغ الثانية والثلاثين رسمت له صورة أخرى فى هايتى ، وكلتا
الصورتين كانت أمينة بالنسبة لسنه وطبيعته الكاريبية .
كان يجرى فى عروقه دم أفريقى ورثه عن أحد أجداد أبيه
أنجب ابنا من أمة ، وعكست قسماته ذلك الى حد أن نبلاء

ليما أطلقوا عليه اسم « الزامبو » . وكان كلما أحرز مجدا
جمله الرسامون بغسل دمه واضفاء شيء من الكمال على
قسماته حتى رسخوها فى الذاكرة الرسمية كما لو أنها
قسمات لتمثال رومانى ، وبالمقابل فان صورة اسبينوزا لم
تكن لتشبهه وهو فى الخامسة والأربعين وقد أضناه المرض
الذى حاول اخفائه ، وعلى الخصوص عن نفسه حتى عشية
موته .

فى ليلة ممطرة استيقظ الجنرال من رقاد مضطرب فى
منزل ببيه دى لابوبا ورأى مخلوقة انجيلية تجلس فى ركن من
الغرفة . ترتدى ثوبا من الكتان الخشن من ذلك النوع الذى
ترتديه الراهبات وتزين شعرها باكليل من الجبابب - كان
الرحالة الأوربيون تأخذهم الدهشة فى العهد الاستعمارى
وهم يرون الأهالى ينيرون طريقهم بقوارير ملأى بتلك
الحشرات المضيئة . واصبحت هذه الحشرات فيما بعد
موضة جمهورية . استخدمتا النساء كأكاليل مضيئة
فى شعورهن وعلى جباههن ومشابك فسفورية على
صدورهن . أما الفتاة التى دخلت الغرفة تلك الليلة
فقد خاطتها على شريط أضاء وجهها برونق شبحى
كانت فاترة وغامضة فى العشرين من عمرها وخط المشيب
شعرها قبل الأوان ، وقد اكتشف الجنرال على الفور ومضات
الفضيلة التى يقدرها أكثر من غيرها عند المرأة والذكاء
الشديد . دخلت معسكر الجنود لكى تمنح نفسها مقابل أى
شئ . وانبهر قائد الحرس بجمالها ومفاتها وبعث بها الى
جوزيه بالاسيوس لعلها تروق للجنرال . ودعاها هذا الأخير
الى الاستلقاء بجواره لأنه لم يجد من نفسه القوة لكى يحملها
بين يديه حتى الأرجوحة فخلعت شريطها ووضعت الجبابب
المضيئة داخل قطعة من عود قصب جاءت به معها ورقدت
بجواره . وجازف وسألها عن رأيهم فيه فى قرطاجنة
فقالت :

— يقال ان فخامتك فى صحة جيدة وانك تتمارض لكى
يشفقوا بك .

خلع قميص نومه وطلب منها أن تفحصه على ضوء
الشمعة . وعندئذ تعرفت . بوصة بوصة على أكثر الاجساد
تلغا التى يمكن للانسان أن يراها : بطن غائرة واضلاع
ظاهرة وساقين وذراعين أشبه بساقى وذراعى هيكل عظمى .
والكل يكسوه جلد أمرد له شحوب الموتى ووجه مدبوغ
بصروف الحياة ويبدو كأنه جسد شخص آخر غيره . وقال :
— لم يبق أمامى الا أن أموت .

قالت الفتاة فى اصرار : ان الناس يقولون انك هكذا
منذ الأبد ، ولكن من صالحك الآن أن يعرفوا ذلك .

لم يقر بالواقع . واستمر يقدم لها كل الأدلة التى
لا يمكن نقضها عن مرضه بينما كانت تستسلم لبضع لحظات
لنوم سهل . وراحت تتابع ردودها وهى نائمة دون أن تفقد
حبل الحديث . ولم يلمسها طوال الليل واكتفى بأن يستشعر
دفع ملاذ مراهقته . وفجأة راح الملازم ايتوربيد يغنى بجوار
النافذة « اذا هبت العاصفة وازداد الاعصار فاعقدى ذراعيك
حول عنقكى لكى يجرفنا البحر معا » . كانت غنوة من الماضى ،
من ذلك الوقت الذى كانت معدته لا تزال تتحمل القوة الهائلة
لهضم الجوافة الطازجة وشبق امرأة فى الظلام . وأصغى
الجنرال والفتاة اليه معا بورع تقريبا . ولكنها نعست فى
نصف الغنوة التالية ، وغرق هو بعد قليل فى وهن لا تتخلله
الأحلام . وكان الصمت مطبقا بعد الموسيقى بحيث هاجت
الكلاب عندما نهضت على طرف قدميها لكى لا توقظ الجنرال
وسمعها وهى تبحث ، متحسسة ، عن أكرة الباب فقال :

— أنت تنصرفين وأنت عذراء .

أجابته بضحكة مرحة : ما من امرأة تبقى عذراء بعد أن
تقضى ليلة معك يا صاحب الفخامة .

وانصرفت كما انصرفت جميع الأخريات ، لانه من بين جميع النساء اللاتي مررن بحياته ، والكثير منهن بعد بضع ساعات ، لم يخطر له أن يفكر في استبقاء واحدة منهن . ولكنه كان قميئا ، في مبادراته الفرامية ، بأن يغير العالم لكي يمضى ويجدهن . وإذا ما أرضى رغباته اكتفى بالاحساس الوهمى بأنه يمتلكهن فى ذاكرته ، ويمتنح نفسه لهن عن بعد فى خطابات ملتهبة ويرسل اليهن هدايا فخمة ، لكي يمنع نفسه من نسيانهن ، ولكن دون أن يربط أقل جزء من حياته بارتباط يبدو أقرب الى الغرور أكثر منه الى الحب .

ما أن وجد نفسه وحده فى تلك الليلة حتى نهض لكي ينضم الى ايتورييد الذى كان يتبادل الحديث مع بعض الضباط حول نار فى الحديقة ، وحمله على الفناء حتى الفجر ، وطلب من جوزيه دى لاكروز باريدس أن يصاحبه بالقيثارة ، وفهم الجميع . من الأغاني التى كان يطلبها ، أنه عكر المزاج .

كان قد عاد من رحلته الثانية الى أوروبا متحمسا للأغاني الحديثة التى كان يشدو بها بكل قوته ، ويرقص بيسر لا يضاهاى فى أفراح النبلاء الكريوليين بكاراكاس . وغيرت الحروب ميوله ، فالأغاني الرومانسية التى قادته خلال البحار المريبة لغرامياته الأولى تركت مكانها للفلسفات النسخة والألحان العسكرية ، ولكنه أراد فى تلك الليلة ، فى قرطاجنة ، أن يسمع أغنيات شبابه . وبعضها كانت قديمة جدا بحيث اضطر أن يلقتها لايتورييد . وكان هذا صغيرا فى ذلك الوقت بحيث لم يعد يتذكرها ، وكلمسا نزع قلب الجنرال ، انصرف بعض المستمعين حتى لم يبق غيره هو وايتورييد أمام النار التى راحت تخبو .

كانت ليلة غربية ، ليس فى سمائها نجمة واحدة ، وراحت ريح البحر تهب محملة ببيكاء اليتامى وبروائح عفنة .

وكان ايتوريبيد رجلا صموتا بطبعه يمكنه أن ينتظر الفجر ويتأمل ، دون أن تطرف عيناه الرماد المتجمد وهو غارق في نفس الالهام الذي يحس به وهو يغنى ليلة بتمامها دون توقف . وحطم الجنرال الصمت وقال وهو يضرب الرماد بعصاه :

— ماذا يقولون في المكسيك ؟

قال ايتوريبيد : لا أعرف أحدا هناك ، فأنا رجل منفي -

قال الجنرال : نحن جميعا متضيون - منذ أن بدأ كل هذا لم أعش الا ست سنوات في فنزويلا ، وبقيت بقية الوطن اضرب في أقصى بلاد العالم ، ولا يمكنك أن تتصور ماذا يمكن أن أقدمه لو أستطيع في هذه اللحظة تناول يغنى باللحم السمين .

لا ريب أن أفكاره أفلتت حقا نحو مصنع السكر الذي قضى فيه طفولته لأنه غرق في صمت مقنع وهو ينظر الى النار وهي تنجو - وعندما تكلم من جديد عاد الى الأرض الثابتة وقال : « المشكلة هي أننا عدلنا عن أن نكون اسبانيين ، ثم رحنا نمضى هنا وهناك في بلاد تتغير أسماؤها وحكوماتها من يوم الى آخر الى حد أننا لم نعد ندرى أين نحن » . وتأمل الرماد من جديد لحظة طويلة ثم سأل بلهجة مختلفة :

— كيف خطر لك أن تأتي الى هنا في حين أن هناك بلادا أخرى في الدنيا ؟

أجابه ايتوريبيد وهو يلف لفة طويلة : علمونا في الكلية العربية كيف نحارب على الورق - كنا نحارب جنودا من الرصاص فوق نماذج من الحصى - وكانوا يمضون بنا أيام الاتحاد الى المراعى المجاورة ، بين الأبقار والسيدات العائدات مع القداس ، ويطلق الكولونل قذيفة مدفع لكى نعتاد على

الرب من الانفجار ومن رائحة البارود - تصور ان اكثر
الاساتذة مقدره كان انجليزيا عاجزا وكان يعلمنا كيف نقع
موتى من فوق الجياد .

قاطعه الجنرال قائلا : وكنت تريد حربا حقيقية ؟

اجاب ايتوربيد : كنت اريد حربك أنت أيها الجنرال ،
ولكن مرت بى الآن سنتان على تطوعى ومازلت أجهل ما هى
معركة اللحم والدم .

استطرد الجنرال دون أن ينظر الى وجهه : « انك أخطأت
المصير اذن فلن تكون هناك حروب غير حروب البعض ضد
البعض » والامر عندئذ كأنك تقتل أمك بالذات » وقال له
جوزيه بالاسيوس وهو فى الظل ان النهار يوشك أن يطلع ،
وعندئذ شئت الرماد بطرف العصا وقال وهو ينهض معتمدا
على ذراع ايتوربيد :

— أما أنا فلو كنت مكانك لفررت من هنا بأقصى سرعة
قبل أن يلحق بى العار .

كرر جوزيه بالاسيوس حتى مماته أن بيت بيبه دى لابوبا
كان مسحورا بأرواح ماكرة ، فما كادوا يقيمون فيه حتى
أقبل الملازم جوزيه توماس ماشادو من فنزويلا بنبا يقول
فيه ان فرقا عسكرية قد شجبت الحكومة الانفصالية وانضمت
الى حزب جديد موال للجنرال . واستقبله هذا الأخير على
انفراد واستمع اليه باهتمام ولكن لم يبد أى حماس وقال :
« ان الأخبار طيبة ولكنها تأتى متأخرة » - أما أنا فماذا
يستطيع عاجز مسكين ضد العالم أجمع » - وأصدر تعليماته
لاستضافة الرسول والوفد الذى رافقه ، ولكنه لم يعده برد
وانما قال : اننى لا أنتظر أى سلام للوطن .

ومع ذلك ، ما أن استأذن بالانصراف من الكابتن
ماشادو حتى مضى الى كارييتو وسأله : « هل وجدت سوكريه؟ »

« نعم - مضى الى سانتا فى فى منتصف مايو مسرعا لكى يحضر عيد ميلاده مع زوجته وابنته فى اليوم المحدد » -

واستطرد كارينو : وكان مسرعا ، وقد التقى به الرئيس موسكيرا فى طريق بوبايان -

صاح الجنرال مدعورا : ماذا تقول ؟ هل سافر عبر البر ؟

- هو ذلك أيها الجنرال -

صاح : رياه !

كانت ضربة أصابته فى الصميم - فقد عرف فى نفس الليلة أن سوكريه راح ضحية كمين وقتل برصاصة فى ظهره فى اليوم الرابع من يونيه بينما كان يجتاز منطقة بيروكوس المعتمة - وجاء مونتيلا بالخبر السيئ بينما كان الجنرال يأخذ حمامه الليلي - وما كاد يسمعه حتى ضرب جبينه بكف يده وشد بكل قوته المقرش الذى كان ما يزال فوق مائدة الطعام كما لو أن الجنون قد تملكه من فرط الغضب وقال :

- رحماك يا الله !

وكان البيت لا يزال يدوى بصدى الضجة عندما استرد رباطة جأشه - وانهار فوق مقعده وهو يهدر : « انه أوباندو ... أوباندو ذلك القاتل الأجير الذى يعمل لحساب الاسبان » - وكان يعنى الجنرال ماريا أوباندو ، قائد فرقة باسطو على حدود غرناطة الجديدة الذى حرمه بهذه الطريقة من خلفه الوحيد الممكن ، ضامنا لنفسه رئاسة الجمهورية المفككة لكى يسلمها لسانتاندر - وقد ذكر أحد المتأمرين فى مذكراته أنه عندما خرج من البيت الذى دبرت فيه الجريمة - فى ميدان سانتا فى أحس بصدمة كبيرة وهو يرى فى ضباب

بعد الظهر الشديد البرودة المارشال سوكريه ، بمعظمه
الاسود من الجوخ وبيعته المتواضعه ، يمتنى بمفرده ويداه فى
جيبه فى ساحة الكنيسة .

تقياً الجنرال دما تى الليلة التى علم فيها بموت سوكريه -
وكنتم جوزيه بالاسيوس الامر ، كما فعل فى هوندا عندما
فاجأ سيده وهو على أربع . يحاول أن يغسل أرض الحمام
باسفنج ، واحتفظ لنفسه بالسرين دون أن يطلب الجنرال
منه ذلك ، لانه اعتقد أنه ليس من الملائم أن يضيف أنباء
سيئة أخرى الى الأنباء المعروفة .

أحس الجنرال فى ليلة شبيهة بهذه ، فى جوياكيل
بشيخوخته المبكرة - وكان شعره مسترسلا حتى كتفيه ويعقده
فى مؤخرة رأسه بشريط لكى يكون على راحته أكثر أثناء
معارك الحرب والحب . ولكنه أدرك فى هذه الليلة أنه أبيض
تقريباً . وأن وجهه ذابل وحزين وكئيب . وكتب الى صديق :
« لو ترانى فلن تعرفنى » أنا فى الواحدة والأربعين وأبدو
كشيخ فى الستين » - وفى تلك الليلة بالذات قص شعره .
وبعد ذلك بقليل حلق شاربه محاولاً إيقاف عاصفة شبابه
الذى يهرب من بين أصابعه .

بعد مقتل سوكريه لم يعد بحاجة الى فن الماكياج لاختفاء
شيخوخته . وخيم الحداد على بيت بيه دى لابوبا وكف
الضباط عن لعب الورق ، وراحوا يسهرون الى وقت متأخر
من الليل وهم يتحدثون فى الحديقة حول النار الخالدة التى
تطرد الناموس ، أو داخل الكوخ الكبير ، فى أرجوحات معلقة
على ارتفاعات مختلفة .

قطر الجنرال مراراته قطرة قطرة . كان يختار ضابطين
أو ثلاثة ، كيفما اتفق ، ويحملهما على السهر وهو يريهما
أسوأ ما يعتمل فى قلبه من كدر وكرب . وكرر على أسماعهم

مرة أخرى القصة القديمة لجيوشه التي تواجدت على حافة الانشقاق بسبب دناءة سانتاندر الذى رفض، حين كان رئيسا مؤقتا لجمهورية كولومبيا أن يرسل اليه جنودا وأموالا لإنهاء تحرير بيرو ، وقال :

— انه بخيل ومقترب بطبعه ولكن حجبته كانت تفتقر الى الادراك وبعد النظر ، ولا يتيح له ذكاؤه أن يرى الى ابعاد من الحدود الاستعمارية -

وآعاد على أسماعهم للمرة الألف حماقة الضربة القاتلة التى أصابت الوحدة بدعوة الولايات المتحدة الى مؤتمر بنما، وهى المبادرة التى قام بها سانتاندر تحت مسؤوليته فى حين أنه كان يجب اعلان وحدة أمريكا لا أكثر ولا أقل وقال :
■ لكانه دعا قطا لكى يرقص مع الفئران » وكل ذلك لان الولايات المتحدة اتهمتنا بأننا نغير القارة الى جامعة من دول شعبية ضد الاتحاد المقدس - ياله من شرف ! ■ -

وجهر مرة أخرى عن ذعره من رباطة الجأش التى وصل بها سانتاندر الى أهدافه فقال : ■ انه تجاوز كل الحدود » وكرر للمرة الأخيرة نقده اللاذع نحو الديون التى تلقاها سانتاندر من لندن التى استخدمها فى العمل على اخفاء فساد أصدقائه ، وكلما ذكر ذلك ، سواء أكان ذلك فى حديث خاص أم عام كان يضيف قطرة من السم فى جو سياسى لم يكن يبدو أنه يحتمل المزيد ، ولكنه لم يستطع أن يمتنع نفسه ذلك - وقال :

— وهكذا بدأت نهاية العالم -

كان دقيقا جدا فى ادارة الأموال العامة بحيث انه لم يستطع التعرض لهذه المسألة دون أن يملكه القلق - كان قد أصدر مرسوما وهو رئيس للجمهورية باعدام كل موظف

ثبت أدانته باختلاس وسرقة أكثر من عشرة بيزو ، وعلى العكس لم يكن يقيم أى وزن لأمواله الخاصة بحيث انفق فى بضع سنوات فى سبيل حرب الاستقلال جزءا كبيرا من ثروته التى ورثها عن أسرته ، ووزع باقى ثروته على الارامل والمعوقين فى الحرب ، وأعطى أبناء أخيه مصنع السنر الذى ورثه وترك لآخواته بيت كاراكاس ، ووزع معظم أراضيه على العديد من العبيد الذين حررهم حتى قبل إلغاء الرق ، ورفض مليون بيزو أهداها له كونجرس ليما تعبيرا عن فرحته بالتحريير - وقبل أن يستقيل بقليل أهدى قصر مونسييرات الذى خصصته له الحكومة لكى يتسنى له العيش فى مكان لائق الى صديق محتاج - وفى أبوريه نهض من الأرجوحة التى كان يرقد فيها وأهداها الى فلاح أصيب بالحمى ، وقضى بقية الليل راقدا على الأرض - والعشرون ألف بيزو التى أراد أن يدفعها من ماله الى المربى جوزيه لانكستر لم تكن دينا شخصيا وانما دين على الدولة - وكان يتنازل عن جياذه التى يحبها لأصدقائه الذين يلتقى بهم فى طريقه ، وحتى بالومو بلانكو - جواده المعروف والمشهور بقى فى بوليفيا ليرأس اصطبلات المارشال سانتاكروز بحيث ان موضوع الاختلاس كانت تحمله رغما عنه الى أقصى حدود القصاص ، وكان يقول لمن يريد أن يسمعه :

- خرج كاساندر من هذه التهمة بريئا بالطبع ، كما خرج من مؤامرة الخامس والعشرين من سبتمبر لأنه بطل فى انقاذ المظاهر - ولكن أصدقائه كانوا يعيدون الى انجلترا نفس الديون التى أقرضها الانجليز للدولة بفائدة كبيرة ويضاعفونها لحسابهم بأساليب ربوية -

وطوال ليال بأكملها عرض على الجميع أشد أعماق قلبه عتامة ، وفى فجر اليوم الرابع - بينما كانت الأزمة تبدو أبدية ظهر بباب الحديقة مرتديا نفس الثياب التى كان يرتديها عندما علم بأمر الجريمة واستدعى الجنرال بريسينو

منديز وتكلم معه على حدة حتى بدأت الديكة تصيح - وشار الجنرال في ارجوحته تحميه ناموسيه وبريسينو منديز في ارجوحة اخرى علقها له جوزيه بالاسيوس بجواره - ولم يدن اى منهم مدرسا بالطبع الى اى حد تجلى عن هدونه السلمى ، وتراجع فى بضعة أيام الى ليالى المعسكرات المتقلبة - وفى هذا الحديث أدرك الجنرال أن الاضطرابات والآمال التى عبر عنها جوزيه ماريا كارينو فى تورباكو لا يعتنقها هو وحده وانما يشاركه فيها أغلب الضباط الفنزويليين ، فقد أحسوا ، بعد التصرف العدائى للفرنطيين ازاءهم أنهم أكثر فنزويلية من أى وقت مضى وأنهم على استعداد للتضحية بحياتهم فى سبيل قضية الوحدة - ولو أن الجنرال أصدر اليهم الأمر بالمضى للقتال فى فنزويلا لمضوا اليه كنثار بارود ، وبريسينو منديز أولهم -

كانت تلك أسوأ الأيام ، والزيارة الوحيدة التى رضى الجنرال بها كانت زيارة الكولونل ميسزلاو نابييرسكى ، بطل معركة فريدلاند والذى بقى على قيد الحياة من كارثة ليبزج ، وكان قد أقبل فى تلك الأيام الاخيرة ومعه توصية من الجنرال بونياروسكى للانضمام الى الجيش الكولومبى -

قال له الجنرال: انك جئت متأخرا ، فلم يبق هناك شىء -

كان قد بقى أقل من لا شىء بعد موت سوكرية ، وهذا ما ذكره لنا نابييرسكى ، خصوصا فى مذكراته عن رحلاته التى كان يجب أن يعثر عليها شاعر غرناطى بعد ذلك بمئات وثمانين سنة - كان نابييرسكى قد وصل على سطح المرقاطة شانون ، وقد رافقه ريان السفينة حتى بيت الجنرال ، وعبر لهما هذا الأخير عن أمنيته فى الذهاب الى أوروبا - ولكن لم يتكشف فيه أى من الرجلين رغبة حقيقية للرحيل - ولما كان من المتوقع أن تتوقف الفرقاطة فى لاجوبارا ، ثم تعود الى قرطاجنة قبل أن تبحر الى كنجستون فقد أعطى الجنرال

للربان خطابا لو كي له الفنزويلي في قضية مناجم اروا على امل
آن ياتي به عند عودته بمبلغ من المال ، ولكن الفرقاطة عادت
دون جواب فاستولى عليه حزن شديد بحيث لم يخطر لأحد ان
يسأله ان كان سيرحل .

لم يكن هناك حتى ولو تباع يبعث على العزاء ، وحرص
جون بالاسيوس ، من ناحيته بألا يضاعف من حدة الأنباء
التي تصله واجتهد في تأخيرها بقدر ما يستطيع . ثم انه كان
هناك شيء يثير قلق ضباطه ويخفونه منه حتى لا يزيدوا
عذابه ، وهو أن الفرسان والجنود كانوا يبذرون البذرة
الحادة للسيلان الخالد ، وقد بدأ ذلك في هوندا من امرأتين
نشرت الداء في كل الحامية ، وراح الجنود ينشرونه بدورهم
خلال غرامياتهم غير الصحية في كل مكان يمرون به ، ولم
يفلت من هذا الداء ولا جندي واحد ، رغم أنهم لم يتركوا
عقارا أو دواء الا وقد جربوه .

لم تكن احتياطات جوزيه بالاسيوس ليتجنب سيده
مضايقات لا فائدة منها منيعة ، فذات مساء مرت رسالة
مجهولة من يد الى أخرى ، ولم يدرك أحد كيف وصلت الى
أرجوحة الجنرال . قرأها هذا الأخير من غير نظارته . باسطا
ذراعه ، ثم ألقاها على شعلة الشمعة وأمسكها بين أصابعه
حتى احترقت تماما .

كانت الرسالة من جوزيفا ساجرارا . وصلت يوم
الاثنين وهي في طريقها الى مومبوكس مع أولادها وزوجها
وقد استمالها خبر اقالة الجنرال ومغادرته للبلاد . لم يبع
أبدا بما جاء في تلك الرسالة . ولكنه راح طوال الليل فريسة
لهياج كبير وأرسل في الصباح لجوزيفا ساجرارا عرضا
للصلح ، ولكنها صدت كل التماساته ، وتابعت رحلتها كما
هو متوقع دون أن تضعف لحظة واحدة . وطبقا لجوزيه

بالاسيوس قالت ان السلام مع رجل تعتبره الآن ميتا
لا معنى له .

وفي نفس ذلك الاسبوع تناهى الى الاسماع ان الحرب
الشخصية التى نقوم بها مانويلا ساينز ، فى صالح عودة
الجنرال قد بلغت الذروة - وفى محاولة لجعل حياتها لا تطاق
طلبت منها وزارة الداخلية أن تسلمها الأرشييف الذى عهد
الجنرال به اليها ، ولكنها رفضت ، وبدأت حملة تحد أخرجت
الحكومة عن أطوارها ، فقد دبرت الكثير من الفضائح وراحت
توزع منشورات تمجد فيها الجنرال ، تعاونها فى ذلك
عبدتان ، وتمحو الشائعات المكتوبة بالفحم على الجدران .
وكان دخولها الى الثكنات وهى مرتدية زى كولونل واشتراكها
فى حفلات الضباط جزءا من الحياة العامة ، وأكثر الشائعات
الحاحا كانت تقول انها تحرك خفية عن أوردانيتا تمردا
مسلحا لاعادة السلطة المطلقة للجنرال .

كان من العسير الاعتقاد بأن قواء تحتل كل هذه
الأشياء ، وعادت حمى الليل فى انتظام ودقة كبيرة ، وغدا
سمائه أكثر ايلاما . وسمعه جوزيه بالاسيوس ذات صباح
يقول : « انه لوطن غادر » وأسرع الى الغرفة وقد دعر وهو
يسمع الجنرال يلوم ضباطه ، ووجد احدى وجنتيه يلوثها
الدم . كان قد جرح نفسه وهو يحلق ذقنه . وقد أحنقه
الأمر أكثر مما أحنقه عدم مهارته . وأسرع الكولونل
ويلسون باستدعاء صيدلى لمعالجته ، ووجده هذا الأخير بحيث
حاول تهدئته ببضع قطرات من البلادونا ولكن الجنرال
أوقفه على الفور قائلا :

— دعنى كما أنا فالياس هو سلام المقضى عليهم .

كتبت اليه أخته ماريانا أنطونيا من كاراكاس وقالت له :
« ان الجميع يشكون من أنك لا تريد أن تأتى لكى تعيد النظام

الى هذه الفوضى « وكان كهنة القرى قد اعلنوا تأييدهم له ، وأصبح الهروب من الجيش أمرا يتعذر التحكم فيه ، وامتلاّت الأدغال برجال مسلحين يقولون انهم لا يحبون أى شخص آخر غيره وقالت أخته : « انها رقصة مجانيّن لا يتفاهمون بعد أن قاموا بثورتهم » لأنه بينما كان البعض يهتفون عاليا مطالبين بعودته ، كانت الشتائم والاهانات تغطي ، فى الفجر ، جدران نصف البلد وتطالب باستئصال أفراد أسرته حتى الجيل الخامس .

ولكن كونجرس فنزويلا الذى اجتمع فى فالنسيا هو الذى أصابه بالضربة القاضية بتتويج قراراته بالانفصال النهائى والتصريح الرسمى بأنه لن يكون هناك اتفاق ممكن مع غرناطة الجديدة والاكوادور طالما بقى الجنرال فى كولومبيا . ونقل اليه الخبر أن أحد الضالعين فى مؤامرة الخامس والعشرين من سبتمبر ، وهو عدو لدود له أعاده الرئيس موسكيرا من منفاه وعينه وزيرا للداخلية . وقد حز الخبر فى نفسه أكثر من الأمر نفسه وقال : « يجب أن أقول ان هذا هو الذى أثار حزنى من أى شىء آخر فى حياتى » وبقي مستيقظا جزءا من الليل وأمل على سكوترين كثيرين صيغا مختلفة بالرد . ولكن غضبه كان بحيث ان النوم تغلب عليه ، وفى الفجر ، قال لجوزيه بالاسيوس ، بعد أن رأى كابوسا مخيفا :

— ستدق الأجراس فى كاراكاس يوم موتى .

ولكن الأمر كان أسوأ . وقد كتب محافظ ماراكيبو ، فيما بعد يقول : « اننى أبادر بالانضمام الى هذا الحدث العظيم الذى سيكون سببا فى خير كبير لقضية الحرية وسعادة البلاد ، فروح الشر ومشعل الفوضى وطاغية الوطن قد مات » والنبا المرجح أساسا لا بلاغ حكومة كاراكاس انتهى بأن غدا بيانا رسميا .

ووسط هول هذه الأيام المشئومة ، تمنى جوزيه بالاسيوس
فى الساعة الخامسة من الصباح عيد ميلاد سعيدا لسيده وقال:
اليوم ٢٤ يولييه ، عيد القديسة كريستينى العذراء والشهيدة .
وفتح الجنرال عينيه ، ولا شك أنه أدرك مرة أخرى أنه
المختار للمحن .

والناس عادة لا يحتفلون بأيام ميلادهم وانما بأعياد
القديسين الذين ينتسبون اليهم بأسمائهم . وكان هناك أحد
عشر قديسا باسم سيمون فى التقويم الكاثوليكي . وكان
يؤثر أن ينتسب باسمه الى سيمون القيروانى الذى ساعد
يسوع فى حمل صليبه ولكن القدر خصه باسم سيمون اخر ،
وهو الحوارى والداعى فى مصر والفرس ، وعيده فى الثامن
والعشرين من أكتوبر . وفى ذلك اليوم وضعوا على جبينه
فى سائتا فى اكليلا من الفار ، وخلعه عن طيب خاطر ووضعوه
بكل خبث فوق رأس الجنرال سانتاندر الذى تقبله دون أن
تطرف عيناه ، ومهما يكن فهو لم يكن يحسب حياته بدءا من
هذا الاسم وانما بحساب سنيه ، كان عمره سبعة وأربعين
عاما وكان لهذا معناه الخاص له لأنه فى الرابع والعشرين
من يولييه الماضى ، فى جواياكيل ، وسط الأنباء السيئة التى
تنتشر فى كل مكان عن هذيان الحمى المؤذية بلبلته نبوءة ،
وهو الذى لا يقر أبدا بحقيقة التنبؤات ، وهى أنه اذا
استطاع أن يبقى على قيد الحياة حتى عيد ميلاده المقبل
فلا يمكن أن يموت . وكان غموض هذه النبوءة السرية هى
التي أبقتة على قيد الحياة حتى اليوم رغم كل المسببات .
وتتمم :

— رباه . سبعة وأربعون عاما ومازلت حيا !

واستلقى فى أرجوحته وقد استرد قواه وقلبه يخفق
بالثقة العجيبة بأنه فى حمى من كل شر . واستدعى
بريسينو منديز ، زعيم أولئك الذين يريدون الذهاب الى

فتزويلا للقتال من أجل وحدة كولومبيا ، وأطلقنا على الخطوة
المنوحة لضباطه بمناسبة عيد ميلاده :

— على كل الدين يريدون الذهاب الى فتزويلا للقتال
بدءا من رتبة ملازم حتى رتبة جنرال أن يعدوا عدتهم •

كان الجنرال بريسينو أولهم • وانضم اليه جنرالان
آخران وأربعة كولونلات وثمانية ملازمين من حامية قرطاجية •
ولكن عندما ذكر كارينا الجنرال بوعده السابق قال له :

— اننى أدخرك لمقادير أعظم •

وقبل رحيلهم بساعتين صمم أن ينضم جوزيه لوريثيو
سيلفا اليهم ، لأنه أحس أن صدا الروتين يضاعف من
وساوسه على عينيه • ورفض سيلفا هذا الشرف وقال :

— هذه البطالة هى الأخرى حرب ، بل من اشد الحروب
قسوة بحيث اننى باق هنا ما لم يأمرنى جنرالى بشيء آخر •

وعلى العكس لم يستطع ايتورييد ولا فرناندو ولا أندريس
ايبارا التطوع ، وقال لايتورييد : اذا كان ولا بد من رحيلك
فسيكون ذلك الى مكان آخر ، وذكر لأندريس سببا غريبا وهو
أن الجنرال ديجو ايبارا موجود فعلا فى فتزويلا ، وانه
لا داعى لوجود أخوين فى حرب واحدة • ولم يحاول فرناندو
أن يقدم خدماته لأنه كان على يقين من أنه سيحصل على الرد
الدائم : ان الرجل يمضى الى الحرب بكامل جسده ولكنه
لا يستطيع أن يمضى اليها بدون عينيه ويده اليمنى ، وعزى
نفسه بأن هذا الرد فيه شيء من التمييز العسكرى •

أحضر مونتيلا كل المعدات اللازمة للرحلة فى نفس
الليلة التى تقرر فيها ذلك ، وحضر الاحتفال المقتصر الذى
انصرف منه الجنرال بعد أن عاتق وودع كلا منهم على حدة •

ومضوا الواحد اثر الآخر وعبر طرق مختلفة . فمنهم من ذهب
عبر جمايكا ، ومنهم من مضى عبر كاراكاس أو جيامورا ،
بملايس مدنية وبدون أسلحة أو أى شىء يمكن أن ينم عن
شخصياتهم . كما تعلموا فى عملياتهم الخفية ضد الأسبان .
وفى ساعة مبكرة من الصباح كان بيت بييه دى لابوبا خاويا
ولكن الجنرال تشبث بالأمل فى أن حربا جديدة ستعيد
الحضرة الى أمجاد الماضى .

واستولى الجنرال أوردانيتا على السلطة فى الخامس من سبتمبر ، وكان السكونجرس المنتخب قد انتهت مدة انتخابه وسلطته هى الوحيدة التى كان يمكن أن تضفى الشرعية على ذلك الانقلاب ، واحتكم الثائرون الى مجلس بلدية سانتا فى الذى اعترف بأحقية أوردانيتا فى تولي السلطة مؤقتا طالما ان الجنرال هو الذى سيكون الرئيس الحقيقى . وكانت هذه هى نقطة النهاية لتمرد الجنود والضباط الفنزويليين المقيمين فى غرناطة الجديدة والذين هزموا القوات الحكومية يساندهم رجال الدين وصغار الملاك . كان أول انقلاب فى جمهورية كولومبيا وأولى الحروب المدنية التسع والأربعين التى قدر لنا أن نعرفها حتى نهاية القرن . واذ رأى الرئيس جواكين موسكيرا ونائبه كاي سيدو أنه أطيح بهما وأنهما أصبحا وحيدين تخليا عن وظيفتهما ، وتولى أوردانيتا السلطة ، وكان أول عمل للحكومة الجديدة هو أنه أرسل الى قرطاجنة وفدا خاصا لتقديم رئاسة الجمهورية للجنرال .

ولا يذكر جوزيه بالاسيوس أنه سبق أن رأى سيده منذ وقت طويل بصحة جيدة كما وجده فى تلك الأيام ، لأن آلام الرأس وحصى الليل سلما أسلحتهما بمجرد ورود نبأ الانقلاب ، ولكنه لم يسبق أن رآه كذلك فى مثل تلك الحالة من القلق . وانزعج مونتيلا وتواطأ مع الراهب سبستيان دى سيجوينزا ، حتى يظل ملازما للجنرال دون أن يبدو عليه ذلك ، ورضى الراهب عن طيب خاطر وأفلح فى ذلك بأن راح يخسر فى لعبة الشطرنج فى أوقات الظهيرة المجدبة حيث كانوا ينتظرون سبعوثى أوردانيتا .

كان الجنرال قد حذق هذه اللعبة واتقنها اثناء رحلته الثانية الى أوروبا ، وأوشك أن يصبح بطلا فيها متحديا الجنرال أوليري اثناء الليالى الممينة لحرب بىرو الطويلة . ولكنه أحس بأنه لا يستطيع مواصلة هذه اللعبة وكان يقول : « ان الشطرنج ليس لعبة وانما هو هواية ، واننى افضل عليها ألعابا أخرى أكثر جرأة » ومع ذلك فقد قررها فى البرامج التعليمية العامة على أنها من ضمن الألعاب المفيدة التى يجب تدريسها فى المدارس . ولكن السبب الحقيقى الذى منعه من الاستمرار فيها هو أن أعصابه لم تكن لتحتمل مثل هذه اللعبة التى تحتاج الى صبر وأناة وتركيز كبير كان يفتقر اليها فى شئون أكثر أهمية .

وجده الراهب سبستيان يتأرجح بشدة فى أرجوحته التى علقها أمام الباب الخارجى للبيت ، لكى يتمكن من رؤية الأرض الملهته حيث يجب أن يظهر مبعوثا أوردانيتا ، وقال عندما رأى الراهب : « آه . أنت لا تياس أبدا من الخسارة أيها الأب » . وجلس تقريبا لكى يستطيع أن يحرك البيادق . وكان ينهض بعد كل نقلة ، فى حين كان الراهب يفكر . وقد قال له هذا الأخير :

— لا تحاول أن تشغلنى يا صاحب الفخامة ، فسوف أتغلب عليك بسهولة .

ضحك الجنرال وقال : عشم ابليس فى الجنة .

كان من عادة أوليري أن يقترب من طاولة اللعب ليفحص رقعة الشطرنج ، ويهمس فى أذن الجنرال ببعض الأفكار . وكان هذا الأخير يرفض نصائحه محنقا . وفى المقابل ، كلما يربح مرة يخرج الى الحديقة حيث يلعب ضباطه الورق لينبئهم نبوءة . وفى أحد الأدوار سأله الراهب ان كان يفكر فى كتابة مذكراته فأجاب :

— أبدا - فما المذكرات الا قصص أموات -

واصبح انتظار البريد ، وهو احد هواجسه المهمة شغله الشاغل فى تلك الأسابيع الغامضة حيث كان سعاة سانتا فى يملكهم الملل وهم ينتظرون الأنباء الجديدة للرحيل ، فى حين أن السعاة السريين كانوا أكثر نشاطا وهمة بحيث ان الجنرال كان يعرف الأخبار قبل أن يأتية بها السعاة الرسميون ، ويجد كل الوقت للروية والتفكير .

وعندما عرف أن المبعوثين افتريا فى السابع عشر من سبتمبر ، أرسل كارينو وأوليرى لمقابلتهما فى طريق تورباتو - وكان المبعوثان هما الكولونل فيسنت بنيريس والكولونل جوليان سانتا ماريا ، وقد دهش وهما يجدان المريض الميئوس منه الذى يتكلمون عنه فى سانتافى فى صحة جيدة - وأقيم احتفال رسمى مرتجل فى البيت حضره مدنيون وعسكريون مرموقون ، وألقيت فيه خطاب مناسبة وشربوا نخب الوطن - وأخيرا احتجز الجنرال المبعوثين - وذكر كل منهما الحقيقة مواجهة ، وقال الكولونل سانتا ماريا المعروف بسرعة تأثيره انه اذا رفض الرئاسة فان فوزى مروعة سوف تسود البلاد - وتهرب الجنرال قائلا :

— الوجود أولا ثم التغيير بعد ذلك ، ولن نعرف اذا كان هناك وطن الا اذا راق الأفق -

واذ لم يفهم الكولونل سانتا ماريا ما يعنيه الجنرال استطرد هذا الأخير يقول : « أعنى أن المهم قبل كل شيء توحيد البلاد بالأسلحة ، وطرف الخيط ليس هنا وانما فى فنزويلا » -

وبدءا من هذه اللحظة غدا الأمر لدى الجنرال فكرة ثابتة ، وهى البدء من البداية من جديد ، علما بأن العدو موجود داخل الوطن وليس خارجه ، فحكam القلة فى كل بلد

من غرناطة الجديدة المتمثلين بأنصار سانتاندر ، وسانتاندر نفسه أعلنوا الحرب حتى الموت ضد فكرة التكامل ، وهذا مخالف للامتيازات المحلية للعائلات الكبرى .

وقال الجنرال : « هذا هو السبب الحقيقي لحرب التشيت التي تقاتلنا الآن ، والمحزن هو أنهم يعتقدون أنهم يغيرون العالم في حين أنهم انما يؤيدون أشد الأفكار الاسبانية رجعية » .

واستطرد : « اننى أعرف أنهم يسخرون منى لأننى اقول فى رسالة بالذات وفى يوم بالتراث ولشخص بالذات شيئاً تم اقول العكس بعد ذلك فيما بعد والمثال اننى وافقت على مشروع اعادة الملكية ثم لم أوافق عليه أو اننى أوافق على الأمرين فى وقت واحد » . اتهموه بأنه متذبذب فى حكمه على الرجال وفى معالجته للتاريخ ، وأنه حارب فرناندو السابع وأنه على وفاق مع موريللو ، وأنه شن الحرب حتى الموت ضد اسبانيا ، وأنه المروج الكبير لآرائها ، وأنه استند الى هايتى لكى يحرز النصر ثم تعامل معها كبلد أجنبى ولم يدعها الى مؤتمر بنما ، وأنه كان ماسونيا وقرأ فولتير اثناء القداس ، وخادم الكنيسة فى نفس الوقت ، وبالتودة الى الانجليز بينما كان على وشك الزواج بأميرة فرنسية ، وبأنه متهور ومراء وغير مخلص ، لأنه يتملق أصدقائه أمامهم ويغتابهم فى غيابهم . وقال : « حسنا . كل هذا حقيقى لأن كل ما فعلته انما فعلته لهدف واحد هو أن تندو هذه القارة بلدا مستقلا ومتحدا . ولم يكن لدى أى شك فى ذلك ، ولا أى تناقض » .

واختتم مبرراته قائلا : « أما الباقي فليس الا تفاهات » .

وقال فى رسالة أرسلها بعد يومين من ذلك الى الجنرال بريسينو منديز « لم أشأ قبول المناصب التى تخولنى لها

القرارات لأننى لا أريد أن أظهر بمظهر زعيم المتمردين ،
ولا أن أبدو أننى قد عينت لمناصب عسكرية من قبل
المنتصرين ■ - ومع ذلك قفى الرسالتين اللتين أملاهما على
فرناندو وأرسلهما فى نفس الليلة الى أوردانيتا . حرص على
ألا يكون شديد التطرف -

كانت الرسالة الأولى صريحة ورسمية وجليّة الوضوح
من حيث بدايتها ، فقد قال «يا صاحب الفخامة » - كان يبرر
فيها الانقلاب بسبب الفوضى والاهمال اللذين غرقت فيهما
الجمهورية منذ حل الحكومة السابقة . وقال فيها : «ان الشعب
فى مثل هذه الحالات لا ينجذع » ولكن يستحيل عليه قبول
الرئاسة ■ - لم يكن يستطيع الا أن يقدم استعداده للعودة الى
سائتا فى ليخدم الحكومة كجندي بسيط -

أما الرسالة الثانية فكانت خاصة ويشير فيها الى ذلك من
أول سطر « عزيزى الجنرال » وهى رسالة طويلة وواضحة ،
ولا تـعـ اى شك عن أسباب تردده - فيما أن جواكين موسكيرا
لم يتخل عن لقبه فيمكنه غدا أن يقدم نفسه على أنه الرئيس
الشرعى وأن يعامله هو كمفتصب ، وبهذا يمكن أن يرجع
عما قال فى رسالته الرسمية - وطالما لم يتلق طلبا واضحا
صادرا من مصدر شرعى فلن يستطيع بأية حال أن يتولى
السلطة -

وأرسلت الرسالتان فى وقت واحد ومعهما بيان فى
نفس الوقت ، يطلب فيه من البلاد أن تنسى أهواءها وأن
تساعد الحكومة الجديدة ، ولكنه يحذر فى نفس الوقت من
كل تعهد، وقال فيما بعد : «رغم أننى أبدو أننى أقدم الكثير
فأنا لا أقدم شيئا ■ - واعترف بأنه كتب بضع عبارات
وغرضه الوحيد هو مداينة الذين يريدون المداينة -

والشئ المثير للاهتمام هو صيغة الأمر فى الرسالة
الثانية ، وهو شئ غريب حقا ، فمن ناحية رجل مجرد من كل

سلطة . طلب ترقية الكولونل فلورنسيو جيمينيز لى يمضى الى الغرب مع جنوده وما يكفى من المعتاد للاعتراض على حرب الاستنزاف التى يشنها الجنرالان جوزيه ماريا أوباندو وجوزيه هيلاريو لوبيز ضد الحكومة المركزية ، وقال فى اصرار « قاتلا سركريه » ، وأوصى أيضا ببعض الضباط لشغل مناصب مهمة ، وقال لأوردانيتا « اهتم بذلك » . أما من ناحيتى أنا فسأفعل الباقي من مجدالينا حتى فنزويلا ، بما فى ذلك « بويكا » . وهو نفسه كان يستعد للمضى الى سانتا فى على رأس ألفى رجل للمساهمة فى إعادة النظام العام ودعم الحكومة الجديدة .

لم يتلق أخبارا مباشرة من أوردانيتا طوال اثنين وأربعين يوما ، ولكنه لم يكف عن التآية اليه أثناء الشهر الطويل الذى لم يفعل فيه الا اصدار الأوامر العسكرية الى أربعة أقطار العالم . كانت البواخر تأتى وتروح ، ولكنه لم يعد يتحدث عن الرحيل الى أوروبا رغم أنه يتعلل بذلك من يوم لأخر كوسيلة للضغط السياسى . وأصبح بيت بييه دى لابوبا القيادة العامة للبلاد كلها . وطوال تلك الأسابيع ، انتهى به الأمر الى اتخاذ قرارات تتجاوز الشؤون العسكرية ، واهتم بتفاصيل تافهة ، كإيجاد وظيفة فى مصلحة البريد لصديقه العزيز مستر تاتيس أو إعادة الجنرال جوزيه أوكروس الى الخدمة ، لأنه لم يعد يستطيع احتمال هدوء بيته .

وراح يكرر بتفخيم كبير إحدى عباراته القديمة : « أنا عجزوز ومريض ومرهق ومتقزز ومتضايق ومدموم ومبتخوس الأجر » ومع ذلك فلم يبد أن هناك من كان يصدقه ، لأنه بينما كان يستخدم أساليب مأكرة لتدعيم الحكومة كان يرسم ، فى الواقع ، الخطط ، نقطة نقطة ، بقوة وسلطة قائد عام لى يستعيد فنزويلا ويحقق وحدة أكبر الأمم فى العالم .

وما كان فى الامكان استيعاب لحظة أكثر ملاءمة . فان
غرناطة الجديدة كانت آمنة فى ايدى اوردانيتا ، والحزب
الليبيرالى مهزوم ، وسانتاندر محجوز فى فرنسا ، والاكوادور
فى حراسة فلورس ، وهو فنزويلي طموح ومشاغب ، فصل
كيتو وجواياكيل عن كولومبيا لينشئ جمهورية جديدة .
ولكن الجنرال كان ينوى أن يضمه الى قضيته بعد القضاء
القبض على قتلة سوكرية . وكانت بوليفيا حليفة بفضل
المارشال سانتاكروز ، صديقه الذى عرض عليه التمثيل
السياسى فى الفاتيكان . بحيث ان الهدف العاجل هو انتزاع
فنزويلا مرة أخرى من سيطرة الجنرال بايز .

كانت الخطة العسكرية للجنرال تبدو كأنها تقوم على
عملية هجوم كبير من كوكوتا ، فى حين أن بايز كان يركز
دفاعه على ماراكيبو ، ولكن قرية ريوهاشا أطاحت فى الأول
من سبتمبر بحاكمها وشجبت سلطة قرطاجنة وأعلنت أنها
فنزويلية وساندتها ماراكيبو على الفور وأرسلت لنجدتها
الجنرال بدرو كاروجو ، رئيس متمردى الخامس والعشرين
من سبتمبر ، الذى لجأ الى الحكومة الفنزويلية هرباً من
العدالة .

نقل مونتيلا الخبر بمجرد أن تلقاه ، ولكن الجنرال
كان قد عرف ذلك ، وكان فرحاً متهللاً لأن تمرد ريوهاشا
سيتيح له امكانية تعبئة قوات جديدة وأفضل ضد ماراكيبو ،
وقال : « فضلاً عن ذلك فان كاروجو فى أيدينا » .

وفى تلك الليلة بالذات انفرد بضباطه وشرح خطته
بدقة كبيرة وهو يصف لهم أخطار الأرض ويحرك الجيوش
كلها كالبنادق فوق رقعة الشطرنج ، ويستبق أدق حركات
العدو . لم ينل تدريباً أكاديمياً يقارن لأن من الذين تلقاه
ضباطه وأغلبهم من خريجي أحسن المدارس الحربية باسبانيا .
ولكنه كان قميناً باستيعاب المواقف من كل نواحيها بأدق

تفاصيلها . . كانت ذاكرته البصرية مذهشة الى حد أنه كان يمكنه توقع عائق سبق أن رآه في طريقه منذ سنوات . ورغم أنه لم يكن سيدا في فنون الحرب فلم يكن هناك من يفوقه في الوحي والالهام .

وفي الفجر كانت الخطة الدقيقة والشرسة معدة بكل تفاصيلها . وكان قد تخيل كل شيء الى حد أن الاستيلاء على ماراكيبو كان متوقعا في نهاية شهر نوفمبر أو في أسوأ الحالات في أوائل شهر ديسمبر . وفي الساعة الثامنة من صباح يوم الثلاثاء ممطر ، بعد التحقق من كل شيء ، قال له مونتيلا ان الخطة لا تشمل أى جنرال غرناطى فقال :

— لا يوجد فى غرناطة الجديدة جنرال واحد يستحق الذكر . والجديرون منهم أشرار .

وسارع مونتيلا بتخفيف الحديث فقال : وأنت نفسك يا جنرال ، أين تذهب ؟

أجاب : فى هذه اللحظة اما الى كوكورا ، واما الى ريوهاشا ، فالأمر سيان .

وهم بالانصراف عندما ذكره جيبين الجنرال كارينو المكفهر بوعده الذى لم يف به ولا مرة واحدة . والواقع أنه كان يريد به الى جانبه بكل ثمن ، ولكنه لم يستطع هذه المرة التهرب من قلقه ، فربت على كتفه فى ود وقال له :

— لك ما وعدتك يا كارينو . . أنت أيضا سترحل .

تحركت الحملة المكونة من ألفى رجل من قرطاجنة فى تاريخ بدا أنه اختير كرمز ، وهو الخامس والعشرين من سبتمبر ، وكانت القيادة مكونة من الجنرالات ماريانو مونتيلا وجوزيه فليكس بلانكو وجوزيه ماريانو كارينو ، وكانت مهمة

كل منهم البحث فى سانتا ماريا عن بيت ريفى يمكن للجنرال أن يتابع فيه الحرب عن قرب وان يسترد صحته . وكتب الجنرال الى أحد أصدقائه يقول : « سأمضى بعد يومين الى سانتا ماريا للقيام ببعض التمرينات ولكى اخذع ما اشعر به من وهن وانهيار ، ولكى أسترد صحتى » . وتم له ما أراد فقد انطلق فى أول اكتوبر ، وفى الثانى منه . كتب وهو فى الطريق رسالة للجنرال جوستو بريسينو قال فيها : « اننى متوجه الى سانتا ماريا لكى اساهم بنفوذى فى الحملة التى تتقدم نحو ماراكيبو » . وفى نفس اليوم ، كتب مرة أخرى لأوردانيتا : « اننى ماض الى سانتا ماريا يقصد زيارة هذه المنطقة التى لا اعرفها » ولكى أرى اذا كنت أستطيع خداع بعض الأعداء الذين لهم نفوذ كبير على الرأى العام » وكشف عندئذ الغرض الحقيقى من رحلته : « سأراقب عن كثب العمليات ضد ريوهاشا » وسأقترب من ماراكيبو ومن الجنود لكى أرى اذا كان يمكننى ممارسة تأثير ما على العمليات المهمة » . وبذلك لم يعد متقاعدا مهزوما هاربا نحو المنفى ، وانما جنرال مشترك فى الحرب .

سبقت الرحلة الى قرطاجنة ضرورات حربية ، فلم يضع وقته فى توديعات رسمية ، ولم يعلن عن الخبر الا لعدد قليل جدا من الأصدقاء ، وبناء على تعليماته ، عهد فرناندو وجوزيه بالاسيوس بنصف أمتعته الى أصدقاء وبيوت تجارية حتى لا يقطروا وراءهم أحمالا لا فائدة منها فى حرب غير مضمونة . تركا عند التاجر دون جوان بافاجو عشر حقائب من المستندات الخاصة ، وكلفاه بارسالها الى عنوان فى باريس سيذكرانه له فيما بعد ، وجاء فى الايصال أن بافاجو سيحرق هذه المستندات اذا حدث سبب قهرى ولم يستطع صاحبها المطالبة بها .

وأودع فرناندو ، فى مصرف بوش مائتى أوقية من الذهب وجدها فى آخر لحظة فى حافظة أوراق عمه دون أى

أثر عن مصدرها - وترك لدى فرانسيكو مارتن صندوقا
يحتوى على خمس وثلاثين ميدالية من الذهب وكيسين من
المخمل متشابهين بأحدهما مائتان وأربع وثمانين ميدالية
كبيرة من الفضة وسبع وستون ميدالية صغيرة وست وثمانون
متوسطة . وبالأخرى أربعون ميدالية تذكارية من الذهب
والفضة محفور على بعضها صورة الجنرال . وطاقم المائدة
الذهبية الذى أخذوه معهم من مومبوكس فى صندوق قديم من
الكرتون . وبضعة أغطية مستهلكة . وحقيبتين من الكتب
وسيفا مرصعا بالماس وبندقية غير صالحة للاستعمال عهد بها
هى الأخرى إليه . وبين أشياء أخرى قديمة كانت هناك
نظارات غير مستعملة استخدمها الجنرال فى أوقات مختلفة
عندما اكتشف طول نظره وهو يحلق ذقنه بصعوبة حتى اليوم
الذى لم يكفه بعد ذراعه عن عينيه لكى يقرأ .

وترك جوزيه بالاسيوس من ناحيته ، فى عهده دون
جوان دى ديوس أمادور صندوقا ظل ينقله معه طوال رحلاته
المديدة من مكان الى آخر ، ولا يعرف أحد ماذا يضم بالذات .
كان ملكا للجنرال الذى لم يكن يستطيع فى بعض اللحظات
كبت جشعه نحو امتلاك أكثر الأشياء غرابة بحيث اضطر بعد
بعض الوقت أن يجرها معه دون أن يدري كيف يتخلص منها .
أخذ معه هذا الصندوق من ليما الى سانتا فى فى سنة ١٨٢٦ ،
وظل معه بعد محاولة الاغتيال فى الخامس والعشرين من
سبتمبر . عندما مضى الى الجنوب لحربه الأخيرة ، وكان يقول :
« لا يمكننا أن نتركه طالما لا نعرف على الأقل اذا كان ملكا
لنا » . وعندما عاد فى المرة الأخيرة الى سانتا فى وقد صمم على
تقديم استقالته النهائية الى الكونجرس عاد الصندوق معه
بين القليل الذىبقى من أمتعته الامبراطورية . وفى
قرطاجنة ، عند القيام بجرد ممتلكاته صمموا أخيرا على فتحه
ووجدوا بداخله أشياء خاضة قديمة كانوا يعتقدون أنها
مفقودة منذ وقت طويل . كان به أربعمئة أوقية من الذهب

مدموغة فى كولومبيا وصورة للجنرال جورج واشنطن ومعها خصلة من شعره ، وعلبة قديمة من الذهب هدية من ملك انجلترا ، وعلبة أخرى من الذهب بها مفاتيح وبعض المخلوقات ونجمة بوليفيا الكبيرة مرصعة بالماس . وترك جوزيه بالاسيوس كل ذلك لدى فرانسيسكو مارتين ومعها قائمة دقيقة ومفصلة ، وطلب ايصالا بالاستلام . واقتصرت الأمتعة عندئذ على كمية معقولة رغم أنه كانت ما تزال هناك ثلاث أو أربع حقائب زائدة تضم ثياب كل يوم . وعشر حقائب أخرى مملوءة بالمفارش المستعملة ، من القطن والكتان وصندوق به طاقم سفرة ذهبى وقضى من أنماط مختلفة لم يشأ الجنرال بيعه أو التخلي عنه لربما يستقبل فيما بعد ضيوفا مرموقين . وقد عرضوا عليه مرارا كثيرة أن يبيع تلك الأشياء بالمزاد لزيادة موارده المالية ، ولكنه رفض ذلك دائما متعللا بأنها أشياء ملك الدولة .

مضوا فى اليوم الأول بأمتعة قليلة وحاشية مقتصرة الى تورباكو ، وفى اليوم التالى استأنفوا الرحلة فى جو جميل . ولكنهم اضطروا ، عند الظهر ، الى الإقامة فى مخيم مرتجل حيث قضوا الليل معرضين للأمطار ورياح المستنقعات غير الصحية ، واشتكى الجنرال من آلام فى الطحال والكبد ، وأعد له جوزيه بالاسيوس جرعات موصوفة فى كتاب طب فرنىسى ، ولكن الآلام اشتدت وطأتها وارتفعت الحرارة . وفى الصباح كان فى حالة من الاعياء بحيث حملوه مغمى عليه الى قرية سوليداد ، حيث أنزله أحد أصدقائه القدامى ، دون بدرو جوان فيسبال فى بيته . وبقي فيه أكثر من شهر فريسة كل أنواع الآلام التى ضاعفت من حدتها أمطار أكتوبر المزعجة .

لم يكن هناك اسم أكثر ملاءمة لتلك القرية من اسم سوليداد (ومعناها الوحدة أو العزلة) . أربعة شوارع بها بيوت فقيرة وساخنة ومهجورة على بعد بضعة فراسخ من

أغنى البلاد وأكثرها ازدهارا ، ولم يكن هناك أى بيت مريح ومناسب لصحة الجنرال من ذلك البيت بشرفاته الست الأندلسية التى يغمرها النور وحديقته المزدهرة حيث ينرك المرء لخياله العنان فيها لكى يفكر ويتأمل فى هدوء ، تحت شجرة السيبا الضخمة - وكان يشرف من نافذة غرفته على الميدان المقفر والكنيسة المتهدمة والبيوت المبقعة بسقوفها من سعف النخيل -

ومع ذلك فلم يفده هدوء البيت فى شىء ، ففى أول ليلة أصيب بدوار بسيط ولكنه رفض أن يعتبره كدليل جديد على انحطاط قوته ، ووصف مرضه طبقا لكتاب الطب الفرنسى على أنه غضب ضاعفته نزلة برد حادة وروماتيزم قديم أيتظفه سوء الجو . وضاعف هذا التشخيص تقزززه من الدورية المتزامنة لمعالجة عدة آلام فى وقت واحد لأنه كان يقول إن الأدوية التى تصلح لبعض الآلام تضر بالآلام أخرى . ولكنه كان يعترف أيضا أنه ليس هناك دواء جيد لمن يريده ، ويشكو كل يوم من أنه ليس هناك طبيب جيد ، وذلك فى نفس الوقت ان يكشف عليه كل الأطباء الذين يبعثون بهم اليه .

كتب الكولونل ويلسون لأبيه خطابا يقول فيه ان الجنرال قد يموت فى أية لحظة ، وان بغضه للأطباء لم يكن ازدراء بهم وانما بعد نظر ، واستطرد يقول : « والواقع أن المرض هو العدو الوحيد الذى يخشاه الجنرال ويرفض مواجهته حتى لا يحول بينه وبين مشروع حياته الكبير . وكان الجنرال قد قال مرة ان العناية بأحد الأمراض كالعمل فى سفينة » . وقبل ذلك بأربع سنوات ، بينما كان يعد دستور ليما عرض عليه أوليرى أن يقبل علاجاً طبياً أساسياً ، وكان رده حاسماً :

ويبدو أنه كان مقتنعا بأنه يمكنه تجنب المرض بالنشاط المستمر وبالثقة فى النفس . وكانت فرناندا باريجا قد

اعتادت أن تضع له مريلة وأن تطعمه بملعقة صغيرة كالأطفال .
وكان يتقبل الطعام منها ويمضغه في صمت الى حد أنه كان
يفتح فمه بعد أن يبتلعه . ولكن ، في سوليداد ، لم يضعوا
له المريلة ولم يطعموه بالملعقة ، وانما راح يأكل بأصابعه
حتى يفهم الجميع أنه ليس بحاجة الى أحد ، وكان قلب
جوزيه بالاسيوس يتقطع وهو يراه يقوم بالأعمال اليومية
التي يقوم بها خدمه أو جنوده أو ملازموه ، وتملكه الحزن
الشديد وهو يراه يسكب على نفسه زجاجة حبر وهو يحاول
اقراغها في المتبرة . وكانت حادثة فريدة لأن الجميع كانت
تملكهم الدهشة وهم يرون أن يديه لا ترتعشان رغم
المرض . وأن نبضه هادئ جدا بحيث انه كان يستطيع أن
يقص اخلافه وأن يقلمها مرة كل أسبوع وأن يحلق ذقنه
كل يوم .

في جنته بليما ، قضى ليلة كلها سعادة مع فتاة بدوية
جسدها كله يكسوه زغب رفيع . وفي الفجر ، بينما كان
يحلق ذقنه ، تأملها وهي عارية في الفراش ، تحلق في حلم
هادئ لامرأة أشبعت رغباتها . ولم يقاوم رغبته في أن
يمتلكها ثانية ، وغطاها برغوة من الصابون من قدميها حتى
رأسها . وفي نشوة الحب حلق كل جسدها . تارة بيده
اليمنى ، وتارة بيده اليسرى ، ملليمترا بعد ملليمتر ، حتى
حاجبها ، وتركها عارية للمرة الثانية . بجسدها الرائع
لطفل وليد ، وسألته بروح مختلجة ان كان يحبها فأجابها
بنفس العبارة العادية التي ظل يرددتها طوال حياته على
الكثير من القلوب دون أية شفقة :

— أكثر من أية امرأة أخرى في العالم .

وفي قرية سوليداد ، ضحى بنفسه بنفس الطريقة ،
فبينما كان يحلق ذقنه قص احدى خصلاته البيضاء النادرة

والناعمة التى تبقت له ، مدفوعا كما يبدو بدافع صبياني -
ثم قص خصلة أخرى وهو أكثر ادراكا بينما كان يردد بصوت
مشروخ مقاطعه المفضلة من أغنية « لا أورانكا » ودخل
جوزيه بالاسيوس لكى يرى الى من يتحدث ، ووجده يحلق
رأسه التى تكسوها رغوة الصابون - وبقي أصلع تماما
كالبيضة -

لم تأت الرقية بأى خلاص - كان يلبس طاقيته الحريرية
بالنهار ، وينطى رأسه فى الليل بقلنسوته الحمراء - ولكنه
لم يستطع تهدئة رياح اليأس الباردة الا بشق النفس - كان
ينفض لكى يمشى فى الظلام فى البيت الفسيح القمري -
ولكنه لم يكن يستطيع عندئذ السير عاريا - فكان يتدثر
بغطاء لكى لا يرتمش من البرد فى ليالى الحر - وكلما مرت
الأيام غدا الغطاء غير كاف ، وصمم على أن يلبس القلنسوة
الحمراء فوق الطاقية الحريرية -

كانت دسائس المسكرين الحقيرة وأخطاء السياسيين
تزعجه الى حد أنه قال وهو يهوى بيده على المائدة فى ظهر
أحد الأيام انه لا يحتمل أيا منهم وصاح : « قولوا لهم اننى
مصدور حتى لا يعودوا » - وكان قراره حاسما بحيث منع
المسكرين من دخول البيت ، كما منع الاحتفالات كذلك -
ولكنه لم يستطع أن يعيش بعيدا عنهم بحيث استمرت جلسات
المواساة والصلح كما هى خلافا لأوامره - وأحس بأنه مريض
جدا بحيث رضى باستقبال طبيب بشرط ألا يفحصه ولا أن
يستفهم منه عن آلامه ، وألا يرغمه على ازدراد أى دواء
وقال :

— لكى يتكلم فحسب -

كان الطبيب الذى وقع عليه الاختيار غير مناسب
لرغباته - كان يدعى هركيول جاستليوندو ، شيخ يتدفق

مرحاً ، ضخّم الجسد وهادئ وأصلع تماماً ، يتمتع بصبر كبير يخفف وحده الالم الغير -

كانت ريبته وجراته العلمية مشهورتين فى الساحل كله ، وكان يعالج الصفراء بكريمة الشيكولاتة وبالجبين المذاب ، وينصح بممارسة الحب فى أوقات خمود الهضم لاطالة العمر ، ويدخن دون انقطاع سيجارا يلفه هو بنفسه فى ورق تبنى اللون ويوصى بتدخينه للتغلب على مساوىء الجسد ، وكان مرضاه يقولون انه لا يشفيهم أبداً تماماً ولكنه يطربهم بطلاقة لسانه المرحّة ، وكان ينفجر بضحكة عامية ويقول :

— ان مرضى الأطباء يموتون كمرضائى ، ولكنهم معي يموتون مرحين -

أقبل فى عربة مستر بارتولوميو مولينارىس، وكان هذا الأخير يتنقل مرارا فى اليوم ذهابا ومجيئا ويأتى معه بزوار من كل نوع غير متوقعين الى أن منعه الجنرال من المجيء من غير أن يدعوهم - وجاء الطبيب مرتديا بدلة من الكتان الأبيض المجعد وهو يشق طريقه تحت المطر وجيوبه مملوءة بالطعام وفى يده مظلة مفككة جدا بحيث ان الماء كان يتسرب منها أكثر مما تتجنبه - وكانت أول كلماته بعد التحية العادية هى الاعتذار عن رائحة سيجاره الذى انتهى من تدخين نصفه - وسامحه الجنرال رغم أنه لم يحتمل أبدا دخان التبغ طوال حياته ، وقال :

— اننى معتاد عليه فما نويل تدخن سيجارا أكثر كراهية من سيجارك ، حتى فى الفراش ، وتنفث الدخان وهى أكثر قربا منى عنك -

انتهر الدكتور جاستليوندو الفرصة وسأله فى لهفة :
هذا صحيح - كيف هى ؟

— من ؟

— دونا مانويل .

أجابه الجنرال فى لهجة جافة : لا بأس .

ثم غير الحديث بطريقة واضحة بحيث انفجر الطبيب ضاحكا ليغطي على وقاحته . وكان الجنرال لا شك يعرف ان الجميع على علم بخلاعاته الغرامية . لم يتباه ابدا بغزواته ، ولكنها كانت كثيرة وصاخبة جدا بحيث ان اسرار مخدعه كانت معروفة للجميع . كانت رسالة من ليما الى كاراكاس تقتضى عادة تأخير ثلاثة شهور ولكن الحديث عن مغامراته كان يبدو أنه يطير من رأس الى أخرى ، وتلاحقه القضية كما لو كانت ظلا ثانيا له ووسمت عشيقاته الى الأبد بصليب من الرماد . ولكنه كان يقوم بالواجب غير المجدى لحماية أسرارهِ الغرامية مراعاة لقاعدة مقدسة ، فلم يبح ولا مرة لأى شخص باسم من عشقها باستثناء جوزيه بالاسيوس ، شريكه فى كل شيء ، ولا حتى لارضاء فضول برىء كفضول البكتور جاستلبوندو بخصوص مانويلا ساينز ، رغم أن علاقته بها كانت جد معروفة بحيث لم يعد هناك ما يخفيه .

ولكن فيما عدا هذا الحادث العرضى ، كان لقاءه بالدكتور جاستلبوندو كان العناية الالهية قد هيأته له ، فقد شد من عزمه بنصائح الجنونية ، وشاركه الحلوى والبسكويت بالمربى واللبن والبونبون التى يحشو بها جيوبه . وكان الجنرال يتقبلها مجاملا ويتناولها لمجرد التسلية . وتدمر ذات يوم من أن تلك الحلويات انما تنفع فى سد الجوع وليس فى زيادة الوزن وهو ما يتمناه ، فأجاب الطبيب : « لا تقلق يا صاحب الفخامة . فكل ما يدخل الفم يسمن وكل ما يخرج منه يخفف » ورأى الجنرال الحجة من الغرابة بحيث رضى أن يتناول مع الطبيب كأسا من النبيذ القوى وفنجانا من شراب دقيق النخل .

ومع ذلك فان المزاج الذى كان الطبيب يحاول أن يعدله بكل همة ، كانت الأخبار تكدره أكثر . فقد أخبره أحدهم ان صاحب البيت الذى اقام فيه فى قرطاجنة خاف من العدوى وأحرق الفرش الذى رقد عليه والمرتبة كذلك والأغطية وكل ما لمسه أثناء اقامته . وأصدر أمره لدون جوان دى ديوس أمادور أن يستخدم النقود التى تركها لديه لسداد قيمة الأشياء التى أحرقت بسعرها وهى جديدة بالإضافة الى الايجار . ولكن ذلك لم يخفف مزارته .

أحسب بأنه أكثر سوءا بعد بضعة أيام عندما عرف ان دون جوكين موسكيرا مر بالبلد فى طريقه الى الولايات المتحدة دون أن يتنازل حتى يزيارته . ودون أن يخفى قلقه عرف أن موسكيرابقى أسبوعا على الساحل فى انتظار ابخار السفينة . وانه رأى أصدقاء كثيرين وبعض أعدائه ، وعبر للجميع عن تقززته مما يدعوه جحود الجنرال . وعند انطلاق الزورق الذى يحمله الى السفينة أوجز فكرته الثابتة لكل الذين جاءوا لتوديعه قائلا :

— لا تنسوا ذلك ، فان هذا الرجل لا يحب أحدا .

كان جوزيه بالاسيوس يعرف مدى حساسية الجنرال لمثل هذا النوع من العتاب ، فما من شيء يؤله أو يحز فى نفسه ويثير حنقه الا أن يشك أحد فى محبته . وكان قمينا بأن يمخر المحيطات ويهدم الجبال بقدرته الرهيبة فى الاغراء الى أن يقنعه بخطئه . ففى عز المجد أغلقت دلفينا جارديو لا ، حسناء انجوسترا باب بيتها فى وجهه . وقد أحنقتها تقلباته . وهى تقول : « أنت رجل عظيم يا صاحب الفخامة ، أعظم من أى شخص آخر ، ولكن الحب كبير جدا عليك » ودخل البيت من جديد من نافذة المطبخ . وبقي معها ثلاثة أيام مجازفا بأن يخسر معركة أو يفقد حياته على الخصوص حتى وثقت دلفينا من صدق شعور قلبه .

أصبح موسكيرا بعيدا عنه ، ولكنه عبر عن حقه له لكل من أراد الاستماع اليه . وتساءل حتى الاضنام لكي يعرف بأى حق يمكن موسكيرا أن يتكلم عن الحب . وهو الذى سمح بأن ينقلوا اليه بالطريق الرسمي القرار الفنزويلي بنفيه وحرمانه ، وصاح : « كان يجب أن يشكرنى لأنى أنقذته من اداة التاريخ له بعدم الرد عليه » تذكر كل ما فعله من اجله ، والطريقة التى ساعده بها لكي يكون ما هو عليه والطريقة التى اضطر أن يتحمل بها نرجسيته كفلاح . وكتب أخيرا لصديق مشترك خطا با طويلا ويائسا حتى يكون واثقا من أن أصوات قلقة تصل الى موسكيرا فى أى مكان من العالم .

وعلى العكس كانت الأخبار التى لا تاتى تفرقه فى ضبابة خفية . ظل أوردانيتا لا يرد على رسائله . وبعث اليه بريسينو منديز ، ثقتة فى فنزويلا برسالة ومعه فى نفس الوقت فواكه من جمايكا يحبها كثيرا . ولكن الرسول لقي حتفه غرقا . وملاه بطء جوستو بريسينو ، رجله على الحدود الشرقية ياسا . وألقى صمت أوردانيتا ظلا على البلاد كما ألقى موت فرناندو مدريد . مراسله فى لندن . ظلا على العالم .

ومع أنه كان يجهل تماما أخبار أوردانيتا فهو لم يعرف أن هذا الأخير يرسل حاشيته بصورة ملحة لكي يحاولوا أن ينتزعوا منه ردا حاسما . فقد كتب لأوليرى يقول : « اننى بحاجة لأن أعرف بصورة نهائية اذا كان الجنرال يقبل الرئاسة أم لا . أو اذا كان يجب أن نجرى طوال حياتنا خلف شبح متعذر لقاءه » وكان أوليرى ، كغيره من ضباط حاشيته . يحاول انتهاز الفرصة للتعرض للموضوع لكي يرسل لأوردانيتا أى رد ، ولكن الجنرال كان يتهرب دائما .

وعندما جاءتهم أخيرا أنباء من ريو هاشا ، كانت أشد خطورة من تلك التى توقعوها . فقد استولى الجنرال مانويل

فالدیس . كما هو متوقع على المدينة دون مقاومة فى العشرين
من أكتوبر ، ولكن كارجو اباد له فرقتى استطلاع ، و قدم
فالدیس مونتيلا استقالة أراد بها أن يشرف نفسه ، ولكنها
اذلته . وقال الجنرال : « ان هذا الوغد يكاد يموت خوفا » ،
وطبقا للخطة الأساسية لم يكن باقيا غير خمسة عشر يوما
للاستيلاء على ماراكيبو ، ولكن مجرد مراقبة ريوهاشا لم تعد
غير وهم .

وصاح الجنرال : رياه ا . . لم يستطع زهرة جنرالاتى
قمع ثورة تكنة ا .

ومع ذلك فان الخبر الذى أحزنه كثيرا هو ان الفرنى
كانت تهرب أمام القوات الحكومية وهى تطابق بينها وبينه
وتعتبره قاتل الجنرال باديللا . معبود ريوهاشا ، مسقط
رأسه ، وفوق ذلك كان يبدو أن الكارثة خططت مع بقية
البلاد ، وسادت الفوضى والبلبلة فى كل مكان ، وكانت
حكومة أوردانتا عاجزة عن وضع حد لهما .

ودهش الدكتور جاستليوندو مرة أخرى من شدة الغضب
الذى استولى على الجنرال وهو يراه ينطق بسباب وشتائم .
ويصيح ويقول لرسول خاص جاء يخبره بالأحداث الأخيرة فى
سانتا فى :

— يؤس هذه الحكومة التى بدلا من أن ترتبط بالشعب
والرجال المهمين تشلهم ! - ستنهار من جديد ، ولن تنهض مرة
ثالثة لأن الرجال الذين يديرونها والحشود التى تساندتهم
سيبادون .

كانت الجهود التى بذلها الطبيب لتهدئته لا فائدة منها
لأنه ما أن انتهى من تقرير الحكومة حتى استذكر عن ظهر
قلب القائمة السوداء لأركان حربها . قال عن الجنرال
جواكين باريجا ، بطل ثلاث معارك كبيرة انه يمكنه أن يكون

شريرا كما يريدون ولكنه قاتل - وعن الجنرال بدرو مرجييتو انه يشتبه في انه تورط في مؤامرة اغتيال سوكرية ، وقال عنه انه رجل غير كفء لقيادة الجنود ، وسدد ضربة قاسية للجنرال جونساليز ، أكثر أنصاره اخلاصا في كوكا « ان مرضه ما هو الا استرخاء واسترواح » وتهالك في أرجوحته وهو يلثث ليمنح قلبه الوقفة التي يحتاج اليها منذ عشرين عاما ، ووقع بصره عندئذ على الدكتور جاستلبونديو الذي وقف وقد عقدت الدهشة لسانه على عتبة الباب ، فرفع صوته قائلا : « بعد التفكير ، ماذا يمكن من رجل راهن بيتين في لعبة النرد ؟ » -

بدت الحيرة على الدكتور جاستلبونديو وسأل : عمن تتكلم ؟

أجاب الدكتور : عن أوردانيتا - انه خسرهما في ماراكيبو أمام قومندان من البحرية ، ولكن مسجل في المستندات أنه باعهما -

واسنرد النفس الذي كاد أن يلفظه واسنرد : هم جميعا بالطبع صبية في كورس كنيسة بالنسبة لهذا الشايعر سانتاندر ، فقد كان أصدقاؤهم يسرقون القروض الانجليزية ويشترون بها سندات حكومية بعشر قيمتها الحقيقية وتقبلها الدولة منهم بعد ذلك بقيمتها الأصلية - وأوضح انه لم يعترض على كل حال على القروض بسبب خطر الفساد وانما لأنها تبدو في نفس الوقت الاستقلال الذي تكلف الكثير من الدم - وقال :

— ان الديون أبغض الى من الاسبانيين ، ولهذا نبهت سانتاندر أن كل ما نفعله لصالح الوطن لن تكون له أية فائدة اذا قبلنا الدين ، لأننا سنستمر في دفع الفوائد حتى نهاية الزمن ، والأمر واضح اليوم ، فسوف يتغلب الدين علينا -

فى بداية الحكومة الحالية لم يكفه الموافقة على فرار
أوردانيتا باحترام حياة المنهزمين ، بل انه احتفل بذلك ،
كانه خبر أخلاقى للحرب ■ ألا يفعل أعداؤنا بنا اليوم
ما فعلناه نحن بالاسبان ■ - أى الحرب حتى الموت ، ولكن
أثناء ليالى سوليداد الغامضة قال لأوردانيتا فى خطاب مروع
بأن كل الحروب قد انتصر فيها الأكثر قوة ، وقال للطبيب :

— صدقنى يا دكتور ، ان سلطتنا وحياتنا لا يمكن الابقاء
عليهما الا بثمان دم أعدائنا •

وفجأة زال الغضب بطريقة مباغته دون أن يترك أثرا ،
كما بدأ - بدأ الجنرال جميع الضباط الذين سبهم وقال :
انا المخطيء على كل حال ، فما كانوا يريدون الا الاستقلال
وهو شىء مباشر وواقعى ، والله يعلم أنهم دافعوا عنه جيدا •
وبسط للدكتور يدا لم تعد الا كتلة من العظام ، لكى يساعده
على النهوض ، واختتم حديثه قائلا :

— وعلى العكس ، ضللت فى وهم وأنا أبحث عن شىء
لا وجود له -

بت فى تلك الأيام فى موقف ايتورييد ، فقد تلقى هذا
الأخير فى آخر أكتوبر ، من مدينة جورجيتاون ، خطابا من أمه
تقول له فيه ان تقدم القوى فى المكسيك يبعد بكثير كل أمل
للأسرة فى العودة ، وأصبح تردده بالاضافة الى التردد الذى
يحملة معه منذ المهد لا يطاق - ولحسن الحظ ، بينما كان
الجنرال يتمشى فى رواق البيت مستندا الى ذراعه ، قال له
على غير توقع :

— اننى لم أحتفظ عن المكسيك الا بذكرى سيئة ، فقد
التهمت كلاب ربان الميناء جروين كنت أصطحبهما معى الى
اسبانيا •

وأردف يقول ان هذه التجربة الأولى فى حياته وسمته
الى الأبد ، فان فيراكروز لم تكن الا مرسى وجيز فى أول رحلة
له الى أوروبا فى فبراير سنة ١٧٩٩ ، ولكن الانتظار امتد
الى شهرين بسبب الحصار الانجليزى على هافانا . وهى المرسى
الثانى ، وقد أتاح له التأخير وقتا لكى يمضى بالعربة حتى
مكسيكو . وتسلق ما يقرب من ثلاثة آلاف متر بين البراكين
التي تغطيها الثلوج والصعاري المذهلة التي لم تكن تعرف
شيئا عن شروق الشمس الرعوى بوادى أراجوا حيث عاش
حتى ذلك الوقت وقال : « خطر لى ان القمر يجب أن يكون
هكذا » . وفى مكسيكو دهش من نقاء الهواء واذهلته وفره
وتظافة الأسواق حيث يبيعون للأكل ديدانا ملونة وأخرى
نهرية وبيض الناموس وجرادا ويرقات النمل الأسود وقططا
متوحشة وصراصير البحر ودبابير الذرة وسحالي وثعابين
مجرسة وعصافير من كل نوع وكلاها صغيرة ونوعا من
الفاصوليا ينط دون توقف كما لو أن فيه حياة . وقال :
« انهم يأكلون كل ما يتحرك » . ووقف مشدوها أمام المياه
الرائقة للقنوات العديدة التي تخترق المدينة والزوارق
المطلية بالألوان الربانية . وجمال ووفرة الزهور ، ولكن
أحزنه قصر أيام فبراير ، والهنود الصامتون والمطر الأزلى
وكل ما قدر له أن يثقل على قلبه فى سانتافى فى ليما وفى
لاباز وفى جبال وأراضى الأنديز التي يراها عندئذ لأول
مرة . وقاده الأسقف الذي أوصى به من يده الى نائب الملك ،
وبدا له هذا الأخير أكثر أسقفية من الأسقف نفسه ، فانه
ألقي بالكاد نظرة الى الشاب الأسمر الشاحب الأنيق المليس
والذى عبر له عن اعجابه بالثورة الفرنسية . وقال الجنرال
فى مرح : « كان يمكن أن يكلفنى ذلك حياتى » ولكن لعله
خطر لى أن أتحدث عن السياسة مع نائب الملك ، وكان هذا
كل ما أعرفه وأنا فى السادسة عشرة من عمري « وقبل أن
يستأنف الرحلة كتب خطابا لعمه دون بدرو بالاسيو سوجو ،

وهى أول رسالة سيحتفظ بها ، وقال وهو ينفجر ضاحكا :
« كان خطي فظيما بحيث اننى ، أنا نفسى - لم أفهمه ، ولخنى
شرحت لعمى ان ذلك بسبب التعب من الرحلة » وفى صفحه
ونصف كانت هناك أربعون غلطة كتابية منها غلطتان فى
كلمة واحدة •

لم يستطع ايتوربيد أن يعلق بأى شىء لأن ذاكرته لم
تسمح له بذلك ، فكل ما بقى له من المكسيك كان ذكرى
الأضرار التى ضاعفت من كآبته الوراثة ، وقد فهم الجنرال
أسبابه وقال : « لا تبق مع أوردانيتا • ولا تنضم كذلك الى
أسرتك فى الولايات المتحدة ، فهى قوية جدا ومخيفة وستنتهى
بهدرها عن الحرية بأن تسربلنا جميعا بالبوأس • »

ألقت العبارة شكا آخر فى بحر التردد ، وهتف ايتوربيد :
— انت تخيفنى يا جنرال •

قال الجنرال فى هدوء : لا تخف نفسك • امض الى
المكسيك ، حتى ولو اقتضى الأمر أن يقتلوك أو أن تموت ،
وامض الآن فورا وأنت لا تزال شابا لأن الأوان قد يفوت
ذات يوم ولن تكون لا هنا ولا هناك • ستشعر بأنك غريب فى
كل مكان ، وهذا أسوأ من الموت •

ونظر الى عينيه مباشرة ، وألقى بكف يده على صدره
وقال :

— وأنا أعلم ذلك •

رحل ايتوربيد اذن فى بداية شهر ديسمبر ومع رسالتان
من الجنرال لأوردانيتا ، تقول احدهما انه هو وفيلسون
وفرناندو فى بيته أكثر الناس جدارة بثقته • وبقي دون
هدف محدد فى سائنتا فى حتى أبريل من السنة التالية ، عندما

عزل أوردانيتا بمؤامرة من سانتاندر ، وتمكنت أمه ، بفضل متابرتها المثالية من تعيينه سكرتيرا فى المفوضية المكسيكية بواشنطن ، وعاش بقية حياته منسيا من الادارة ، ولم يعرف أحد شيئا أبدا عن عائلته الا بعد اثنتين وثلاثين سنة . عندما تبنى مكسيميليان دى هابسبورج الذى فرضه الجيش الفرنسى امبراطورا على المكسيك طفلين صغيرين من الجيل الثالث لآل ايتوربيد ، وعينهما خليفين له على عرشه الوهمى .

أما الرسالة الثانية المرسلة الى أوردانيتا التى عهد بها الجنرال الى ايتوربيد فكانت تلتمس منه أن يتلف كل رسالته الماضية والمقبلة حتى لا يبقى هناك أثر لساعاته المعتمدة . ولم يصغ أوردانيتا اليه . وكان قد طلب من سانتاندر قبل ذلك بخمس سنوات نفس الالتماس وقال : « لا تنشر رسائلى أبدا ، سواء أكنت على قيد الحياة أم بعد مماتى لأننى كتبتها بكل حرية وبدون أى ترتيب » . ولم يحترم سانتاندر هو الآخر رغبته ، وهو الذى كان يكتب رسائله بكل دقة وبكل ترتيب بحيث كان يبدو من قراءة أول سطر منها أن مصيرها النهائى هو التاريخ .

وبين أول رسالة من فيراكروز والأخيرة التى أملاها قبل موته بستة أيام ، كتب الجنرال على الأقل عشرة آلاف ، بعضها بخط يده وبعضها بخط سكرتيره ، والبعض الآخر كتبه هؤلاء الآخرون طبقا لتعليماته ، وحفظ منها أكثر بقليل من ثلاثة آلاف رسالة ، وكذلك ثمانية آلاف مستند مهمورة بتوقيعه . كان تارة يستثير غضب سكرتيره بأن يوقظهم من سباتهم فجأة ، وتارة يكون الأمر عكس ذلك ، ذات يوم ، بدا له أن إحدى رسائله التى أملاها لم يحسن السكرتير صياغتها فأضاف بخط يده سطورا بخصوصه قال فيه : « ان مارتل اليوم أكثر غباء من أى وقت آخر كما ترى » . وفى سنة ١٨١٧ ، فى عشية مغادرته أنجوسترا لانهاء تحرير

القارة استوفى شئون الحكومة فى أربعة عشر مستندا أملاها فى نفس اليوم . ولعله انبثقت من هنا الأسطورة التى لم يكذبها أحد أبدا وهى انه كان يملئ الكثير من الرسائل على عدة سكرتيرين فى نفس الوقت .

واقصر أكتوبر على سقوط الأمطار الغزيرة فلم يغادر الجنرال غرفته . وكان لابد للدكتور جاستلبونندو من ان يلجأ الى كل حيله الحكيمة لكي يسمح الجنرال بلقائه واطعامه . وخيل لجوزيه بالاسيوس أثناء قيلولاته المفكرة ، وهو مستلق فى أرجوحته لا يتحرك ، ويتأمل المطر الذى ينهمر على البطاح القفر أنه يستعيد فى ذهنه أتفه الأحداث التى مرت بحياته . وتنهد ذات يوم قائلا :

— أى رب الفقراء ، ماذا حدث اذن لمانويلا .

قال جوزيه بالاسيوس : نحن نعرف أنها فى صحة جيدة لأننا لا نعرف عنها شيئا .

لأن الصمت شملها منذ أن تولى أوردانيتا السلطة . لم يرسلها الجنرال بعد ذلك . ولكنه كلف فرناندو أن يطلعها على أخبار الرحلة . وكانت آخر رسالة منها قد وصلت فى آخر أغسطس وتتضمن الكثير من الأخبار السرية عن الاعدادات للانقلاب العسكرى ، وكانت رسائلها وأخبارها معقدة من حيث الانشاء لتضليل العدو ولكن كان من السهل على الجنرال أن يفهم أسرارها .

نسيت مانويلا عن نصائح الجنرال الحكيمة ، وقامت بكل عمق وأحيانا بكل نشاطها بدورها كالسيدة البوليفارية الأولى فى الأمة ، وقامت وحدها بحرب ورقية ضد الحكومة ، ولم يجرؤ الرئيس موسكيرا على مهاجمتها ، ولكنه لم يمنع وزراءه من ذلك . كانت مانويلا ترد على هجوم الجرائد عليها

بنقد لاذع تطبعه وتوزعه وهي على صهوة جوادها ، تساندها سى ذلك اثنتان من عبداتها - كانت تتابع فى الأزقة الضيقة والمرصوفة ، وفى يدها حربة ، الذين يوزعون منشورات هجائية ضد الجنرال وتغطى الشتائم التى تظهر فى الفجر ، فوق الجدران ، بشتائم أشد منها قذعا -

وانتهت الحرب الرسمية بأن انقلبت عليها ، ولكنها لم تجزع ، ونبهها موضع ثققتها فى الحكومة الى ذلك - وفى أحد الاعياد الوطنية بميدان السلاح وضعوا رسما كاريكاتوريا للجنرال يمثله فى زى المهرجين وسلطوا عليه الأضواء من كل جانب - وغافلت مانويلا الحراس ودمرت الرسم ، هى وبعض أصدقائها من الفرسان - وأرسل العمدة فرقة من الجنود للقبض عليها وهى فى فراشها ، ولكنها كانت تنتظرهم ويبيدها مسدسان - ومنعت وساطة الأصدقاء ، من جانب وآخر ، وقوع حادث أشد خطورة -

كان الحادث الوحيد الذى أفلح فى تهدئتها هو استيلاء أوردانيتا على السلطة - كان صديقا حقيقيا لها ، وكانت أشد شركائه حماسا - وفى الوقت الذى شن فيه الجنرال ، فى الجنوب ، الحرب على الغزاة البيرونيين ، وجدت نفسها وحيدة فى سانتا فى - وكان أوردانيتا صديقها الأمين الذى يهتم بسلامتها ويوفر لها احتياجاتها - وعندما ألقى الجنرال ببيانه المشئوم أفلحت مانويلا فى أن تحمله على أن يكتب له هذه العبارة : « اننى أعرض عليك كل صداقتى القديمة ومصالحة تامة من سويداء قلبى » - وقبل أوردانيتا العرض الكريم - وكان امثنان مانويلا ازاء ذلك أن اختفت من الحياة العامة تماما بعد الانقلاب العسكرى بحيث قيسل فى بداية أكتوبر انها رحلت الى الولايات المتحدة وبذلك كان جوزيه بالاسيوس على حق عندما قال : « ان مانويلا فى صحة جيدة لأننا لا نعرف عنها شيئا » -

استعاد الجنرال ماضيه وهو ضائع تحت المطر ، وحزين
لاضطرابه الى الانتظار ، ووجد نفسه في قاع الهوة ، وبكى
اثناء نومه . واذا سمع جوزيه بالاسيوس تحسراته الخافتة
حسب انها صادرة من الكلب الذى التقطوه وهم فى النهر ،
ولكنها كانت من سيده . وقد تملكته الحيرة لانه لم يره طوال
سنتين الصداقة يبكى غير مرة واحدة ، ولم يكن ذلك عن حزن
وانما عن غيظ . واستدعى الملازم ايبارا . وكان يقوم
بالحراسة فى الرواق ، حتى يسمع هو الآخر تلك التحسرات.
فقال له :

— سوف يساعدنا ذلك .

قال جوزيه بالاسيوس : بل سوف يساعدنا جميعا .

نام الجنرال وقتا أطول من المعتاد . لم يوقظه شيء ،
لا العصافير فى الحديقة ولا أجراس الكنيسة . وانحنى
جوزيه بالاسيوس مرارا عديدة فوق الأرجوحة لكي يسمع
تنفسه . وعندما فتح عينيه كانت الساعة قد تجاوزت
الثامنة . وكان الجو حارا .

قال جوزيه بالاسيوس : اليوم السبت ١٦ أكتوبر ، يوم
الخلوص .

نهض الجنرال من أرجوحته ، وتأمل من النافذة الميدان
المنزل والكنيسة ذات الجدران الباهتة . وسمع صيحات
الطيور الكاسرة وهى تتنازع على بقايا كلب ميت . وأعلنت
حدة أشعة الشمس الأولى أن اليوم سيكون خانقا ، وقال :
«لنمجل بالرحيل . لا أريد أن أسمع طلقات بنادق الاعداء» .

سرت الرعشة فى بدن جوزيه بالاسيوس . عاش هذه
اللحظة فى مكان آخر ووقت آخر . كان الجنرال فيهما كما
هو اليوم . قدماء عاريتان فوق البلاط وسرواله طويل

وطاقيّة الليل على رأسه الحليقة . . كان علماً قديماً يتكرر
فى الواقع .

قال جوزيه بالاسيوس : لن نسمعها .

واردف فى دقة متعمدة : لقد اعدم الجنرال بيار فى
انجوسترا فى الساعة الخامسة ، ولكن فى اصيل يوم كهذا
منذ ثلاثة عشر عاما .

كان الجنرال بيار خلاسيا من كوراساو ، قاسيا ، فى
الخامسة والثلاثين من عمره . توج بمجد كاشجع جنود
المليشيا الوطنية ، وتحدى سلطة الجنرال حين كان جيش
التحرير بحاجة أكثر من أى وقت مضى الى توحيد قواه لايقاف
تقدم موريللو ، وراح يجند السود والخلاسيين والزامبو وكل
بؤساء البلاد لمحاربة الارستقراطية البيضاء فى كاراكاس
متجسدة فى شخص الجنرال . كانت شهرته وهالته المسيحية
لا تقارنان الا بشهرة وهالة أنطونيو بايز أو بوفيس الملكى .
وكان على وشك أن يضم اليه بعض الضباط البيض من جيش
التحرير . بذل الجنرال قصارى جهده لاقناعه ، ثم ألقى
القبض عليه بناء على أمره ، واقتيد الى انجوسترا ، وكانت
عندئذ العاصمة المؤقتة للبلاد ، حيث جمع الجنرال أقرب
ضباطه ، وقد رافقه كثيرون منهم فيما بعد ، فى هبوطه
النهائى الى مجدالينا . ونطق مجلس عسكري . عينه الجنرال
ومكون من بعض العسكريين من أصدقاء بيار بحكم موجز .
وكان جوزيه ماريا كارينا ممثل الاتهام ، ولم يكن محامى
الدفاع الذى عينه المجلس كاذبا وهو يصف بيار كواحد من
أكثر الرجال المستنيرين فى النضال ضد السلطة الاسبانية ،
ولكن المجلس أجمع بأنه مذنب بالهروب من الجيش وبالتمرّد
والخيانة وحكم عليه بالموت وبتجريدته من رتبته العسكرية .
ونظرا لمزاياه بدا أن من المستحيل أن يصدق الجنرال على
الحكم ، وعلى الأخص فى وقت كان موريللو يسترد فيه بلادا

خيرة وانخفضت فيه معنويات الوطنيين جدا بحيث ساد الخوف من هروب جماعى للمجنود - وتعرض الجنرال لضغوط من س الانواع ، واصغى فى رفق الى رأى اقرب اصدفاته ومنهم بريسينو منديز ، ولكنه لم يرجع عن قراره ، والفى حكم التجريد ولكنه صدق على حكم الاعدام وطالب بأن يكون فى مكان عام - وكانت ليلة طويلة كان يمكن لأفطع شئ ان يحدث فيها - وفى الساعة الخامسة من بعد ظهر ١٦ أكتوبر نفذ حكم الاعدام تحت الشمس الحارقة ، فى ميدان السلاح بأنجوسترا ، وهى نفس المدينة التى انتزعها هو نفسه قبل ذلك بستة شهور من الأسبان - وكان رئيس فصيلة الاعدام قد رفع أشلاء كلب ميت تتنازع عليه الطيور الكاسرة ، وأغلق الطرقات المؤدية الى الميدان لمنع الحيوانات الضالة من تعكير وقار الاعدام ، ورفض لبيار الشرف الأخير بأن يصدر هو نفسه الى فصيلة الاعدام باطلاق النار، وعصب عينيه بالقوة ، ولكنه لم يستطع أن يمنعه من توديع العالم بطبع قبلة على الصليب وتحية العلم .

رفض الجنرال حضور تنفيذ الاعدام - وكان بمفرده فى البيت مع جوزيه بالاسيوس ، ورآه هذا الأخير يفالِب نفسه لكى يحبس دموعه وهو يسمع صوت الرصاص - وقال فى البيان الذى القاه على القوات : « كان يوم الأمس يوما موجعا لقلبى » ، وراح يكرر طوال حياته أن ذلك كان ضرورة سياسية أنقذت البلاد وجمعت بين المتمردين وجنبت البلاد حربا أهلية - وكان ذلك على كل حال أشرس عمل قام به فى حياته باسم السلطة ، وكان أيضا أكثر الأعمال ملائمة سمح له بتعزيز سلطته وتوحيد القيادة وفتح الطريق أمام مجده فى نفس الوقت .

ولم يبد عليه ، بعد ثلاث عشرة سنة ، فى سوليداد أنه ضحية تيه الزمن - بقى واقفا يتأمل الميدان الى أن ظهرت

عجوز ترتدى أسمالا ، واجتازته وهى تجر خلفها حمأرا
محملا بكمية كبيرة من جوز الهند للبيع ، وأفزعت بنخالها
الطيور الكاسرة • وعندئذ تحول الجنرال فى أرجوحته
وأطلق تنهدة ارتياح ، ومن غير أن يطلب منه أحد أعطى
جوزيه بالاسيوس الجواب الذى أراد هذا الأخير أن يعرفه
منذ ليلة أنجوسترا المأساوية •

— اذا كان ولا بد أن أفعل ذلك ثانية فسوف أفعله •

أصبح من الخطر عليه ان يمشى ، لا لاحتمال وقوعه
ولكن لأن ذلك كان يشق عليه كثيرا ، وعلى العكس ، فلو أن
أحدا ساعده على نزول سلم البيت أو هبوطه فان ذلك يكون
امرا منهوما ، رغم أنه كان ما يزال قادرا على ان يفعل ذلك
وحده . ولكنه عندما أصبح بحاجة الى ذراع يعتمد عليها
رفضها قائلا :

— شكرا ، ولكننى مازلت أستطيع .

و ذات يوم تعذر عليه ذلك - كان يهم بنزول السلم
عندما غامت الدنيا أمامه ، وقال لصديق : « اننى وقعت وحدى
من غير أن أدري كيف ، وبقيت شبه ميت » بل كان الأمر أسوأ
وانها لمعجزة اذ لم يحس لان الاغماء صعقه فى أول الدرجات
ومنعته خفة جسده من الانحدار .

أسرع الدكتور جاستلبوندو باقتياده الى بارانكا دى سن
نيقولا ، فى عربة دون بارتولوميه مولينارييس ، وكان قد
أقام عنده أثناء رحلته السابقة ، وأعدت له نفس الغرفة
الكبيرة التى تتوفر فيها وسائل التهوية ، والمطلة على الشارع
الكبير . وفى الطريق بدأ يسيل من عينيه سائل كثيف لم يكف
عن مضايقته . ولم يعبا بأى شىء طوال الطريق ، بل كان
يخيل أحيانا لمن يراه أنه يصلى ، فى حين أنه كان يتمتم فى
الواقع بمقاطع كاملة من قصائده المفضلة - وجفف الطبيب
عينيه بمنديل وقد أدهشه أنه لم يفعل ذلك بنفسه ، وهو الذى
يعنى عناية فائقة بنظافته ، بل انه انتفض بالذات عندما
أوشك قلع من البقر أن يقلب العربة عند مدخل المدينة ،
وقلب عربة الكاهن وطار الكاهن نفسه فى الهواء ، ولكنه

أسرع بالنهوض وقد ملأ الرمل الأبيض شعره وأصيب جبينه
ويده بجروح . وعندما استرد جأشه من هول الصدمة اضطر
الجنود الى شق طريق وسط الفضوليين والأطفال العراة الذين
تجمعوا للفرجة على الحادث دون أن تكون لديهم أية فكرة
عن يكون ذلك الراكب الأشبه بالميت والجالس فى عتمة
العربة .

قدم الطبيب الكاهن على أنه واحد من رجال الدين
القلائل الذين دافعوا عن الجنرال فى الوقت الذى ندد به
الأساقفة وحرموه لأنه ماسونى شهوانى . وبدأ على الجنرال
انه لم يفهم شيئاً مما يدور ، ولم يدر بنفسه الا عند رؤية
الدم على ثوب الكاهن الذى طلب منه أن يستخدم نفوذه حتى
لا تجول الأبقار فى مدينة أصبح يتعذر على المرء التحرك فيها
دون التعرض للأخطار بسبب العربات الكثيرة التى تنطلق
فى الشوارع .

قال له الجنرال دون أن ينظر اليه : لا تقلق أيها الميجل ،
هكذا الأمر فى كل البلاد .

كانت شمس الساعة الحادية عشرة ثابتة فوق الشوارع
التي تغطيها الرمال ، عريضة ومقفرة ، والمدينة كلها تلتهب
بالحرارة ، وابتهج الجنرال لأنه لن يبقى بها الا ريثما يبرا
ما ألم به بسبب وقوعه ولأنه يستطيع أن يبحر فى يوم يكون
البحر فيه هائجا ، لأن الموجز الطبي يقول ان البحر عندما
يكون هائجا يكون مناسبا لتحريك الأخطا الصفراوية وغسل
المعدة . واستعاد صحته سريعا . ولكن كان من المتعذر تزامن
السفينة مع سوء الأحوال الجوية .

غضب الجنرال لتمرّد جسده عليه ، ولم يعد يقوى على
القيام بأى نشاط سياسى أو اجتماعى أو استقبال الاقدامى
الأصدقاء الذين يتوقفون بالمدينة لتوديعه ، وكان البيت كبيرا
ورطباً بقدر ما يسمح به شهر نوفمبر ، وحوله أصحابه

الى مصح عائلى . وكان دون بارتولوميه موليناريس واحدا من بين الذين دمرتهم الحروب ولم تترك له الا وظيفته كمدير لمصلحة البريد ، كان يؤديها دون أن يتقاضى راتبا منذ عشر سنوات . كان رجلا كريما بحيث ان الجنرال كان يدعوه منذ رحلته السابقة « بابا » ، وكانت زوجته . وهى امرأة جلييلة حبتها الطبيعة بحب أموى كبير . تقضى ساعاتها أمام مغزل لكى تصنع الدانتلا وتبيعها بأسعار مناسبة فى السفن التى تنطلق الى أوروبا ، ولكن ما أن ظهرت أمام الجنرال بالبيت حتى كرسست له كل وقتها بحيث انها تخصصت مع فرناندا باريجا لاعتقاد هذه الأخيرة بأن زيت الزيتون علاج لمرض الصدر . وكانت تضيفه الى العدس الذى يتناوله الجنرال كرها وامتنانا .

وما ازعجه أكثر من أى شىء آخر فى تلك الأيام هو تقييح عينيه الذى جعله حاد المزاج الى أن أفلحت حمامات المياه الممزوجة بالكاموميل فى تهدئته ، وعندئذ استأنف لعب الورق . وهو عزاء مؤقت عن آلام الناموس وآحزان الغروب . وفى احدى نوبات ندمه النادرة ، وبينما كان يداغب صاحب البيت ، بين الجد والهزل ، فاجأهما بقوله ان اتفاقا طيبا أفضل بكثير من ألف قضية رابعة .

سأله موليناريس : أفى السياسة أيضا ؟

اجابه الجنرال : فى السياسة على الخصوص ، فان عدم اتفاقنا مع سانتاندر أضاعنا جميعا .

قال موليناريس : طالما بقيتما صديقين فهناك أمل .

قال الجنرال : على العكس فان غدر أصدقائى لم يضع حدا لمجدى وانما هو تعجل أصدقائى لى ، فهم الذين ورطونى فى مصيبة اتفاقية أوكانا ، وهم الذين أريكونى فى مسألة النظام الملكى وأرغمونى ، أولا على اعادة الانتخاب متذرعين

بنفس الأسباب التي تذرعوها بها بعد ذلك لارغامى على الاستقالة . وهم الذين يحتجزوننى أسيرا فى هذه البلاد السي لم أعد أبحث فيها عن شىء .

ظل المطر يهطل باستمرار ، وبدأت الرطوبة تفتح ثغرات فى الذاكرة . وكان الحر شديدا . حتى فى الليل . بحيث ان الجنرال غرق فى العرق واضطر أن يستبدل قميصه مرارا كثيرة . وتذمر قائلا : « لدى احساس بأننى أستوى فى ماء ساخن » . وبقي ذات ليلة جالسا فى الشرفة أكثر من ثلاث ساعات يتأمل فى الشارع قذارات الأحياء الفقيرة وهى تنساب أمامه ، والأواني المنزلية ، وجثث الحيوانات التى يجرفها سيل المطر الذى بدا كأنه يريد أن ينتزع البيوت من أساسها .

ظهر القومندان جوان جلين ، حاكم المدينة . وسط الاعصار لكى يعلن عن القيام القبض على امرأة تشتغل عند السيد فيسيال ، لأنها تبيع شعرا كان الجنرال قد قصه فى سوليداد ، على أنه من البقايا المقدسة . وأصابه الاكتئاب مرة أخرى وهو يرى بمرارة أن كل ما كان يملكه تحول الى بضاعة سوقية ، وقال :

— انهم يعاملوننى كما لو أننى مت حقا .

وكانت مدام موليناريس قد أدنت مقعدها القلاب من طاولة اللعب حتى لا تضيع منها كلمة ، فقالت :

— بل انهم يعاملونك كما أنت . . . فأنت قديس .

قال : حسنا . اذا كان الامر كذلك فليطلقوا سراح هذه المرأة المسكينة .

انقطع عن قراءته ، وعندما تكون لديه رسائل لتحريرها كان يكتفى بابلاغ فرناندو ولا يعيد قراءة الرسائل التى يمهرها بتوقيعه . وكان يقضى أيامه فى الشرفة ، يتأمل

الشوارع المقفرة التى يعلوها الرمل ، والحمار الذى يمر ويوزع الماء ، والزنجية الوقحة والسعيدة التى تبيع الاسماك التى احدثتها الشمس ، والأطفال التى تخرج من المدارس فى تمام الساعة الحادية عشرة ، والكاهن بثوبه الرث والمرفع وهو يرسل اليه بركاته من حوش الكنيسة وهو يقطر عرقا . وفى الساعة الواحدة ، وأثناء قيلولة الآخرين كان يسير بجوار المجارى العفنة مخيفا بظله أسراب كواسر السوق ، ومحيا . هنا وهناك ، الأشخاص القلائل الذين يعرفونه . وهو شبه ميت وبملابسه المدنية . وكان يمضى حتى حى الجنود . وهو حظيرة يحوطها سياج أمام الميناء النهري . كانت معنوية الجنود الذين تضنيهم البطالة تقلقه وهو يرى فى وضوح فوضى الثكنات التى أصبحت رائحتها تزكم الأنوف . ولكن رقبيا يبدو أن لهيب الحر قد أغرقه فى لجة من الدهول أفحمه بأن قال له الحقيقة :

— ليست المعنويات التى تضنينا يا صاحب الفخامة ، وانما هى رائحة البول الحادة .

عرف كل شئ عندئذ ، فان أطباء المدينة بذلوا كل جهدهم وقصارى معلوماتهم الطبية باستخدام الفسيل بالبرمنجنات ويمسكنات السكر باللبن وطرحوا المسألة على القيادات العسكرية ، ولم يستطع هؤلاء أن يتفقوا على ما يجب أن يفعلوه . كانت المدينة كلها على علم بالخطر الذى يهددها ، واعتبر جيش الامبراطورية المجيد رسول الطاعون . ولكن الجنرال أقل قلقا مما يعتقدون ، وأصدر الأمر مرة واحدة بأن أصدر أمره بحجر صحى مطلق .

وبدا غياب الأخبار ، سواء أكانت جيدة أم سيئة أمرا يثير القلق عندما جاء ساع على جواد من سانتا مارتا ومعه رسالة غامضة من الجنرال مونتيلا « الرجل معنا والاجراءات تسير فى الطريق السليم » ووجد الجنرال البرقية غريبة جدا وارسالها أغرب بحيث فسرهما على أنها من أخطر أمور القيادة

العليا ، وبأنها قد تكون متعلقة بحملة ريوهاشا التي يخصصها بأولوية تاريخية لم يشأ أن يفهمها أحد .

فى ذلك الوقت كان من الطبيعى أن تعقد البرقيات وان تتشابه المعلومات الحربية لاسباب أمنية ، لان اهمال الحكومات تسبب فى عدم استخدام الشفرات المفيدة جدا أثناء أولى المؤامرات ضد اسبانيا - وكانت فكرة أن العسكريين يخدعونه احدى المسائل التي تثير قلقه هو ومونتيللا ، وهذا ما زاد غموض الرسالة وضاعف قلق الجنرال - وأرسل عندئذ جوزيه بالاسيوس الى سانتا مارتا بحجة شراء فاكهة وخضروات طازجة وبضع زجاجات من النبيذ المعتق والجمعة التي لا توجد لديهم فى المدينة ، ولكن الغرض الرئيسى هو الكشف عن غموض الرسالة - وكان الامر سهلا جدا ، فقد أراد مونتيللا أن يقول ان زوج ميراندا لندسائ نقل من سجن هوندا الى سجن قرطاجنة وأن العفو عنه لن يستغرق أكثر من بضعة أيام - وأحس الجنرال عندئذ بأنه خدع ببساطة اللغز بحيث لم يبتهج بالجميل الذى قدمه للتي أنقذته فى جمايكا .

أخبره أسقف سانتا مارتا فى بداية شهر نوفمبر ، برسالة كتبها بخط يده أنه بفضل وساطة البابوية هذا النفوس فى القرية المجاورة لسييناجا حيث وقعت فيها فى الأسبوع الأخير محاولة تمرد لصالح ريوهاشا - شكره الجنرال ، هو الآخر بخط يده ، وطلب من مونتيللا أن يقوم بالباقي - ولكن الطريقة التى استعمل بها الأسقف سداد دينه لم ترق له .

لم تكن علاقاته بالمونسنيور استيفينز بالعلاقات السهلة أبدا - فقد كان الأسقف ، خلف هدوئه الرهبانى سياسيا متحمسا ، ولكنه قليل الحكمة ، ومعاد من سويداء قلبه للجمهورية ولاتحاد القارة ولكل ما يمت بصلة الى الفكر السياسى للجنرال ، ففى الكونجرس الرائع الذى كان نائبا لرئيسه فهم تماما ان مهمته هى أن يضع العراقيل أمام نفوذ

سوكريه ، وقد بذل جهده فى سبيل ذلك ببحث وفعاليه انشاء
انتخاب كبار الموظفين . وفى المهمة التى أنجزوها لمحاولة
وجود حل ودى للخلاف مع فنزويلا . ولم يدهش الزوجان
موليناريس اللذان يعرفان هذه الاختلافات أبدا عندما
استقبلهما الجنرال فى تصبيرة الساعة الرابعة باحدى حكمه
التنبؤية اذ قال :

— ماذا يكون من أمر أولادنا فى بلد تضع فيه همّة
أسقف نهاية للثورات ؟

أجابته مدام موليناريس بلهجة عتاب ودى وحازم فى
نفس الوقت :

— حتى اذا كنت على حق يا صاحب الفخامة فلا أريد أن
أعرف ذلك . نحن كاثوليكيون من زمن بعيد .

استدرك الجنرال على الفور فقال :

— أكثر من سيادة الأسقف دون شك لأنه لم يعد السلام
سييناجا حبا لله . وانما لكى يبقى على وحدة أوفياءه فى
الحرب ضد قرطاجنة .

قال مسيو موليناريس : نحن هنا ، أيضا ، ضد استبداد
قرطاجنة .

قال الجنرال : أعرف ، فكل كولومبى بلا عدو .

كان الجنرال ، وهو فى سوليداد ، قد طلب من مونتيلا
أن يرسل اليه باخرة خفيفة حتى ميناء سابانيلا المجاور
لتحقيق مشروعه فى طرد صفرائه بالتعرض لدوار بحر
شديد . وتأخر مونتيلا فى ارضائه لأن دون جواكين دى ميير ،
وهو اسباني جمهورى . شريك للكمودور البيرس كان قد
وعده باحدى البواخر البخارية التى تقدم خدماتها فى

المناسبات فى نهر مجدالينا ، ولان هذا لم يحدث فقد ارسل مونتيللا ، فى منتصف نوفمبر سفينة تجارية يخفق عليها علم انجليزى وصلت فجأة الى سانتا مارتا . وما أن عرف الجنرال ذلك حتى قال لمن حوله انه سينتھز الفرصة لمغادرة البلد : « اننى مصمم على الذهاب الى أى بلد لكى لا أموت هنا » ثم سرت فى بدنه رعشة عندما فكر ان كاميل تنتظره متفحصة الأفق من شرفة مزدهرة أمام البحر . وقال :

— انهم يحبوننى فى جمايكا .

وأصدر تعليماته لجوزيه بالاسيوس للبدء فى اعداد الأمتعة ، وفى تلك الليلة ، بقى مستيقظا حتى وقت متأخر جدا ، يحاول أن يعثر على مستندات كان يريد أن يأخذها معه . بأى ثمن . وتملكه تعب شديد بحيث نام ثلاث ساعات متتابة . وفى الفجر ، عندما فتح عينيه لم يدرك أين هو الا عندما أطلقه جوزيه بالاسيوس على تاريخ اليوم ، فقال :

— حلمت اننى كنت فى سانتا مارتا . كانت مدينة فضيعة تماما ، بيوتها بيضاء ومتجانسة ، ولكن الجبل كان يحول دون رؤية البحر .

قال جوزيه بالاسيوس ، لم تكن مدينة سانتا مارتا اذن . انما كانت كاراكاس .

لأن حلم الجنرال كشف له انهم لن يذهبوا الى جمايكا . كان فرناندو قد ذهب الى الميناء منذ وقت ملويل ليود تفاصيل الرحلة . وعند عودته وجد عمه يملئ خطابا على ويلسون يطلب فيه من اورداثيتا جواز سفر جديدا لمغادرة البلاد . لأن الحكومة السابقة لم يعد لها أى نفوذ . وكان هذا هو التفسير الوحيد الذى تنازع به لالغاء رحلته .

ومع ذلك فقد اتفق الجميع على القول بأن السبب الحقيقى انما هو أن العمليات الجديدة فى ريواسا التى

جاءتهم فى صباح اليوم بالذات قد زادت العمليات السابقة خطورة . كان الوطن يتفتت من محيط الى آخر ، وشبح الحرب الاهلية ينصب على انقاضه ، ولم يكن هناك ما يزعج الجنرال الا التهرب من المحنة ، وقال : « ليست هناك تضحية الا ونحن مستعدون لقبولها من أجل ريوهاشا » . وكان الدكتور جاستليوندو الوحيد الذى يعرف كيف يحدثه دون أن يذله ، لأنه شديد القلق عليه بسبب أمراضه أكثر بسبب همومه ، وقال له :

— ان العالم ينهار وأنت لا تهتم الا بريوهاشا . لم نحلم أبدا بمثل هذا الشرف .

وكان الرد سريعا : ان مصير الدنيا مرتبط بريوهاشا .

كان يعتقد هذا حقا ، ولا يستطيع اخفاء قلقه لانهم كانوا متواجدين فى الوقت المتوقع للاستيلاء على ماراثيبو ولان النصر كان الآن أبعد ما يكون . وكلما اقترب ديسمبر وأمسياته الزيرجدية زاد خوفه من ضياع ريوهاشا . وربما كل الساحل . ولكنه كان يخشى أكثر أن تقوم فنزويلا بحملة لتدك كل ما تبقى من أحلامه .

كان الجو قد بدأ يتغير منذ الأسبوع الماضى ، فقد انقطع المطر وأشرقت السماء وسطعت فيها النجوم . ولم يحفل الجنرال بروائع الدنيا وراح يفكر ، وهو فى أرجوحته تارة ، وتارة أخرى وهو يلعب الورق دون أن يهتم بمصيره . وبعد قليل ، أثناء اللعب فى الصالون ، هبت نسمة من السورود البحرية وانتزعت منهم أوراق اللعب ورجت الأبواب . وهتفت مدام موليناريس وقد تحمست بتباشير الفصل المعتدل الذى أقبل قبل الأوان : « ولكننا مازلنا فى ديسمبر » وأسرع ويلسون وجوزيه لورنسيو سيلفا باغلاق النوافذ لمنع الرياح من انتزاع البيت . وكان الجنرال هو الوحيد الذىبقى متعلقا بفكرته اذ قال :

— أقبل ديسمبر ومازلنا فى نفس النقطة - انهم محقون
اذ يقولون ان من الخير أن يكون رقباء سيئون من أن يكون
لديهم جنرالات لا فائدة منهم -

واستمر يلعب - وفى منتصف الدور ألقى ورقه وقال
لجوزيه لورنسيو سيلفا أن يجهز كل شيء للرحيل - وكان
الكولونل ويلسون قد أنزل متاعه فى اليوم السابق للمرة
الثانية ، فتملكته الدهشة وقال :

— ان السفينة قد أبحرت -

كان الجنرال يعرف ذلك ، وقال : « لم تكن السفينة
المناسبة - يجب أن نمضى الى ريوهاشا لكى نرى ان كان
قوادنا المشهورون مصممين أخيرا على احراز النصر » - وقبل
أن يغادروا المائدة أحس بضرورة تبرير نفسه أمام ضيوفه
فقال :

— وهذه ليست ضرورة حربية على كل حال ، وانما هى
مسألة شرف -

وهكذا فى الساعة الثامنة من صباح أول ديسمبر أبحر
على الباخرة مانويل - وهى سفينة شراعية ذات صاريين ،
وضعها جواكين دى ميير تحت تصرفه التام والكامل لكى يقوم
فيها بجولة أو لكى يطرح صفراءه أو للإقامة فى مصنع السكر
بسان بدرو اليجاندرو الذى يمتلكه - وليراعى فيه صحته من
أمراضه العديدة وهمومه التى لا تحصى أو لكى يواصل
طريقه الى ريوهاشا ويحاول مرة أخرى انقاذ أميركا - وكان
الجنرال ماريانو مونتيلا قد جاء الى الباخرة ومعه الجنرال
جوزيه ماريو كارينو ، وقد عمل على أن تقوم الفرقاطة
جرامبوس التابعة للولايات المتحدة بحراسة السفينة الشراعية ،
وكان بين ركاب الفرقاطة الجراح المشهور الدكتور نايت -
ولكن عندما رأى مونتيلا حالة الجنرال المحزنة لم يشأ أن

يعتمد على رأى الدكتور نايت فحسب فاستشار الطبيب
المحلى أيضا .

وقال الدكتور جاستلبونندو : لا أظن أنه سيحتمل
السفر ، ولكن ليرحل فمن الخير له أن يعيش فى هذه الظروف .

كانت قنوات نهر جراند سيينا جا بطيئة وشديدة الحرارة
وتصدر منها أبخرة مميتة . ومخروا البحر عندئذ منتهزين
رياح الشمال الأولى التى كانت فى تلك السنة معتدلة وراحت
تهب مبكرة . وكانت السفينة الشراعية بمقصورتها المعدة
للجنرال نظيفة ومريحة ، وراحت تعبر المياه فى شيء من
المرح .

أبحر الجنرال وهو معتدل المزاج ، وأراد أن يبقى على
السطح لكى يرى مصب نهر مجدالينا الكبير الذى كان طميه
يصبغ المياه بلون الرماد حتى فراسخ بعيدة فى البحر . كان
قد ارتدى بتطلونا قديما من المخمل وقبعته الانديزية وسترة
من نوع الأرمادا الانجليزية أهده اياه ربان السفينة . وفى
وهج الشمس ، تحت تلك النسمة المندفعة كان له مظهر
أفضل . واصطاد البحارة ، تكرىما له ، حوتا ضخما وجدوا
فى بطنه بين الكثير من الطرائف مهمازى فارس . وابتهج
الجنرال بكل شيء ، بمرح سائح ، حتى تغلب التعب عليه
واستحوذ على روحه . وعندئذ أشار الى جوزيه بالاسيوس
بأن يقترب وهمس فى أذنه :

— لابد أن بابا موليناريس يحرق المرتبة الآن . ويدفن
طاقم السفرة .

وفى منتصف النهار حاذوا نهر جراند سيينا جا ، وهو
امتداد شاسع من المياه العكرة ، حيث تتنازع طيور السماء
سربا من الأسماك الذهبية ، وفى سهل الملح الملتهب ، بين

المستنقعات والبحر ، حيث النور أكثر شفافية والهواء أكثر نقاء ، تقوم اكواخ الصيادين وشباكهم المنشورة فى الحدائق ، وبعد قليل تقع قرية لاسييناجا الغامضة التى أثارت أشباحها النهارية ارتياب تلاميذ همبولد فى علومهم ، وفى الناحية الأخرى من لاجراند سييناجا يقوم تاج الجليد الأبدى لسيرانيفاذا •

كانت السفينة المرحّة تنطلق تقريبا فوق سطح الماء فى صمت أشرعتها ، خفيفة وثابتة بحيث انها لم تسبب للجنرال شيئا من ذلك القلق الجسمانى الذى طالما كان ينتظره لكى يتخلص من صفرائه • ومع ذلك حاذوا فيما بعد احدى سلاسل الجبال التى تمتد فى البحر ، وغدت المياه موحلة ، واشتد هبوب الريح - وشاهد الجنرال هذه التغيرات بأمل زائد لأن الدنيا بدأت تدور فى نفس الوقت الذى حلقت فيه الطيور الكاسرة فوق رأسه ، وبلل قميصه عرق بارد وغامت عيناه بالدموع • واضطر مونتيلا وويلسون الى الامساك به لأنه كان خفيفا جدا بحيث ان أى ميل للسفينة يمكن أن يطوح به من فوق السطح • وعند الغروب ، عندما بلغوا مياه خليج سانتا مارتا الهادئة ، لم يكن فى جسده التالف شيء للطرد ، وكان مستلقيا على سرير الربان ، خائرا • ومحتضرا ، ولكن فى ثمالة الحلم الذى تحقق • وذعر الجنرال مونتيلا من حالته التى تفاقمت بعد ابحاره ، وطلب تشخيصا جديدا من الدكتور نايت فقرر هذا الأخير أن يهبط الى الأرض فوق محفة •

وفى ما عدا قلة الاهتمام الذى يتميز به أهالى سانتا مارتا لكل ما له طابع رسمى ، كانت هناك أسباب أخرى مفسرة لوجود مثل ذلك العدد القليل من الناس عند الميناء ، فقد كانت سانتا مارتا من أصعب المدن للانضمام الى قضية الجمهورية - فبعد معركة بويكا التى رسخت الحرية فان نائب الملك ساماتو لجأ اليها فى انتظار امدادات من أسبانيا •

وحاول الجنرال نفسه تحريرها مرات عديدة ، واستنصح مونتيلا وحده ذلك بعد ان تدعمت الجمهورية ، وبالإضافة الى حقد الملكيين كان هناك عداء جماعى نحو قرطاجنه . المدينة الاثيرة لدى السلطة المركزية والتي يدعمها الجنرال ، دون أن يدري . بحبه للقرطاجينيين ، ومع ذلك فقد كان السبب الأكثر خطورة ، حتى لدى أغلب انصاره اخلاصا اعدام الاميرال جوزيه برودنسيو باديلادون محاكمة - وطفح الكيل لانه كان خلاصيا ، كالجنرال بيار - وقد ازداد الغل باستيلاء اوردانيتا على الحكم ، خاصة أنه هو الذى راس مجلس الحرب الذى أصدر حكم الموت - بحيث ان اجراس الكنيسة لم تدق كالمتوقع ، ولم يعرف أحد السبب ، كما ان طلقات المدفع لم تطلق من حصن المور ترحيبا به ، لأنهم احتشفوا فى الفجر أن البارود الذى بالمخزن مبتل - وكان الجنود قد اشتغلوا حتى قبيل ذلك بقليل لكى لا يزى الجنرال العبارات المكتوبة بالفحم على جدران الكاتدرائية - يحيا جوزيه برودنسيو » وقد أثر الاعلان الرسمى بوصوله بالخاد فى الأشخاص القلائل الذين كانوا ينتظرونه فى الميناء . ولكن غياب الأسقف استيفيز هو الذى لوحظ أكثر لأنه كان أول وأبرز المدعوين الرسميين .

وكان يجب أن يتذكر دون جواكين دى مير حتى آخر عمره المخلوق المخيف الذى أنزلوه من السفينة فوق محفة فى أول الليل الخانق من الليلة الأولى ، متدثرا فى غطاء من الصوف ، وعلى رأسه قبعتان ، الواحدة فوق الأخرى ومتدليتان . حتى حاجبيه وهو لا يكاد يستطيع التنفس - ومع ذلك فقد انحضر فى ذهنه الى الأبد يده الملتهبتان ونفسه الحار والوقار العجيب الذى ترك به المحفة لكى يحييهم ، الواحد بعد الآخر ، و هو يذكر رتبة كل منهم واسمه الكامل فى حين كان يقف بكل صعوبة ، يسائده ملازموه ، ثم ترك نفسه بين أيديهم حتى العربة حيث تهالك فوق المقعد معتمدا برأسه الى الخلف ،

ولكن بصره النهم بقى معلقا بالحياة التى تدور امامه من خلال النافذة ، لمرة وحيدة وأخيرة •

لم يكن على كل العربات الا اجتياز الشارع لبلوغ مبنى الجمرك القديم الذى حجزوه له • كانت الساعة توشك على الثامنة فى يوم أربعاء ، ولكن أول نسمات ديسمبر التى هبت من الشاطئ جعلته يبدو كيوم أحد • وكانت الشوارع عريضة وقذرة والبيوت الحجرية بشرفاتها البارزة تبدو فى حالة أفضل من غيرها فى البلد كله ، وأخرجت عائلات بأسرها مفروشاتهما للجلوس على الرصيف والاستمتاع بالجو الجميل ، واستقبل كثيرون منهم زائرهم وسط الشارع وكانت هناك جيوش من الجبابب بين الأشجار أضاعت شاطئ البحر ، وكان ضوءها أشد سطوعا من الفوانيس •

كان المبنى القديم للجمرك قد شيد قبل ذلك بمائتين وتسع وتسعين سنة وهو بذلك أقدم مبنى فى المدينة • وأعيد ترميمه منذ وقت قريب • وأعدت للجنرال • فى الطابق الثانى الغرفة المطلة على البحر ، ولكنه فضل الإقامة معظم الوقت فى القاعة الرئيسية حيث توجد الحلقات الوحيدة التى يمكن تعليق الأرجوحة فيها • وهناك كانت توجد أيضا المائدة الكبيرة من خشب الأكاجو المحفور وهى التى سيوضع فوقها بعد ستة عشر يوما جسده المحنط ، مسجى بسترته الزرقاء التى تنم عن مكانته ولكن بدون الأزرار الذهبية الثمانية التى انتهن أحدهم فرصة الارتباك والبلبله وانتزعها فى غفلة من الباقين •

هو وحده لم يكن يبدو أنه قريب هكذا من الموت • وعلى العكس • لم يكن الدكتور الكسندر بروسسبر ريفراند ، الطبيب الفرنسى الذى استدعاه الجنرال مونتيلا على عجل ، فى الساعة التاسعة ، بحاجة الى أن يجس نبضه لكى يدرك أنه بدأ يموت منذ سنين • فما أن رأى ذبول عنقه ، وانكماش

صدره ولون بشرته الأصفر حتى أدرك أن الضرر الأكبر هو رثاء التالفتان ، وأكدت الأيام التالية صحة تشخيصه -
واثناء الاستجواب المبدئي ، وجها لوجه ، نصفه بالاسبانية والنصف الآخر بالفرنسية.تحقق الطبيب من أن مريضه يملك عبقرية كبيرة للخلط بين الأعراض وبين حقيقة المرض ، وأن القليل من النفس المتبقى له يضيع في مجهوده الذي يبذله لكي يمنع نفسه من السعال ولكي لا يبصق أثناء الكشف -
وأثبت الفحص السريري التشخيص الأول ، ولكنه نسب في التقرير الطبي الذي سجله في تلك الليلة ، وهو أول تقرير من بين ثلاثة وثلاثين تقريراً سجلها خلال الخمسة عشر يوماً التالية ، أهمية كبيرة معادلة لنكبات الجسد وعذاب الروح .

كان الطبيب ريفراند في الرابعة والثلاثين من عمره ، مثقفاً واثقاً من نفسه ، ويعنى بمظهره - قدم قبل ستة أعوام بعد أن خاب أمله في عودة آل بوروبون على عرش فرنسا ، وكان ينطق ويكتب اسبانية سليمة - ولكن الجنرال انتهز أول فرصة لكي يقدم له دليلاً على أنه يعرف الفرنسية معرفة جيدة ، وأسرع الدكتور بأن رد عليه قائلاً :

— ان لفخامتك لهجة باريسية .

أجابه الجنرال وقد تشجع : من شارع فيفيين - كيف عرفت ذلك ؟

قال الطبيب : من دواعي فخري أنني أستطيع أن اخمن أين نشأ أي باريسى وفي أي ركن بمجرد سماعي اللهجة التي يتحدث بها ، رغم أنني ولدت وعشت في قرية صغيرة بنورماندى .

قال الجنرال : حيث أجود أنواع الجبن والنبيد .

أجاب الطبيب : لعل سر صحتنا الجيدة يكمن هنا .

وكسب ثقته وهو يترفق بالجانب الصبياني من قلبه .
وكسبها أكثر أيضا لانه بدلا من ان يصف له ادويه جديده
أعطاه بيده ملعقة من شراب أعد له الدكتور جاستليوبودو
لتهدئة سعاله ، وقرصا مسكنا ليتلعه الجنرال دون ايه مقاومه
لأنه كان يريد ان ينام . وطفقا يتحدثان فى مواضيع مختلفه
حتى أحدث المسكن مفعوله ، وخرج الطبيب على طرفى قدميه ،
واصطحبه الجنرال موتيللا الى بيته ، مع بعض الضباط .
وانزعج عندما قال له الطبيب انه سينام بكامل ثيابه لعلهم
يحتاجون اليه على عجل .

لم يستطع ريفراند ونايت الاتفاق خلال الاجتماعات
العديدة التى تمت بينهما طوال الأسبوع . كان ريفراند
مقتنعا بأن الجنرال مصاب بمرض رئوى سببته نزلة شعبية
لم تعالج كما يجب . اما الدكتور نايت فكان مقتنعا ، بسبب
لون البشرة والحمى المسائية ، بأنه يعانى من ملاريا مزمنة .
ومع ذلك فقد اتفقا على خطورة حالته ، وطلبوا من أطباء
آخرين البت فى المسألة ، ولكن الأطباء الثلاثة الذين يقيمون
فى سانتا ماريا ، وغيرهم من أطباء المدينة رفضوا الحضور
دون ابداء الأسباب، بحيث ان ريفراند ونايت اتفقا على علاج
أساسه مراهم صدرية ضد البرد وشراب الكينا ضد الملاريا .

تفاقت حالة المريض فى نهاية الأسبوع بسبب كوب من
لبن الحمار شربه على مسئوليته وخفيه عن الأطباء . كانت
أمه تتناوله محلى بالعسل وتعطيه منه وهو صغير لتهدئة
سعاله . ولكن مذاقه الناجع المرتبط بطريقة حميمة جدا
بأقدم ذكرياته أعاد له المرارة وأتلف جسده . الى حد أن
الدكتور نايت أسرع بالرحيل لكى يرسل اليه اخصائيا من
جمايكا . وأوفد طبيبين ومعهما كل أنواع الأدوية المسكنة
فى وقت قياسى فى مثل ذلك الوقت . ولكنهما وصلا متأخرين
جدا .

ورغم كل شيء لم يتفق مزاج الجنرال مع انحطاط قواه
لأنه كان يتصرف كما لو أن الأمراض التي تقتله لم تكن
الا وعكات تافهة . كان يقضى الليل ساهرا في أرجوحته ينظر
الى فنار قلعة مور وهو يدور . محتملا آلامه حتى لا يكشف
عنها بآنيته ودون أن يحول بصره عن جمال الخليج الذي كان
يعتبره أجمل خلجان العالم . وكان يقول :
- ان عيني تؤلماننى مع كثرة النظر .

وكان يحاول أثناء النهار أن يبدو نشطا جدا ، كما لو
كان فى الماضى . فيستدعى ايبارا وويلسون وفرناندو أو من
يكون قريبا منه لكي يطلعهم على الرسائل التي لم يعد يجد
صبرا لاملأها ، وجوزيه بالاسيوس وحده هو الذى كان على
شيء من وضوح القلب بحيث أدرك أن تلك التصرفات العاجلة
كانت تعنى النهاية لأنها كانت تدابير لمستقبل المقربين اليه .
ولم يكن بعضهم موجودا فى سانتا مارتا . نسي مشاحنته مع
سكرتيره القديم ، الجنرال جوزيه سانتانا ، وحصل له على
وظيفة فى وزارة الخارجية حتى يتسنى له الاستمتاع بحياته
الجديدة كعريس حديث . ووضع الجنرال جوزيه مارييا
كارينو . الذى اعتاد امتداح قلبه الكبير . على الطريق الذى
سيقوده بعد سنوات طويلة الى رئاسة فنزويلا . وطلب من
أوردانتيا خطابات خدمة لأندريس ايبارا وجوزيه لورنسيو
سيلفا حتى يمكنهما الحصول على معاش منتظم ، وأصبح سيلفا
قائدا عاما وسكرتيرا فى وزارة الحرب والبحرية ، ومات فى
سن الرابعة والثمانين ، واضمحل بصره بعد أن حصل على
بطاقة عجز حصل عليها بعد مساع شاقة وهو يكشف عن
جروحه العديدة لكي يثبت جداراته الحربية .

وحاول الجنرال كذلك أن يقنع بريسينو منديز بالعودة
الى غرناطة الجديدة لشغل وزارة الحربية ، ولكن عجلة
التاريخ لم تتح له وقتا لذلك . واتخذ لابن أخيه فرناندو

تدابير ايصائية حتى ييسر له دخول الادارة . ونصح الجنرال ديبجو ايبارا . اول ملازميه واحد الذين كان يعاملهم دون آية كلفة سواء فى الحياة الخاصة أم أمام الجمهور . أن يمتنى الى مكان يشعر فيه أنه اكثر فائدة من فنزويلا . وحتى وهو على فراش الموت طلب آخر جميل فى حياته للجنرال جوستو بريسينو . رغم أنه كان على خلاف معه فى تلك الأيام .

لم يشك ضباطه . بلا مرأ . الى أى حد وحد ذلك التوزيع مصائرهم لأنه قدر لهم أن يقضوا بقية حياتهم معا ، سواء فى السراء أم فى الضراء ، وأن يتقاسموا حتى السخريه التاريخيه تواجدهم من جديد . بعد خمس سنوات ، فى فنزويلا . بجوار الجنرال بدروكاروجو . فى المغامرة الحرييه لصالح الفكرة البوليفاريه للوحدة .

لم تعد مناورات سياسيه وانما ترتيبات وصائية لصالح أيتامه و اقرار مفاجيء للجنرال أوردانيتا أكده لويلسون قائلا « ريوهاشا ضاعت » وفى أصيل نفس ذلك اليوم تلقى الجنرال رساله غير متوقعه من الأسقف استيفيز لاستخدام نفوذه لدى الحكومه المركزيه للاعتراف بسانتا مارتا وريوهاشا كمحافظتين ووضع حد للخلاف التاريخي مع قرطاجنة . وأشار الجنرال الى جوزيه لورنسيو سيلفا ، عندما انتهى من قراءة الرسالة اشارة تدل على الاجابة وقال له : « كل الأفكار التى تدور فى رأس الكولومبيين لا تؤدى الا الى التجزئة » وفيما بعد . بينما كان يهتم مع فرناندو بالرسائل المتأخرة . كان أشد مرارة وهو يقول :

— لا تهتم حتى بالرد عليه . فلينتظروا حتى يواريني الثرى ليفعلوا ما يشاءون .

كان همه الدائم فيما يتعلق بالجو يؤدى به الى حافة الجنون . فاذا كان رطباً أرادته أكثر جفافا ، واذا كان باردا

أراد دافئا ، وإذا كان جبليا أراد بحريا - كان هذا الأمر يغذى قلقه المستمر لكي يفتحوا النافذة لدخول الهواء وأن يفلقوها - وأن يضعوا المقعد لصق الجدار . وأن ينقلوه من مكانه - ولم يكن ليستريح الا عندما يتأرجح فى أرجوحته ، مستخدما ما بقى له من قواه الضعيفة .

أصبحت أيام سانتا مارتا مملة جدا بحيث ان الجنرال جدد رغبته فى المضى الى بيت مسيو دى ميير الريفى . وكان الدكتور ريفراند أول من شجعه على ذلك وهو واع بأن هذه هى الأعراض الأخيرة لوهن لا صلاح بعده ، وفى عشية الرحيل كتب لصديق : « سأموت بعد شهرين على الأكثر » . وكان قوله هذا بالنسبة للجميع نبوءة لأنهم لم يسمعه يتكلم عن الموت طوال حياته الا بضع مرات -

كانت فلوريدا دى سان بدرو اليجاندرو تقع على بعد فرسخ من سانتا مارتا ، فوق خاصرة جبل سيرا نيفادا ، وهى مزرعة قصب سكر فيها مصنع لصنع العسل الأسود - وقطع الجنرال ، فى عربة مسيو دى ميير ، الطريق المغبر الذى قدر لجسده أن يقطعه بدونه وفى اتجاه عكسى ، بعد عشرة أيام ، ملفوفا فى غطاءه الجبلى القديم فوق عربة ثيران - وقبل أن يرى البيت أحس بالنسمة المعطرة برائحة المولاس الساخن ، وخضع لأحابيل الوحدة وقال وهو يتنهد :

— هذه رائحة سان ماتيو .

كان مصنع السكر بسان ماتيو ، الواقع على بعد أربعة وعشرين فرسخا من كاراكاس ، فى حنايا قلبه ، فقد أصبح يتيم الأب وهو فى الثالثة من عمره . ويتيم الأم وهو فى التاسعة . وأرمل وهو فى العشرين - كان قد تزوج فى اسبانيا بفتاة جميلة من الارستقراطية الكريولية تمت له بصلة القرابة ، وكانت رغبته الوحيدة هى أن يكون سعيدا

معها وأن يشرف على ادارة أملاكه الواسعة كسيد لحيوات
وآراضى مصنع السكر فى سان ماتيو - لم يعرف أحد ابدا
بالتاكيد اذا كان موت زوجته بعد زواجهما بثمانية شهور
بسبب حفى خبيثة أو بسبب حادث منزلى، وكان ذلك بالنسبة
له ميلادا تاريخيا - لأنه كان حتى ذلك الوقت شايا من شباب
المستعمرات تبهره الملذات الدنيوية وليست له أية ميول
سياسية - ولكن بدءا من تلك اللحظة - أصبح دون تمهيد
الرجل الذى بقيه حتى آخر حياته - لم يتحدث أبدا عن
زوجته ، ولم يذكرها أبدا ، ولم يحاول أبدا أن يتزوج
بامرأة غيرها - وطوال ليالى حياته تقريبا حلم ببيت سان
ماتيو ، وكان يحلم كثيرا بأبيه وأمه وبكل من اخوته وأخواته
ولكنه لم يحلم بها هى أبدا ، لأنه دفنها فى أعماق نسيان
مطلق كدواء شرس لكى يتمكن من العيش بدونها - وأحيت
رائحة مولاس سان بدرو ذاكرته لمجرد لحظة ، هى والعبيد
الواقفون أمام المطاحن الذين لم يوجهوا اليه ولا حتى نظرة
شفقة واحدة والأشجار الضخمة حول البيت الذى أعيد طلاؤه
حديثا باللون الأبيض بمناسبة استقباله ، ومصنع السكر
الآخر فى حياته ، حيث قاده قدر محتوم الى الموت -

قال فجأة : كانت تدعى ماريا تيريزا رودريجز دل تورو
اى الايزا -

سأله مستر دى ميير فى شرود : من تعنى ؟

أجاب : من كانت زوجتى -

- واستدرك على الفور : ولكن أرجوك أن تنسى ما قلت .
فلم يكن ذلك الا أحد عوائق شبابى -

ولم يقل شيئا آخر -

تسببت الغرفة التى خصصت له فى ذكرى أخرى مزعجة ،
وفحصها بدقة متناهية ، كما لو أن كل شيء فيها كان وحيا

بالنسبة له ، فيخالف السرير ذى القبة ، كان هناك صوان من الخشب الأكاجو ومنضدة صغيرة بجوار الفراش من نفس نوع الخشب فوقها قرص من الرخام وكرسى كبير منجد بالقطيفة الخضراء ، وعلى الحائط ، بجوار النافذة ساعة منمنة الاضلاع بأرقام رومانية متوقفة على الساعة السابعة وسبع دقائق وقال :

— سبق أن أتينا هنا .

وفيما يعد . بعد أن ملا جوزيه بالاسيوس الساعة وضبطها على الوقت الصحيح ، رقد الجنرال فى أرجوحته وحاول أن ينام ، ولو دقيقة واحدة . ورأى عندئذ . من النافذة جبل سيرا نيفادا واضحا وأزرق اللون . كلوحة معلقة لصق الحائط ، وشرذ ذهنه فى الغرف العديدة بالحيوات العديدة وقال :

— لم أشعر بدا بأننى قريب من بيتى هكذا . . .

نام نوما هادئا فى الليلة الأولى فى سان بدرو اليجاندرو ، وبدا أنه قد شفى من آلامه الى حد أنه قام بجولة حول المطاحن ، واعجبته سلاله الأبقار الجيدة وتذوق المولاس ، وأثار دهشة الجميع بمعلوماته عن فن صناعة السكر . ودهش الجنرال مونتيلا من مثل هذا التغير وطلب من الدكتور ريفرانده تفسير ذلك . وذكر له هذا الأخير أن تحسن صحة الجنرال الوهمى أمر عادى عند المحتضرين وأن النهاية قد تكون بعد أيام ان لم تكن بعد ساعات ، وريع مونتيلا من الخبر وضرب الحائط بقبضته وشجت يده . وبدءا من تلك اللحظة ، وحتى آخر أيامه لن يكون أبدا نفس الرجل . كان قد كذب كثيرا على الجنرال بحسن نية ولأسباب سياسية عديمة الأهمية ، وقرر أن يكذب عليه عندئذ بدافع الشفقة ، وأصدر تعليماته فى هذا الصدد الى كل المحيطين به .

أقبل الى سانتا مارتا فى ذلك الأسبوع ثمانية ضباط ينتمون الى الطبقة العالية استبعدتهم فنزويلا بسبب نشاطهم ضد الحكومة ، وبعضهم من أكثر الذين أحرزوا مجدا فى حركة التحرير : نيكولاس سيلفا وترينيداد پورتوكا وجوليان انفانت * وتوسل مونتيلا اليهم أن يخفوا عنه الأخبار السيئة وتضخيم الجيدة منها فى محاولة لتخفيف أكثر آلامه العديدة خطرا * وفعلوا أكثر من ذلك ، وقدموا اليه تقريرا مشبعا جدا عن الموقف بحيث تمكنوا من احياء أمجاد الأيام الغابرة فى عينيه ، وعاد الجنرال الى موضوع ريوهاشا الذى كان قد تغلى عنه منذ أسبوع وراح يتحدث عن فنزويلا كاحتمال عاجل ، وقال :

— أبدا لم تسنح لنا الفرصة بأن نبدأ من الطريق السليم من جديد *

ثم استطرد باقتناع شديد : فى اليوم الذى سأمشى فيه من جديد فى وديان أراجو سيهب الشعب الفنزويلي بأسره ليرحب بى *

رسم خطة جديدة فى اصيل يوم أمام زائرين عسكريين عرضوا عليه مساعدته مترفقين به فى حماسهم ، ولكنهم اضطروا أن يصغوا اليه طوال الليل وهو يقول لهم بلهجة ايحائية كيف يشيدون من البداية والى الأبد امبراطورية أوهامه الكبيرة ، وكان مونتيلا هو الوحيد الذى جرؤ على مخالفة الذين حسبوا انهم يستمعون الى تخريف مجنون اذ قال لهم :

— حذار ، فالذين استمعوا اليه فى كازاكوئما اعتقدوا نفس الشيء *

والواقع أن ما من أحد قد نسى يوم الرابع من يولية سنة ١٨١٧ عندما اضطّر الجنرال أن يقضى طوال الليل فى بحيرة كازاكوئما مع جماعة من الضباط ، ومن بينهم

بريسيفو متدينز « للاختباء من الجنود الاسبان الذين كادوا يفاجئونهم فى بقعة مكشوفة » كان شبه عار ويرتجف من الحمى ، وأعلن بصوت مرتفع خططه التى سينجزها فى المستقبل : « الاستيلاء الفورى على انجوسترا - واجتياز جبال الانديز لتحرير غرناطة الجديدة ، ثم فنزويلا بعد ذلك لانشاء كولومبيا ، وأخيرا غزو أراضى الجنوب الشاسعة حتى بيرو ، وسنسلق عندئذ جبل شيمبوروزو ونغرز على قمته الثلجية العلم الثلاثى الألوان لأمريكا العظمى المتحدة والحررة للقرون القادمة » - واعتقد الذين أصغوا اليه وقتئذ أنه فقد عقله . ومع ذلك فقد تحققت النبوءة بالحرف الواحد ، وخطوة خطوة فى أقل من خمس سنوات .

ولكن لسوء الحظ كانت نبوءته فى سان بدرو اليجاندرى مجرد رؤية مبشرة بالنهاية . فالآلام التى هدأت فى الاسبوع الأول عادت أكثر حدة وعنفا فى عصبة من الاعياء النام . وتقلص حجمه الى حد أنهم اضطروا الى رفع أكمام قمصانه من جديد ، وقص أسفل سراويله القطيفة . ولم يستطع النوم أكثر من ثلاث ساعات فى بداية الليل ، وكان يقضى بقية الليل وهو يسعل ويكاد يختنق فريسة هديان أو يأس بسبب فواق بدأ يعتريه فى سائتا مارتا وغدا أكثر الحاحا . وكان يلهى آلامه بعد الظهر بتأمل قمم الجبال الثلجية من النافذة .

اجتاز المحيط الأطلسى أربع مرات ، وجاب الأراضى المحررة على صهوة جواده كما لم يفعل أحد ذلك على الإطلاق ، ولم يحرر وصية فى أى وقت ، وهو أمر غريب فى ذلك الوقت كان يقول « لا شئ لدى لكى أتركه لأحد » وكان الجنرال يدرو الكانترا هيران قد عرض عليه أن يحرر وصية فى سائتا فى عندما كان يتأهب للقيام برحلة متذرعا بأنه احتياط عادى لكل مسافر ، ورد عليه الجنرال بلهجة فيها من الجد أكثر من الطرب ان الموت لا يدخل فى عداد مشروعاته

الحاضرة ، ومع ذلك فهو الذى أملى مسودات رغباته الأخيرة ،
وتصريحه الأخير وهو فى سان بدرو اليجاندرو ، ولم يعرف
أحد أبدا إذا كان ذلك عملا واعيا أو كبوة من قلبه المضنى -

ولما كان فرناندو مريضا فقد راح يملئ على جوزيه
لورنسيو سيلفا مجموعة من الملاحظات المتضادة شيئا ما تعبر
عن خيبات أمله أكثر منها عن رغباته : « ان أمريكا بلد
يتعذر حكمها ، والذى يخدم ثورة كأنه يحرق البحر ، وهذه
البلاد ستقع الى الأبد فى أيدي الشعب الهائج والطفافة الأغبياء
من كل لون وكل جنس » - وأفكار أخرى كثيفة كانت تدور
فى الأذهان ويتناقلها مختلف الأصدقاء فى رسائلهم .

واستمر فى املائه لعدة ساعات ، كما لو أن نوعا من
الاستبصار قد استحوز عليه ، لا يكاد يوقفه شيء الا نوبة من
السعال - ولم يستطع جوزيه لورنسيو سيلفا متابعتة ، كما
أن أندريس ايبارا لم يستطع مواصلة الكتابة مدة طويلة بيده
اليسرى - وعندما استولى التعب على الجميع ، سكرتاريين
وملازمين ، بقى الملازم ماريانو دى باز واقفا ، وكتب تحت
الاملاء بكل دقة ومثابرة حتى نفذ الورق الجديد - وطلب
عندئذ ورقا جديدا ، واذا تأخروا فى الاتيان به راح ماريانو
يكتب على الحائط حتى غطاه كله تقريبا - وأحس الجنرال
نحوه بالامتنان بحيث أهدها المسدسين اللذين استخدمهما
الجنرال لورنزو كاركامو فى مبارزته الغرامية -

ومن بين رغباته الأخيرة ، طلب أن تدفن رفاته فى
فتزويلا ، وأن يودع الكتابان اللذان كانا ملكا لنابليون
بجامعة كاراكاس ، وأن يسلم لجوزيه بالاسيوس ثمانية آلاف
بيزو ذهبيا اعترافا بخدماته المستمرة ، وأن تحرق كل
المستندات التى تركها فى قرطاجنة طرف مسيو بافاجو ،
وأن تعاد الميدالية التى كرمه بها المجلس الموقر بيوليفيا الى
مكانها الأسمى ، وأن يعاد الى أرملة المارشال سوكرية السيف

الذهبي المرصع بالأحجار الكريمة الذى أهدها سوكرية اليه ،
وأن توزع بقيّة ممتلكاته بما فى ذلك مناجم أروا بين
شقيقتيه وأبناء أخيه المتوفى ، ولم يكن هناك شىء آخر لأنه
أضطر الى سداد ديون كثيرة ، سواء أكانت صغيرة أم جسيمة
ومن بينها العشرين ألف بيزو المزعجة الخاصة بالاستاذ
لانكاستر .

والى هذه البنود الدقيقة حرص على أن يضم إليها بندا
استثنائيا غريبا . ولكن الغريب هو أنه لم يخص به أيضا
الجنرال أوليرى الذى لم يحضر الجنازة ، لأنه لم يستطع العودة
فى الوقت المناسب من قرطاجنة ، وكان الجنرال قد أمره
بالذهاب هناك لكى يضع نفسه تحت تصرف أوردانيتا .

كان من المقدر أن يرتبط كل من الاسمين بالجنرال الى
الابد ، فقد عين ويلسون فيما بعد قائما بأعمال بريطانيا
العظمى فى ليما فى بادئ الأمر ، ثم فى كاراكاس ، واشترك
فى المحل الأول فى الشؤون السياسية والعسكرية للبلدين .
وأمام أوليرى فى كنجستون وفيما بعد فى سانتا فى ، حيث عمل
قنصلا لبلده مدة طويلة ، ومات وهو فى الواحدة والخمسين
من عمره . بعد أن دون فى أربعة وثلاثين مجلدا شهادة ضخمة
عن حياته الى جانب جنرالات أميركا ، وكانت شينوخته
صامتة ومثمرة أوجزها فى عبارة واحدة : « بعد موت المحرر
وتدمير مآثره اعتكفت فى جمايكا حيث كرست حياتى فى
ترتيب أوراقى وتدوين مذكراتى » .

وبدءا من اليوم الذى أملى فيه الجنرال وصيته استنفد
الطبيب معه كل المسكنات التى فى جعبته من لزقات الخردل
فى قدميه وتدليك العمود الفقرى ولبخات مسكنة على كل
الجسد ، وعالج امساكه المزمّن بحقن شرجية سريعة المفعول
ولكنها مدمرة جدا . وخشى أن يصاب باحتقان مخى فعالجه
بلصقات منقطة ، وهو علاج خطر ولكنه يمتص رواسب

الزكام . وقد أخضعه الطبيب ريفراند لهذا النوع من العلاج خمس مرات فى مؤخرة رأسه ومرة فى ركبته . وبعد قرن ونصف من ذلك أجمع الكثير من الأطباء أن تلك الطريقة هى التى عجلت بموته فقد تسببت فى اضطرابات فى البول بحيث راح يتبول على غير ارادته ويألم شديد ويصاحب بوله الدم ، الى حد أن مثانته جفت كما تحقق الدكتور ريفراند من ذلك عند تشريح جثته .

وكان الجنرال شديد الحساسية من ناحية الشم بحيث أجبر الطبيب والصيدلى أوجستو توماسان على الوقوف بعيدا عنه بسبب رائحة المراهم التى تتصاعد منهما وراح يرش الحجرة بماء الكولونيا أكثر من ذى قبل ، واستمر يأخذ حماماته غير المجدية ، ويحلق ذقنه وينظف أسنانه بالفرشاة بضراوة وشراسة ويجهد خارق ليحمى نفسه من أوساخ الموت .

مر بسانتا مارتا فى الأسبوع الثانى من ديسمبر الكولونل لويس بيرو دى لاكروا ، وهو محارب شاب فى جيش نابليون كان الى وقت قريب ملازما للجنرال . وما أن رآه حتى أرسل الى مانويلا رسالة يخبرها فيها بالحقيقة ، ما كادت تقرأها حتى أسرع فى طريقها الى سانتا مارتا . ولكن عندما بلغت جوادياس قيل لها ان الجنرال قد لفظ نفسه الأخير فمحاها الخبر من الوجود ، وانطوت على نفسها وتركت كل شىء خلفها فيما عدا الصندوقين المحتويين على مستندات الجنرال التى أقلحت فى وضعها فى مكان آمن بسانتا مارتا فى والذين استعادهما دانييل أوليرى بعد ذلك بسنين طويلة بناء على طلبها . وكانت أول عمليات حكومة سانتاندر أن حكمت عليها بالنفى . فتقبلت مصيرها بوقار محنق . ومضت أولا الى جمايكا . ثم فى تنقل حزين الى أن انتهى بها المطاف فى مدينة بايتا . وهى ميناء قذر على المحيط الهادى يؤمه

نسييف من صيادى الحيتان من كل البلاد ، وهناك امضت حياتها تواسى نفسها فى شغل الأبرة وعمل الدانيلا وتدخين النسيجار وصنع الحلوى على صورة حيوانات وتبييعها للبحارة طالما سمح لها التهاب مفاصل يديها بذلك ، أما الدكتور تورن ، زوجها فقد قتل بالسكين فى أرض بور بليما وسرو منه القليل من النقود التى كانت معه ، وترك وصية لماثيو سبلغا من المال يعادل الدوطة التى جاءته بها عند زواجها ، ولكنها لم تتسلم هذا المبلغ أبدا . بيد أنها تلقت ثلاث زيارات خففت من وحدتها : زيارة الأستاذ سيمون رودريجز الذى قاسمته رماند المجد ، وزيارة جيزيب جاريبالدى المواطن الايطالى الذى مضى لمحاربة دكتاتورية روزاس فى الأرجنتين ، وزيارة الروائى هرمان ميلفيل الذى كان يحب البحار بحثا عن حقائق لروايته موبى ديك . واذ تقدم بها العمر ، وأرغمها كسر فى فخذاها على ملازمة الفراش ، راحت تطالع البخت فى الورق ، وتقدم نصائح للعشاق ، وماتت فى وباء طاعون وهى فى التاسعة والخمسين من عمرها ، وأحرقت شرطة الصحة كوخها والمستندات الثمينة ورسائل الجنرال الخاصة فى نفس الوقت ، وكان كل ما احتفظت به من الجنرال خصلة شعر وقفاز .

وجد بيرو دى لأكروا فلوريدا دى سان بدرو فى حالة من النوضى من تلك التى تسبق حالة الموت . فكان البيت ينساق مع التيار ، والضباط ينامون فى أية لحظة وقد هدهم السهر . وكانوا عرضة للانفعال الى حد أن جوزيه لورنسيو سيلفا المعروف بحرصه وحذره شهر سيفه ليرغم الموجودين على التزام الصمت الذى يطالب به الدكتور ريفراند ، ولم تعد فرناندا باريجا نفسها تجد نشاطها ولا حيويتها لتلبية الكم الهائل من طلبات الطعام فى الأوقات غير المتوقعة . وكان أكثرهم احباطا يلعبون الورق ليلا ونهارا لا يحفلون بأن يسمع زعيقهم المحتضر فى الغرفة المجاورة . وذات ليلة ،

بينما كان الجنرال راقدا فى فتور الحمى ، راح احدهم يصرخ فى الشرفة بأنهم باعوه باثنتى عشرة بىرو وثلاثة وعشرين سنتيما نصف دسطة من الألواح الخشبية ومائتين وخمسة وعشرين مسمارا عاديا وستمائة مسمار قصير عدنى من تلك التى يستعملها المنجدون وخمسين ذهبيا وعشره أمتار من البفتة وعشرة أمتار من التيل وستة أمتار من شريط أسود .

كانت فضيحة حقيقية غطت على الأصوات الاخرى ، وانتهت بأن شملت المزرعة كلها . وكان الدكتور ريفراند فى الغرفة المجاورة يضم يد الجنرال مونتيلا المكسورة ، وأدرك كل منهما أن المريض ، فى وضوح غفلته يحصى هو الآخر تلك الأرقام ، وانحنى مونتيلا من النافذة وصاح بكل قوته :

— اصمتوا بحق الله .

تدخل الجنرال وقال من غير أن يفتح عينيه :

— دعهم وشأنهم . مهما يكن فليست هناك حسابات لا أستطيع سماعها .

جوزيه بالاسيوس . وحده . كان يعرف أن الجنرال لم يكن بحاجة الى سماع المزيد لكى يفهم أن تلك الأرقام تشمل جزءا من المائتين والثلاثة والخمسين بيزو وسبعة الريالات وثلاثة صلديات تم جمعها من أجل جنازته ، بايعاز من البلدية ، من قبل بعض الخاصة ومن المذابح ومن السجن ، وأن القائمة خاصة بالأدوات اللازمة لصنع التابوت واعداد القبر . وتكفل جوزيه بالاسيوس ، بناء على أمر من مونتيلا بمنع أى شخص من دخول الغرفة ، مهما تكن رتبته ومكانته . وفرض هو نفسه نظاما صارما للسهر على المريض بحيث لم يعرف أحد من منهما سيموت وقال : لو اننى منحت سلطة كهذه منذ البداية لماش هذا الرجل مائة سنة .

وارادت فرناندا باريجا الدخول وقالت :

- مع كل النساء اللاتي أحبهن ، فان هذا اليتيم المسكين لا يسكن ان يموت دون أن تكون بجوار امرأة . حتى ولو كانت فقيرة ومسنة ولا تنفع بشيء مثلى .

لم يسمحوا لها بالدخول . وجلست عندئذ بجوار النافذة . تحاول أن تطهر هذيان المحتضر بصلوات كنائسية . وعاشت بعد ذلك على البر والاحسان العام ، وقد غرقت في حداد أبدي حتى بلغت الواحدة بعد المائة من عمرها .

وكانت هي التي فرشت الطريق بالزهور وأدارت الترتيل عندما اقبل كاهن قرية ماماتوكو لكي يمنحه مسحة المريض يوم الأربعاء ، يتقدمه صف مزدوج من الهنديات ، حافيات الأقدام ، يرتدين كتونة القساوسة من القمات الحشن ويضعن فوق رؤوسهن أكاليل من الزهور ، ويحملن قناديل زيتية ينرن بها الطريق ويرتلن بلغتهن أناشيد جنائزية . وأخذن يتقدمن في الطريق الذي كانت فرناندا تفرشه بالزهور أمامهن . وكانت لحظة مؤثرة بحيث لم يجرؤ أحد على ايقافهن . واعتدل الجنرال في فراشه عندما سمعهن يدخلن وغطى عينيه بذراعيه تجنباً للانهيار . وألقى بهن في الخارج وهو يصيح :

- أبعادوا هذه الأنوار . . كأنها موكب أشباح .

أحضر فرناندو من ماماتو فرقة موسيقية لكي لا تنتهي كتابة البيت الى القضاء على المريض . وراحت تعزف بدون انقطاع طوال يوم كامل ، تحت أشجار التمر الهندي بالحديقة . وأحدثت الموسيقى أثرها الطيب في روح الجنرال ، فطالب الفرقة باعادة عزف مقطوعة «لاترينيتاريا» ، وهي مقطوعة تصاحب رقصته المفضلة المعروفة برقصة «الكارديل» ، وكان لها شيوع كبير لأنه وزع بنفسه توليفتها الموسيقية في كل مكان مضى اليه .

أوقف العبيد المطاحن ، وتأملوا لحظة طويلة الجنرال من خلف شيش النافذة . كان متسربلا في قماش من الجوخ الأبيض ، ووجهه أكثر امتقاعا وشحوبا كما لو أنه مات . وكان يستمع الى الموسيقى وهو يهز رأسه التي بدأ الشعر ينبت فيها من جديد ، وكان . عندما ينتهي كل مقطع ، يصفق بالطريقة التي تعلمها من دار الأوبرا بباريس .

نشطته الموسيقى ، فأخذ في الظهر فنجانا من الحساء وتناول بضعة أجزاء من دجاجة مسلوقة وبعض الحلوى ، ثم طلب مرآة يدوية لكي يرى نفسه وهو في أرجوحته وقال : « بعينين كهاتين لا يمكن أن أموت » . وتولد عند الجميع عندئذ الأمل الضائع تقريبا في أن ينجز الدكتور ريفراند معجزته ، ولكن عندما بدت حالة المريض تتحسن اذا به يخلط بين الجنرال ساردا وبين أحد الضباط الثمانية والثمانين الذين أعدمهم سانتاندر في يوم واحد بدون محاكمة بعد معركة بويكاكا . وبعد ذلك انتكس فجأة نكسة لم يبرأ منها وصاح بالقليل مما بقي له من صوت بأن يطردوا الموسيقيين من البيت حتى لا يزعجوا سلام احتضاره ، وعندما استعاد هدوءه أمر ويلسون بتحرير رسالة للجنرال جوستو بريسينو يطلب منه فيها جميلا ، بعد وفاته تقريبا . وهو أن يتصالح مع أوردانيتا لانقاذ البلاد من كوارث الفوضى ، ولم يمل بنفسه غير السطر الأول « أكتب اليك هذا الخطاب في آخر لحظة من لحظات حياتي » - -

وراح يترثر الى وقت متأخر من الليل مع فرناندو ، ولأول مرة زوده بنصائح تتعلق بمستقبله ، وستبقى فكرة تدوين مذكراته معا في حالة مشروع ، ولكن ابن أخيه كان قد عاش الى جواره بما يكفي لكي يحاول تدوينها ولو ل مجرد تمارين قلبية حتى يعرف أولاده فكرة عن تلك السنوات السعيدة والتعيسة وقال الجنرال : « سيكتب أولري شيئا اذا أراد ذلك ، ولكن الأمر سيكون مختلفا » . وكان فرناندو في

السادسة والعشرين من عمره عندئذ ، وقد عاش حتى بلغ الثامنة والثمانين ، ولكنه لم يكتب غير بضعة صفحات غير مترابطة ، لأن القدر حباه بالنعمة الكبيرة بأن أفقده الذاكرة .

كان جوزيه بالاسيوس موجودا في الغرفة عندما أملى الجنرال وصيته . ولم ينطق لا هو ولا أحد غيره بكلمة أثناء ذلك العمل المقدس ، ولكنه توسل الى الجنرال وهو يأخذ حمامه المهدىء في المساء بأن يغير رغباته قائلا :

— كنا دائما فقيرين ولم نفتقر أبدا الى شيء .

قال له الجنرال : بل على العكس كنا ثريين ، ولم نشعر بحاجة أبدا الى المزيد .

كان هذان التقيضان هما الحقيقة الخالصة ، فقد التحق جوزيه بالاسيوس بخدمة الجنرال وهو جد صغير ، بأمر من أم الجنرال ، وكان عبدا لها ولم تعتقه أبدا بطريقة رسمية . وبقي طوال حياته في ريب مدني ، ولم يتلق أبدا أى راتب . ولكن ضروراته الشخصية كانت ضمن ضرورات الجنرال الخاصة ، وتطابق معه في كل شيء ، في طريقة ملبسه ومأكله حتى بلغ به الأمر الى التشبه به في زهده وقناعته . ولم يشأ الجنرال أن يتركه لمصيره دون رتبة عسكرية أو معاش عاجز في سن لا يمكنه أن يبدأ فيها حياته من جديد ، ولم يكن هناك إذن خيار آخر . لم يكن هناك مفر من تنفيذ بند الثمانية آلاف بيزو . وقال الجنرال :

— ليس هذا الا عدلا .

ولكن جون بالاسيوس أسرع بالرد قائلا : انما العدل هو أن نموت معا .

والواقع أن هذا ما حدث لأنه أساء التصرف في ماله كما أساء الجنرال التصرف في ممتلكاته ، فبعد أن مات هذا الأخير

بقى هو فى قرطاجنة ديزاند يعيش على البر والصدقات العامة ، ولجأ الى الخمر ليغرق فيها ذكرياته وانقاد للمذاته ومات فى سن السادسة والسبعين ، بعد أن تمرغ فى الوحل أثناء أزمة من الهذيان والرعاش فى حجر متسولين معزولين من جيش التحرير •

وفى العاشر من ديسمبر استيقظ الجنرال وهو يشعر بأن حالته أصبحت من السوء بحيث أسرعوا باستدعاء الاسقف استيفيز ، لربما يريد أن يعترف • وأقبل الاسقف على الفور ، مرتديا ثيابه الكهنوتية ليضفى أهمية كبيرة على المقابلة • ولكن تلك المقابلة تمت سرا بناء على أمر الجنرال ومن غير وجود أى شهود ، ولم تدم أكثر من أربع عشرة دقيقة • ولم يعرف أحد أبدا ما دار فيها ، وخرج الاسقف مسرعا وقد اكفهر وجهه ، وصعد الى عربته دون استئذان أحد ولم يقيم الاحتفال الجنائزى ولم يحضر الجنازة رغم الدعوات العديدة التى وجهت اليه • وأحس الجنرال بأن حالته تفاقمت ، وازدادت سوءا بحيث لم يستطع مغادرة أرجوحته وحده ، واضطر الطبيب أن يحمله بين ذراعيه كما لو كان طفلا ويسنده بالوسائد حتى لا يخنقه السعال • وعندما استرد أنفاسه أخرج الجميع لكى يتكلم مع الطبيب على حدة ، وقال له :

— لم أكن أتصور ان هذه البذاعة من الخطورة بحيث يجب التفكير فى الزيوت المقدسة ، وأنا الذى لم أحظ بالايمان بأن هناك حياة فى الآخرة •

قال ريفراند : ليس الأمر كذلك ، فقد ثبت أن المريض اذا أراح ضميره فان ذلك يتيح له حالة نفسية تسهل مهمة الطبيب كثيرا •

لم يهتم الجنرال بلباقة الرد فقد بلبله الكشف الخطف
بأن السباق الجنونى بين مرضه وأحلامه بلغ فى تلك اللحظة
بالذات نهايته أما الباقي فما هو الا ضلال - وقال :

— رحماك يا الله ! كيف الخروج من هذه المتاهة .

وفحص الغرفة فى صحو الأيام الغابرة . ورأى الحسيم
لاول مرة : الفراش الاخير العارى ومنضدة الزينة الحقيبة التى
لن تعكس مرآتها المهزوزة صورته بعد ذلك أبدا والطست
الخزفى المشروخ بما فيه من ماء والمنشفة والصابون من أجل
أيد أخرى ، والسرعة الضارية للساعة المثمثة الأضلاع وهى
تتابع سباقها المحتوم فى السابع عشر من ديسمبر فى الساعة
الواحدة وسبع دقائق من بعد ظهر يومه الأخير ، وعندئذ عقد
ذراعيه وراح يصغى الى الأصوات المرححة للعبيد وهم ينشدون
نشيد الساعة السادسة فى مطاحن السكر ، ورأى من النافذة
كوكب الزهرة المتألق وهو يمضى عاليا فى السماء الى الأبد
والشالوج الخالدة ونباتات اللبلاب الصفراء الجديدة التى لن
يراهما تتفتح يوم السبت التالى فى البيت المتسربل بالحداد
ولا ومضات الحياة التى ستلى بعد ذلك قرونا ، بعد قرون -

تمت

اقرأ فى هذه السلسلة

برتراند رسل	احلام الاعلام وقصص اخرى
ى ٠ رادونسكايا	الالكترونيات والحياة الحديثة
الدس مكسلى	نقطة مقابل نقطة
ت ٠ و ٠ فريمان	الجغرافيا فى مائة عام
رايموند وليامز	الثقافة والمجتمع
ر ٠ ج ٠ فوريس	تاريخ العلم والتكنولوجيا (٢ ج)
ليسترديل راي	الأرض الغامضة
والتر ألن	الرواية الانجليزية
لويس فارچاس	المرشد الى فن المسرح
فرانسوا دوماس	آلهة مصر
د ٠ قدرى حقنى وآخرون	الانسان المصرى على الشاشة
اولج فرلكف	القاهرة مديقة الف ليلة وليلة
هاشم النحاس	الهوية القومية فى السينما العربية
ديفيد وليام ماكذوال	مجموعات النقود
عزيز الشوان	الموسيقى - تعبير نغمى - ومنطق
د ٠ محسن جاسم الموسوى	عصر الرواية - مقال فى النوع الادبى
اشراف س ٠ بى ٠ كوكس	ديلان توماس
جون لويس	الانسان ذلك الكائن الفريد
جول ويست	الرواية الحديثة
د ٠ عبد المعطى شعراوى	المسرح المصرى المعاصر
أنور المعداوى	على محمود طه
بييل شول وأدينيت	القوة الذاتية للاسرام
د ٠ صفاء خلوصى	فن الترجمة
الف ثى ماتلى	تولستوى
نيكتور برومبير	سستدال

رسائل واحاديث من الملقى	فيكتور هوجو
الجزء والكل « محاورات في مضممار	فيرنز ميزنبرج
الفيزياء الذرية)	سيدنى هوك
التراث الغامض ماركس والماركسيون	ف . ع ادنيكوف
فن الادب الروائي عند تولستوى	هادى نعمان الهيتى
ادب الاطفال	د . نعمة رحيم العزاوى
احمد حسن الزيات	د . فاضل احمد الطائى
اعلام العرب فى الكيمياء	جلال العشرى
فكرة المسرح	هنرى باربوس
الجميم	السيد عليوة
صنع القرار السياسى	جاكوب برونوفسكى
التطور الحضارى للانسان	د . روجر ستروجان
هل نستطيع تعليم الاخلاق للأطفال	كاتى ثير
تربية الدواجن	ا . سبتسر
الموتى وعالمهم فى مصر القديمة	د . ناعوم بيتروفيتش
النحل والطب	سبع معارك فاصلة فى العصور الوسطى
سياسة الولايات المتحدة الأمريكية ازاء	د . لينوار تشامبرز رايت
مصر ١٨٣٠ - ١٩١٤	د . جون شندلر
كيف تعيش ٣٦٥ يوماً فى السنة	بيير البيير
الصحافة	د . غبريال وهبة
اثر الكوميديا الالهية لدانتى فى الفن	د . رمسيس عوض
التشكيلى	د . محمد نعمان جلال
الادب الروسى قبل الثورة البلشفية	فرانكلين ل . باومر
وبعدھا	شوكت الربيعى
حركة عدم الانحياز فى عالم متغير	د . محيى الدين أحمد حسين
الفكر الاوروبى الحديث (٤ ج)	
الفن التشكيلى المعاصر فى الوطن العربى	
١٨٨٥ - ١٩٨٥	
التنشئة الاسرية والابناء الصغار	

ج . دافلى اندرو	نظريات الفيلم الكبرى
جوزيف كونراد	مختارات من الأدب القصصى
د . جوهان دورشز	الحياة فى الكون كيف نشأت واين توجد
طائفة من العلماء الأمريكىين	حرب الفضاء
د . السيد عليوة	ادارة الصراعات الدولية
د . مصطفى عزانى	الميكروكمبيوتر
صبرى الفضل	مختارات من الأدب اليابانى
فرانكلين ل . باومر	الفكر الأوروبى الحديث ٣ ج
جابريل باير	تاريخ ملكية الاراضى فى مصر الحديثة
انطونى دى كرسبنى	اعلام الفلسفة السياسية المعاصرة
دوايت سوين	كتابة السيناريو للسينما
زافيلسكى ف . س	الزمن وقياسه
ابراهيم القرصارى	أجهزة تكييف الهواء
بيتر رداى	الخدمة الاجتماعية والانضباط الاجتماعى
جوزيف داهموس	سبعة مؤرخين فى العصور الوسطى
س . م بورا	التجربة اليونانية
د . عاصم محمد رزق	مراكز الصناعة فى مصر الاسلامية
رونالد د . سمبسون	العلم والطلاب والمدارس
د . اتور عبد الملك	الشارع المصرى والفكر
والت وتيمان روستو	حوار حول التنمية الاقتصادية
فريد س هيس	تبسيط الكيمياء
جون يوركهارت	العادات والتقاليد المصرية
الان كاسبيار	التذوق السينمائى
سامى عبد المعطى	التخطيط السياحى
فريد هويل	البذور الكونية
شاندرا ويكراما ماسينج	دراما الشاشة (٢ ج)
حسين حلمى المهندس	الهيرويين والايدين
روى روبرتسون	نجيب محفوظ على الشاشة
هاشم النحاس	صور افريقية
دوركاس ماكلينتوك	

آدامز فيليب	دليل تنظيم المتاحف
نادين جورديمر وآخرون	سقوط المطر وقصص أخرى
زيجمونت هبتر	جماليات فن الاخراج
ستيفن أوزمنت	التاريخ من شتى جوائده (٣ ج)
جوناثان ريلى سميث	الحملة الصليبية الأولى
تونى بار	التمثيل للسينما والتلفزيون
برل كولنسر	العثمانيون فى اوربا
موريس بير براير	صناع الخلود
الفريد ج . بتلر	الكنائس القبطية القديمة فى مصر (٢ ج)
رودريجو فارتيما	رحلات فارتيما
فانس بكارد	انهم يصنعون البشر (٢ ج)
اختيار/ د . رفيق الصبيان	فى النقد السينمائى الفرنسى
بيتر نيكوللز	السينما الخيالية
برتراند راصل	السلطة والفرد
بينارد دودج	الأزهر فى ألف عام
ريتشارد شاخ	رواد الفلسفة الحديثة
ناصر خسرو علوى	سفر قامة
نفتالى لويس	مصر الرومانية
عشر جاك كرايس جونيور	كتابة التاريخ فى مصر القرن التاسع
هربرت شيلر	الاتصال والهيمنة الثقافية
اختيار / صبرى الفضل	مختارات من الآداب الآسيوية
أحمد محمد الشنوانى	كتب غيرت الفكر الانسانى (٥ ج)
اسحق عظيموف	الشموس المتفجرة
لوريكو تود	مدخل الى علم اللغة
اعداد/ سوريال عبد الملك	حديث النهر
د . أبرار كريم الله	من هم القطار
اعداد/ جابر محمد الجزار	ماسك تريخت
ه . ج . ولز	معالم تاريخ الانسانية (٤ ج)
ستيفن رانسيمان	الحملات الصليبية
جوستاف جرونيياوم	حضارة الاسلام

ريتشارد ف • بيرتون	رحلة بيرتون (٣ ج)
ادمز متز	الحضارة الاسلامية
ارنولد جنز	الطفل (٢ ج)
بادى اونيمود	افريقيا الطريق الآخر
فيليب عطية	السحر والعلم والدين
جلال عيد الفتاح	الكون ذلك المجهول
محمد زينهم	تكنولوجيا فن الزجاج
مارتن فان كريفلد	حرب المستقبل
سوندارى	الفلسفة الجوهرية
فرانسيس ج • برجين	الاعلام التطبيقى
ج • كارفيل	تبسيط المفاهيم الهندسية
توماس ليههارت	فن المايم والبيانثومايم
الفين توفلر	تحول السلطة
ادوارد وبونو	التفكير المتجدد
كريستيان سالين	السيناريو فى السينما الفرنسية
جوزيف • م • بوجز	فن الفرجة على الأفلام
بول وارن	خفايا نظام النجم الأمريكى
جورج سبايز	بين تولستوى ودستوفسكى (٢ ج)
ويليام ه • ماثيوز	ما هى الجيولوجيا
جارى ب • ناش	الحممر والبيض والسود
ستالين جين سولومون	انواع الفيلم الأمريكى
عبد الرحمن الشيخ	رحلة الأمير رودلف ٢ ج
جوزيف نبعهام	تاريخ العلم والحضارة فى الصين
كريستيان دديروش	المراة الفرعونية
ليوناردو دافنشى	نظرية التصوير

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ١٩٩٦/٨٥٠٨

ISBN — 977 — 01 — 4913 — 6

عقب احتلال نابليون لأسبانيا ثارت
مستعمراتها فى أمريكا الجنوبية التى طالما
عانت من فساد الحكم وسوء الإدارة وكان على
رأس هذه الثورة فتى أرسقراطى اجتذبتة
مبادئ الحرية التى أخذت تتأجج فى الفكر
الأوروبى آنذاك وكانت وقوداً للثورة وحرب
الاستقلال الأمريكية فضحى بكل شئ من أجل
عقيدته وأخذ يجوب منحدرات الانديز الوعرة
وغاباتها الكثيفة على رأس جيش من
المتطوعين الذين آمنوا بقضية الاستقلال
وكلت جهوده بالنجاح فتحررت المستعمرات
لكن حلمه بتوحيدها فى دولة واحدة تقوض
نتيجة الصراعات الداخلية وبعد أن انتخب رئيساً
للجمهورية تنازل عن منصبه وحمل على
مغادرة وطنه ولكنه توفى وهو فى الطريق
إلى المنفى.

وكانت تلك اللحظة الدرامية مصدر
الإلهام للكاتب الكولومبى جابرييل جارسيا
ماركيز فى كتابة هذه الرواية الرائعة التى
هى من آخر أعماله بعد حصوله على جائزة
نوبل والتى نقدمها لأول مرة بالعربية.